الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

رواية

خوان خوسيه ميلاس

العالم

ترجمة: شيرين عصمت

t.me/qurssan

العالم

رواية

خوان خوسيه مياس

ترجمة: شيرين عصمت

٢٠٠٩

t.me/qurssan

• الكتاب: العالم EL Mundo

• تأليف: خوان خوسيه مياس Juan José Millás

• ترجمة: شيرين عصمت.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف.

© Juan José Millás, 2007

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

t.me/qurssan

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

t.me/qurssan

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

t.me/qurssan

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الجزء الأول
البرد

كان أبى يمتلك ورشة للأجهزة الطبية الكهربائية.. كان يصلحها، يخترعها، ويستدل عليها من الإعلانات الأمريكية. لم يكن يعرف الإنجليزية.. لكنه كان قادراً على تفسير الرسم البيانى، التصميم أو الدائرة الكهربائية بالسهولة التى يفسر بها غيره العلامات. كانت فى ورشته أجهزة أشعة إكس ورئات فولاذية، والتى كنا أنا وإخوتى نلعب بها. وهى لا تخص دائماً أطباء. من أكثر الآلآت التى أثرت فىّ، أذكر شفاطة الدم التى تعود إلى العصر السابق للمشرط الكهربائى، عندما كانت الجروح التى يشقها الجراح تنزف بشدة فتَحُول دون رؤية العضو المراد إجراء العملية له، يترك الشفاط الجرح نظيفاً لمدة ثوان، ويُجمّع الدم فى وعاء زجاجى بفم واسع، كأوانى الزيتون غير المعبأ.. فمن المحتمل أنها كانت قارورة

t.me/qurssan

زيتون، إذ أنه فى البيت لا يُرمى شىء.. فسدادة أنابيب معجون الأسنان تُستخدم مثلاً كأداة تحكم للراديو. وفى وقتٍ لاحقٍ، ومع ظهور المشرط الكهربائى الذى كان يكوى الجُرح وقت حدوثه، أصبحت الشفاطات ـ فى اعتقادى ـ ماضيًا.

كان أبى يفتخر بأنه كان أول من صنع مشرطاً كهربائياً فى إسبانيا، برغم أنه بالتأكيد أخذ هذه الفكرة من إعلان أجنبى. أتذكر وقد شاهدته مائلاً على طاولة الورشة يقوم بعمل قطعات فى شريحة لحم بقرى، كنت مندهشاً لدقة ونظافة الجرح. ولن أنسى أبداً اللحظة التى التفت فيها إلىّ ـ حيث لاحظته قلقاً قليلاً ـ لينطق بهذه الجملة التأسيسية:

ـ "ركز يا خوانخو، كوىّ الجرح فى نفس اللحظة التى حدث فيها".

عندما أكتب بيدى ـ مثل الآن ـ على الكراسة، أعتقد أننى أُشبه قليلاً أبى حال تجربته للمشرط الكهربائى، فالكتابة تفتح الجروح وتكويها فى الوقت نفسه.

لم تتأخر أمى فى منعه من تبديد شرائح اللحم فى تلك التجارب.. فبدأ العمل حينئذٍ على خرط البطاطس، لكنه سأم على الفور.. فلا شىء مثل تركيبة اللحم، ماعدا ـ فى رأيى ـ تركيبة الصفحة.

مهارة أخرى نال بها شهرة مؤكدة، وهى الصدمات الكهربائية النقالة.. جهاز بحجم الكتاب

t.me/qurssan

الذى يحقق أعلى مبيعات، مع أجزاء مستقلة متنوعة، يحتفظ كل منها بقطب كهربائى. وقد اعتاد أن يحكى عن أنه فى أحد الأيام كان فى حديقة مستشفى المجاذيب يتحدث إلى مديرها، فتعرف عليه أحد المجانين كمُوَرِد لتلك الأجهزة فقذفه بإناءٍ من الفخار من إحدى النوافذ، فخدش كَتِفه. كانت الصدمات الكهربائية موضع شك فى سبعينيات القرن الماضى، لكنى أعتقد أنها عادت.. فقد قرأت فى أحد المواقع أن كابريرا إنفانت[1] - الذى كان يعانى من الاضطراب الثنائى القطب[2] - طلب فى إحدى المرات أن يُخضِعوه لها.

قضى أبى أيامه الأخيرة فى مسكن للمسنين حيث كنت أذهب لرؤيته، لم أكن أتردد عليه كثيراً لكن بصورة منتظمة. لقد صار نهماً، إذ أننى تعودت أن أذهب إلى مسكن المسنين فى منتصف النهار لأدعوه إلى تناول الغداء، وأعيده فأتركه وقت الطعام. بهذه الطريقة كانت الأيام التى كنت سأذهب لرؤيته فيها وهو يأكل يومين، إلا أنه كان من الممكن أن أفعله ثلاث أو أربع مرات. كان شرهاً.. ولم يكن سميناً، كان دائماً رجلاً قوياً، رقيقًا، نشيطًا، كان عمره ثمانين عاماً (وتوفى فى الثانية والثمانين). تعودت أن أذهب به إلى مطاعم كنتاكى.. هذه السلسلة من الفراخ

(١) كابريرا إنفانت.. الكاتب الكوبى (المترجمة)

(٢) الاضطراب الثنائى القطب.. هو مرض نفسى يعرف أيضاً بالهوس الاكتئابى وهو اضطراب فى المزاج. (المترجمة).

t.me/qurssan

المقلية التى أنشأها الكولونيل الأمريكى الذى كان والدى شغوفاً به لعسكريته، لاختراعه، ولأنه صار غنيًا بفضل وصفة مكوناتها - حسب ما شرحه لى بإعجاب سرية، مثل مكونات الكوكا كولا.

أثناء لقاءات الأكل كان يحدثنى بشكل متكرر عن فوائد الصدمات الكهربائية، ويحكى لى عن تجاربه الأولى مع جهازها والتى أفقدته الحماس. بدا لى أنه كان يدرك أنه استطاع أن يجرى تجاربه بفضل طبيب من ڤالنسيا.. الطبيب النفسانى الذى كان يعيره المجانين ليخضعهم لاختباراته. لم يشرحها أبداً بصورة واضحة.. لكنه أظهر تأثراً حيث كان يشير إلى هذا العصر بإحساس بالذنب.

ـ "المشكلة" .. كان يقول: "هى أنه فى البداية كنا نُخضع المجانين لتيار متعاقب. وقد كان التيار المتعاقب يغير الاتجاه باستمرار ويترك المخ فى غاية التعب. عند ذلك خطر فى بالى أنه لابد من إخضاعهم لتيار مستمر.. فالتيار المستمر مثل النسمة التى تهب دائماً فى نفس الاتجاه، مُمشطة حقلاً من القمح

دون أن تؤذيه".

عندما قال: حقل من القمح قام بإشارة احتفالية بيده.. بدا لى أنه يرى السنابل (أو الخلايا العصبية) تميل برقة أمام ملاطفة الهواء (أوالكهرباء).

عندما أعيده إلى مسكن المسنين.. آخذ السيارة وأرجع إلى إيبيريا حيث أتكسب رزقى. كنت أدخل إلى

t.me/qurssan

مكتبى، الذى كان مقصورة تشبه التابوت، أدخن الحشيش وأغيب فى الأحلام حتى تعود الناس من ساعة الأكل. أذكر أننى بكيت مرتين لأننى فى هذه الفترة كنت ضعيفاً، مكتبئاً، وأفكار ذلك الرجل المتسلطة على عقله - الصدمات الكهربائية والفراخ المقلية- كانت تزعجنى.

كانت ورشة أبى تقع فى الجزء الخلفى من البيت، تنفصل عنه بفناء إسمنتى. أما الجزء الأمامى به الحديقة التى تتصل بالفناء الخلفى بممر مظلم كانت تنمو فيه شجرة لها قشرة سوداء. للورشة أربعة ملاحق وُضعوا فى صف.. اثنان منهما يُستخدمان كمخزن للمعدات. ويتكون البيت بدوره من طابقين وعُليّة.. فى الطابق الأسفل توجد فى البداية غرف النوم، الحمام وغرفة متعددة الاستخدام والتى فى فترة من الفترات كانت غرفة نوم للصغار (كنا ٤ فتيان و٥ فتيات)، بالإضافة إلى طراز من غرف المكتب، والتى نقل فيها أبى مكتبه. فى الطابق الأعلى كانت غرفة الطعام، المطبخ، حمام صغير جداً وغرفتان أو ثلاثة آخرون. وبعد وقت.. نُقِل المطبخ وغرفة الطعام إلى الدور الأسفل وجُمعت غرف النوم كلها فى الدور الأعلى. كنا نقوم باستمرار بتغييرات من هذا النوع دون أن نخالف ذوق أحد.

فوق أحد المخازن الملحقة بالورشة توجد حجرة صغيرة مغلقة، تصل إليها عن طريق سلالم خارجية.. كان يحتفظ بها صاحب البيت ليحفظ فيها أشياءه

t.me/qurssan

وكتبه التى لا يعرف ماذا يفعل بها. قمنا بكسر بابها أنا وإخوتى.. كانت مضاءة من الداخل بكوة مليئة بالعَفر ونسيج العنكبوت. كانت مكتظة بالعُدَد والكتب. كان يوجد - من بين الأشياء التى أدهشتنا - زوج من المفاول، كأس وطبعة كاملة من كتاب يزعم أن كريستوبال كولون كان جليقى. على الأرجح.. أنه بين تلك الكتب وتلك الأشياء يوجد شىء ثمين.. وإذا كان الأمر كذلك فصاحب البيت لم يكن واعٍ للأمر.. فالذى لم نتلفه نحن، بالت عليه القطط أو أكلته الفئران التى دخلت خلفنا أنا وإخوتى.

دفعنا إيجار ١٠٠٠ بسيتة فى الشهر، وهو مبلغ لم يكن بالقليل إذا أضفنا أنها خرابة، كان بها نزوز. والنوافذ مثبتة بشكل سيىء، وخرسانة الفناء محطمة، الحوائط قُشّر طلاؤها، الكمرات تالفة.... كان يوجد تيار دائم (وحاد) من الهواء البارد بين الباب الذى يؤدى إلى الحديقة من الأمام والباب الذى يؤدى إلى الفناء من الخلف، مخترقاً خفيةً ليصل إلى وسط المنزل. لا أعرف إذا كان من الممكن علمياً أن يكون هناك برد فى النخاع، لكنه يوجد هنا.. فى داخل كل واحدٍ منا وفى داخل كل أفراد العائلة. عندما انتقلنا من ڤالنسيا إلى مدريد كان عمرى ٦ سنوات.

فى البداية كانت البرودة.. والذى شعر بالبرودة فى صغره سيظل يشعر بها طوال حياته، لأن البرودة فى الصغر لا تذهب ابداً. فهى تتكيّس فى اعماق

t.me/qurssan

الجسد، حيث تمتد إلى كل الأعضاء عندما تكون الحالة الخارجية مناسبة لها. أعتقد أنه لكى يصبح الكائن صلباً يجب أن يكون قد نشأ من جنين متجمد.

أتذكر ملمس شراشف السرير.. شديدة البرودة كالكفن، عندما أدخل بينها بستين فى المائة من جسدى.. ٣٠٪ أو ٤٠٪ لحمى، و ٥٪ بيجامتى. أتذكر برودة الملاعق والشوك حتى عندما تهدأ وقت ملامستها للأيدى. أتذكر عدم الإحساس بالأقدام التى كانت تبدو وكأنها أقدام تعويضية من الثلج وُضعتا فى نهاية الأرجل. أتذكر تورم الأطراف المؤلم - يايللا - الذى يبدأ يخز فى وسط فصل اللغة الفرنسية أو الرياضيات، وأتذكر أنه إذا أدركتك رغبة فى الهرش ستشعر بارتياح على الفور، لكن ستتجاوب هذه الرغبة فى الحال مع السبب المؤدى لها مُضاعفة الإحساس بالحكة. أتذكر أننى تعلمت هذه الكلمة.. الحكة.. فى عمر سخيف، من كثرة قراءتها فى نشرات تلك الكريمات التى لا تنفع لأى شىء. أتذكر - خاصةً- أن البرد لا يأتى من أى مكان وبالتالى لا يوجد طريقة لإيقافه.. فهو يشكل جزءاً من الجو ومن الحياة.. فشرط الحياة كان البرودة، مثل شرط الليل كان الظلام. كانت الأرض باردة، السقف، درابزين السلم، كانت الحوائط باردة، كانت المراتب باردة، وكان حديد الأسرّة بارد، كانت حافة سلطانية المرحاض متجمدة وحنفية الحوض، وباستمرار كانت المداعبات متجمدة. وتلك البرودة هى نفسها اليوم.. وبالرغم من

t.me/qurssan

التدفئة، إلا أنه تلوح بعض أيام الشتاء وتُفجر فى الهواء الرغبة فى تدوين الذكريات.. فإذا شعر أحد بالبرد وهو طفل فإنه سيظل يشعربه طوال حياته.

كنا نضع عند حافة النافذة، قبل أن نرقد، كأساً من الماء يصبح مثلجاً فى اليوم التالى، كانت تبدو لنا معجزة. كنا نلمس الثلج بأطراف الأصابع لنرى إذا كنا استوعبنا بأصابعنا مالم نستوعبه بعقولنا. لكن أيضاً الأصابع لم تدرك هذه الظاهرة التى يمكن شرحها فى كلمات علمية وليست عاطفية. الأكثر تعقيداً كان استيعاب أن البرد يحرق، لكن ماهو أكيد أنه ذات يوم فُتحت شفتىّ لأننى حملت بفمى قطعة من النحاس وجدتها فى الحديقة، فى الساعة الأولى من الصباح. كان يعجبنى طعم النحاس.. ومازال، عندما أنطق كلمة نحاس، أشعر بدغدغة كهربائية فى طرف لسانى. النحاس أشبه بالكهرباء. كان أبى يحفظ عشرات البكرات من النحاس فى جزء من ورشته الخاص بالمخزن.

كنا نضع جاكت البيجاما على الفانلة تحت حمالة البنطلون.. والتى كانت الطبقة الثانية من الجلد، وكنا ندخل مقشعرين فى السرير. أحياناً كنت أستمنى، ليس بقصد المتعة أكثر منها بقصد الفضول، فهذا الجسم المتخشب يُخرج عُصارة ساخنة. عندما كان التجمد يصل لقسوة لا تحتمل، كنا نحضر زجاجات مياه غازية بها ماء مغلى ونضعها بين ملاءات

t.me/qurssan

السرير. بالنسبة لى كنت أشعر بالذعر لأنها أحياناً تنفجر. كانت تدور فى المدرسة أساطير وفقاً لها كان الانفجار - عندما تستمنى- يتلاقى مع القذف بحيث يختلط خلال لحظات شىء بآخر. ومن أجل الا تنفجر، كنا نضع داخلها فاصوليا. وبالرغم من أننى تحققت كثيراً من أن تلك الوسيلة تخلو من أى أساس علمى، فإنه لا أحد يذكر انفجار زجاجة خضعت لهذا الإجراء.

كان يحين وقت النظافة العامة للجسم مرة فى الأسبوع. كان الحمام غرفة غير منظمة وباردة، باردة، باردة. فيها مغطس ذو أرجل، لكننا كنا نستحم فى طشت كانت أمى تضعه فى وسط الغرفة. بدأت الآن أناديها "بماما"، مثل الكبار. لكنى كنت دائماً أناديها "بأمى". إذن كانت أمى تضع طشت الماء المغلى فى وسط الحمام.. حيث كان من المستحيل أن تتجرد من ملابسك هناك دون أن تهلك، كنت أوقد النار فى صحن ملىء بالكحول كان لهبه - غير المرئى تقريبًا - يعطى حرارة شديدة سريعة الزوال. تعلمت حينئذٍ أن الهواء الساخن له خاصية الصعود للطبقات العليا من الجو. وكان يصعد الهواء المعتدل للكحول نحو عمق السقف وبرودة الأرض تحيط بك على الفور من جديد.. مثل الكفن. لكن أثناء لحظات السخونة كان الجسم سعيداً.

كان أبى (مازلت لا أناديه "بابا"، لكننا بدأنا) يُدفىء الورشة بواحدة من هذه المدافئ المستديرة،

t.me/qurssan

مُسبكّة من الحديد، كالتى نضعها فى حجرة المعيشة والتى تتغذى على الفحم، كانت تبدأ فى الاحمرار الشديد. ياله من تعبير.. احمرار شديد.. يسمى هكذا - أظن - لأنه أحمر ديناميكى، عدوانى، بليغ، فعال. أحيانًا. كان الحديد يعطى إحساس الشفافية، إلا أنه كان تخيلاً مناسبًا لتلك الدرجات اللونية الشديدة. ولما كانت الحُجرات كبيرة والأسقف عالية، كنت تشعر بالدفء فقط فى جانب الجسم المعرض للمدفئة.. وتكون الحالة هى أن الوجه حار والقفا متجمد أو العكس. كان عالم فى المنتصف.. كان لدينا نصف الدفء الذى كنا نحتاجه، نصف الملابس التى كنا نحتاجها، نصف الأكل والعاطفة اللذين نحتاجهما لنستمتع بالتطور الطبيعى، إذا كان يوجد تطورات طبيعية. فى بعض الحالات يكون لدينا ربع نصيبنا فقط أو أقل.

كان أبى يمضى وقتاً ضائعاً فى ورشته، يعمل - وهو غائب عما حوله - على دائرة كهربائية، يدندن بألحان التانجو. كان يجلس على كرسى عال جداً دون مسند، مثل كراسى المراقبين، والمدفئة تكون فى ظهره. فى أحد الأيام، كنا أنا وأحد إخوتى هناك معاقبين على شىء. عندما مرت بالقرب منا قطة (كانوا كثيرين مثل الفئران) فأخذها أخى ووضعها فى كيس نايلون انتهى به الحال فى الورشة. لا أعرف كيف قام بهذا العمل دون أن يتأوه الحيوان.. لكن المؤكد أنه نال منه وأنجز المهمة بعُقدة. بعد أن قذف بهذا الحشو الغريب

t.me/qurssan

تحت الطاولة، عند أقدام والدى، كأنها قنبلة انفجرت - بالمعنى الحرفى - إذ أن الحيوان ناوله هجمه من اليأس وتحرر من نصف الكيس كأنه لهب أسود، كان يقف فى طرف الورشة فى وضع الهجوم. طيّر أبى الدائرة التى كان يعمل بها فى الهواء. لقد ذعر وبدلاً من أن يتشاجر معنا، شرح لنا - وهو لايزال شاحباً- أن القطط خطرة أكثر بكثير من الكلاب. فقد قال إنها كانت تثب على رءوس ضحاياها تقتلع منها العينين بسرعة، ولم تكن توجد طريقة تجعلها تعدل عن ذلك. كانت أرض الورشة بالية، ككل الأرضيات الباقية، ومليئة ببُرادة المعادن الباردة.

كان كل شىء بالياً. عندما ولدت لم يكن العالم قد أصبح بالياً بعد، لكنه لم يتأخر فى أن يصبح هكذا. كنت الرابع فى عائلة تتكون من تسعة. يسبقنى بنت وولدان. كل واحد يأتى بعد سابقه بخمسة أو ستة عشر شهراً. ولدت فى ڤالنسيا، حيث قضيت الستة أعوام الأولى من حياتى، قبل الانتقال إلى مدريد. أتذكر من ڤالنسيا الشمس، الشاطىء وأمور متتابعة غير متصلة، مثل قطع مفككة من فيلم على اسطوانة بالية:

- أرى نفسى مثلاً وأنا فى يد أمى، كنا فى السوق حيث تشترى شيئاً تدفعه بعملات تخرجها من محفظة نقود سوداء تُقفل بمشبك. فكرت أن فى هذا الوعاء توجد النقود التى أعطوها لها.

t.me/qurssan

(الحكومة؟، الله؟) مدى الحياة وقد خطر ببالى أنه من الاستهتار إخراجه فى الشارع. فلو ضاع أو سرقوه ماذا سوف يحدث لنا.

- الآن فى موقع عال.. ربما فى السرير الفوقى لأسرّة فى مركب أو قطار. يوجد عند مستوى يدى ستائر تقسم المكان لجزاين. أعرف أننى لا يجب ان أرى (أو أسمع) ما يحدث فى الجانب الآخر من الستائر، لكننى لم أستطع منع نفسى من فعل ذلك. بالرغم من أننى لم أفهم الذى أراه (ولا الذى أسمعه) إلا أننى خائف.

- فى قطعة أخرى من قطع الفيلم يوجد ممر فى أحد أطرافه كنت أقف أنا وأمى. هى تظل مختبئة خلفى ممسكة بى من الخصر. سمعتها تسألنى ضاحكة، من فى اعتقادى يكون الشخص الذى ستلتقى به فى الطرف الآخر من الممر. تهتز الستائر بخفة. كل شىء مظلم، بالأبيض والأسود. أعرف أن أبى هو الذى يجعلها تهتز، لكنى أعرف أيضاً أنه رجل. توجد أوقات يكون فيها بابا هو بابا فقط وأوقات يكون فيها رجل فقط. عندما يكون رجلاً فحسب، مثل الآن يشعرنى بالخوف. والدتى تحثنى على أن أجرى لأعانقه وأنا أبكى لأننى لا أريد معانقة ذلك الرجل.

- لاتتكون كل ثروة هذا العصر من صور غير متصلة. كان صيفاً، السبت أو الأحد، وأمى - ماما- تُحضّر

t.me/qurssan

الطعام للذهاب إلى الشاطئ. فى هذه الليلة حلمت أننى عندما قمت بعمل حفرة فى الرمل وجدت بسيتة. حكيت لأمى التى كانت تذهب من جانب لآخر فى المطبخ تضع أشياء، ولم أعرف إذا كانت تسمعنى. بعد ذلك كنا على الشاطئ تحت شمسية. جرى إخوتى إلى المياه. قالت لى أمى لما لا أقوم بعمل حفرة حتى أرى إذا كنت سأجد البسيتة التى كانت فى الحلم. بدأت فى الحفر وبعد قليل ظهرت بالفعل العملة.. الكنز. كل أيام حياتى تذكرت هذه الواقعة التى تضمنت تحقيق حلمى. حكيتها لنفسى مرة، ومرةً أخرى، كأننى لم أفهم مغزاها. بعد ذلك بسنين كثيرة، وأنا مستلقٍ على أريكة محللة نفسية دمثة الخلق.. امرأة تسمى مارتا لاثارو، عدت أحكى لها وعدت أحكى لنفسى حكاية ذلك الحلم الذى تحقق، وفجأة - حتى لا أغرق فى الانفعال - كان يجب علىّ أن أعتدل فى جلستى، كنت قد انتهيت إلى اكتشاف أن أمى.. ماما.. خبئت تلك العملة فى الرمل قبل أن تقترح علىّ عمل الحفرة. وفى لحظة هذا الاكتشاف الثانى، كانت أمى قد توفيت منذ أكثر من عام وكانت تشغل تقريباً كل ساعات تحليلى النفسى. كانت هذه النادرة تخص أحد شخصيات (هكذا كانت الوحدة) المنشورة فى عام ١٩٩٠.

• صورة أخرى للشاطئ.. أذهب إلى الرمال وحدى، راكضاً بين الأجساد المستلقية تحت الشمس. أحد هذه الأجساد شد إنتباهى، هو يخص رجلاً مرتدياً

t.me/qurssan

بنطلونًا وقميصًا أبيض، ويلبس حذاء أبيض أيضاً، من الأحذية التى لها مشبك، ويغطى وجهه بقبعة من نفس اللون. هو نائم. مكثت أنظر له، مندهشاً. أثناء ذلك، يأتى قليل من الهواء الذى يحرك من فوقه القبعة وأرى ملامحه.. هو أبى، لكنه بالأخص هو رجل. أخرج راكضاً، مذعوراً، إلى حيث أجد أمى، لم أقل لها إن بابا كان هناك على بُعد أمتار منا، كأننا لا نخصه أو هو لايخصنا. لا أعرف ماذا يفعل هناك.

- يوم آخر.. ايضاً على الشاطئ، أجرّنا مزلاجاً.. مركب بدائى مكون من عوامتين متوازيتين مربوطتين بأربعة أو خمسة عوارض. كنا عليه فى توازن غير مستقر - أنا وأخواتى بالإضافة إلى بابا - وفجأة.. عندما تخيّلت أن هُوة فُتحت تحتنا، أصبت بحالة من الذعر. أردت أن أعود إلى الشاطىء. أخذنى أبى لذراعه وشد علىّ بقوة ونظر إلىّ كما لو كان يريد قتلى، كما لو كان يقتلنى.. لقد تحول إلى رجل. فى هذه الليلة تخيّلت نفسى - وأنا فى السرير - أتصارع معه وأنتصر عليه.

- لا أزال تقريباً فى ڤالنسيا.. أذهب إلى المدرسة ممسكاً بيد أمى (يد أمى.. كم مرة استخدم هذا التعبير رجل يحكى عن حياته؟). أذهب إذًا ممسكاً بيد أمى. نعبر كل يوم مع أم أخرى تمسك يد ابنها الكفيف، ربما - أفكر أنا- لمدرسة خاصة بطلبة ومدرسين أكفاء. أتخيلهم يتحركون كأجرام فى

t.me/qurssan

غرف هذا المركز الخاص. لا أعرف لماذا تاتى إلى رأسى فكرة أنه من بين كل هذه الأطفال يوجد طفل بالرغم من أنه يتظاهر بكونه كفيفًا فإنه يرى.. تهزنى الفكرة. مازلت حتى الآن، عند تصور هذا الصبى المحتال فى غرفة الفصل، فى غرفة الطعام، فى المنتزه، أشعر بانزعاج لا يمكن فهمه. الأمر أنه عندما نعبر الطريق مع الطفل الذى لا يرى، أغلق عينى واسير لبضعة أمتار دون أن أبصر لأحاول أن أشعر بماذا يشعر الطفل الكفيف، كيف يكون عالمه، بأية طريقة يحس بالخطر. لكنى أفتحهما على الفور.. مرعوباً. فى أحد الأيام خطرت ببالى فكرة.. هى أننى عندما أظل بعينين مغلقتين يرى الطفل الكفيف، بحيث بدأت أغلقهم باستمرار.. فى فصل الرياضيات، الجغرافيا، أثناء الأكل، فى المنتزه، فى ممر البيت أيضاً، فى الحمام، فى المطبخ... . لدى اقتناع سخيف أنه يوجد بينى وبين هذا الطفل الكفيف رابطة غامضة تجعلنا نتقاسم النظر. وهكذا أتت لحظة أقضى فيها نصف اليوم تقريباً بعينين مغلقتين. تبدأ الراهبات فى لفت انتباهى: سألتنى أمى إذا كان قد حدث لى شىء.. بدأت فى إثارة القلق حولى. بعد قليل تخليت عن هذه العادة. فى يوم انقطعنا عن العبور مع الطفل الكفيف. نسيته. سنوات كثيرة لاحقاً، تحولت إلى الكتابة، تذكرت تلك القصة وقررت عمل تحقيق صحفى عن الأكفاء. ومن أجله قضيت يوماً فى صحبتهم، بعيون مغلقة.. بقناع. فعلته من

t.me/qurssan

أجل أن يستطيع الطفل الكفيف الذى كان فى طفولتى رؤية العالم خلال يوم كامل، بدون مقاطعات. حالة غامضة، دين زائف.. فأنا لا يجب أن أشعر بالذنب لأننى أرى.

كانت المدرسة فى ڤالنسيا للراهبات. عند الوصول.. كنا نترك المعاطف داخل خزانة. كنت خلال اليوم أفكر أحياناً فيه.. فى المعطف داخل الخزانة. كان يبدو لى أن قطع الملابس لديها قليل من الحياة، وأنها كانت ترغب فى أن نخلصها من الظلام. لا أتذكر كيف تعلمت القراءة، أتذكر نفسى أقرأ فى كتاب مدرسى شيئاً عن دون بيلايو. ظل هذا الاسم فى ذاكرتى.. دون بيلايو. كانوا يطلقون علىّ فى البيت لسان من قماش. كنت أحياناً أنظر إلى لسانى فى المرآة، لأتحقق أنه كان من اللحم، لكن عندما انقطعت عن رؤيته، شعرت حقيقةً أنه كقطعة اللّبد. وفى أكثر من مناسبة، أمرره فوق السترات، البنطلونات، الملابس الداخلية لإخوتى البنات ووالدتى، مقتنعاً بأنه - لكونه من القماش- لديه خواص خاصة ليدرك طعم تلك الملابس. كنت بفضل الكبار أتدرب على صعوبة نطق حروف محددة.. ففى الاجتماعات العائلية كانوا يطلبون منى أن ألقى قصائد معتلياً كرسياً.

عندما كانت راهبة معينة تدخل الفصل - لا أتذكر اسمها- كنت ألاحظ حركة غير طبيعية بين الأفخاذ.. كانت عبارة عن شكل أولى جداً للإثارة الجنسية.. الجنس.

t.me/qurssan

حدد سفر العائلة الأمور إلى أمور قبلية وبعدية.. ليس فقط لأننا كنا بعد ذلك فقراء كالفئران، أو لأننا كنا قبل ذلك لا نشعر بالبرد، لكن بفضل ذلك التقسيم أصبحت أعرف جيداً لأية مرحلة تنتمى كل ذكرى. ففى المرحلة التى تسبق سفرنا فى ليلة عيد ظهور الملوك (*) بينما كنت أخلع ملابسى رأيت أحد الملوك الماجوس فى الجانب الآخر من النافذة، لكنى لاحظت أن إخوتى لم ينتبهوا لذلك ولم يقولوا شيئاً.

وفى المرحلة التى تسبق مدريد أيضاً وفى اللحظة التى بدأ فيها التحدث عن السفر وبدا أننا نترك فالنسيا، تم إبلاغنا بالخبر بشكل متناقض أكثر من اللازم.. فكانت أفواه الكبار تنطق بأشياء تكذبها عيونهم. وما تؤكده الأفواه أن الوضع سيتحسن، فمدريد العاصمة.. مكان تكثر فيه الفرص، مكان فيه كل شىء (وكنت قد انتبهت مبكراً أنه لايوجد شاطئ، ولا بحر ولا دفء مع أشياء أخرى أساسية)، مكان يستطيع فيه الإنسان أن يكون ما يريده... . توجه هذه الرسائل إلى إخواتى الكبار بالأخص، فأنا مستمع متخلف.. يسمع أصواتاً معانيها غير معروفة، برغم

(*) يقصد بالملوك ..الملوك الماجوس وهم الثلاثة رجال الحكماء الذين اتبعوا النجم ليصلوا إلى بيت لحم للبحث عن ملك اليهود حاملين معهم الهدايا. ومنذ قرون طويلة تحتفل إسبانيا ودول أمريكا اللاتينية بعيد الغطاس (٦ يناير) على انه عيد ظهور هؤلاء الملوك، ويعتقد الأطفال انهم سيظهرون ليقدموا لهم الهدايا ويحققوا لهم كل ما يتمنوه.. فهم الصورة المعادلة لبابا نويل. (المترجمة).

t.me/qurssan

أننى ربما أكون الوحيد القادر على أن الاحظ التناقض بين ما يُقال بالنم وما يُقال بالعين.

كانت فى الحقيقة رحلة مخيبة للآمال. فى أحد الليالى التى تسبق الرحيل كنت فى سريرى، مستيقظاً.. فُتح الباب ودخل والدىّ فاصطنعت النوم، كان إخوتى نائمين، قبلنا والدىّ وعادا ليخرجا من الحجرة، لكنهما تركا الباب مفتوحاً، كانوا يرفعون اللوحات من الممر.. طلبت والدتى من والدى ـ بغضب لا يمكن تصوره ـ أن ينزع المسامير ولا يترك شيئاً حتى لو دمر الحائط.

مؤثر سماع غضبها، حزنها وخيبة أملها.. وربما خوفها. خوف الكبار يُوَلّد الرعب لدى الصغار.

سافرنا فى قطار مقاعده من الخشب، ووصلنا إلى مدريد فى ساعة متأخرة جداً من الليل فنمنا فى بنسيون أتوتشا. شغلنا أنا وأبى وإخوتى غرفة ضخمة بأسرّة مرتفعة جداً، وقبل أن يرقد أبى تبول فى حوض كان موجوداً فى الغرفة، وعندما انتبه إلى أننى كنت أراقبه بتعجب التفت إلىّ وقال:

- "كل الناس تفعل ذلك فى البنسيونات".

فى اليوم التالى ذهبنا إلى البيت، وضعنا أيدينا عليه. كان الجو صيفاً، فلم نشعر بالبرد، لم نشعر به بعد. يقع البيت بعيداً، فى شارع يسمى "كانيياس"، فى حى معروف باسم "بروسبريداد" عبارة عن ضاحية، لكننا لم نعرف بعد ماهى الضاحية.. لذلك لم تستملنا

t.me/qurssan

أيضاً التناقضات. تحمسنا نحن الصبية لرؤية الحديقة.. ذلك الفناء، تلك الغرف الخلفية التى تسمى الورش. لم نتعب من صعود وهبوط السلم، من فتح الأبواب ومن اكتشاف أركان جديدة. لقد أكد الوصول بشكل مؤقت ما كانت تقوله الأفواه، ولم يتأخر الوقت فى إثبات ما كانت تقوله العيون.

أثناء الصيف ألزمنا والدى بقراءة «دون كيخوت» بالتناوب ونحن جالسون على مصطبة فى الورشة حتى لا نضايقه.. كانت تلك الطريقة للدخول فى علاقة مع عمل لثربانتس كارثة، لذلك كنا نهرب إلى الشارع عندما نستطيع.. لكن الشارع كان منطقة ممنوعة. وفى وقت مبكر شعرنا بسر: هو أننا كنا لا ننتمى للطبقة الاجتماعية للأولاد الذين يلعبون فى الشارع، فلم يكن يجب علينا الاختلاط بهم. أين يكون إذن الأولاد الذين ينتمون لطبقتنا؟ فى أماكن أخرى، فى أحياء أخرى لم نكن نستطيع الذهاب إليها لأننا كنا فى حاجة إلى ملابس مناسبة، لأحذية مناسبة، لمبلغ مالى معين. كنا فى حالة من شدة الانزعاج، فمن هذه المسافة لم تتحول وقتها ڤالنسيا فقط إلى مكان مشرق، دافىء، به بحر، لكن إلى الجنة المفقودة.

عندما بدأت أكبر، كان كل شىء محطماً.. حياة والدىّ محطمة - فقد كان هذا واضحاً-، وحياتنا نحن التى كانت تحتاج بشدة إلى الطبقة الاجتماعية والمكان الذى ننتمى إليه. وعندما انتهى الصيف انتبهنا

t.me/qurssan

أن البيت أيضاً كان محطماً.. فإذا أمطرت كانت تظهر ثقوب فى السقف تجبرنا على أن ننقل أسرّتنا من أماكنها لنضع جرادل نفرغها عندما تصل فيها المياه إلى مقدار معين. وإذا قامت الرياح كانت تيارات الهواء تدخل بشكل عنيف فى الغرف مُحدثة اهتزازات عالية الصوت فى إطارات النوافذ، ويرتج زجاجها الرقيق كأن حالة من الذعر أصابته. لم تكن تُغلق الأبواب جيداً لأنها كانت غير مثبتة فى مفصلاتها، لا شىء كان ثابتاً فى مكانه، حتى الكلمات التى كانوا يشرحون بها أسباب وقوعنا فى ذلك الوضع غير المرغوب فيه.

كان الجانب الآخر من شارع كانيياس هو حدود الواقع.. ففى الناحية الأخرى منه كانت تنتشر مصارف المياه والخلاء اللذان كانا يشكلان تهديداً. هناك كانت القاذورات تطفو إلى حيث يبلغ النظر.

ذهبنا نحن الصبية إلى مدرسة كلاريت التى سكن قساوستها فى طرف من أطراف ذلك الحى فى نفس الوقت تقريباً الذى سكنا فيه. وبرغم أننى قضيت فترة كبيرة من حياتى فى الهرب من تلك الشوارع، فإننى لست متأكداً من أننى نجحت فى تحقيق ذلك.. فأحياناً أفكر فيها - وأنا فى سريرى - كما لو أننى لا أزال أعيش داخل متاهة مُحاصراً.. وربما يفسر هذا أزمات الخوف من الأماكن المغلقة التى تنتابنى بانتظام نوعاً ما. ومن المؤكد أنه برغم أننى جعلت من نفسى شخصاً كبيراً فإننى كنت فى

t.me/qurssan

التاسعة صباحاً من كل يوم آخذ شنطتى وأذهب إلى المدرسة، وأعود منها فى منتصف النهار لأرجع لها بعد فترة الطعام. وفى كل رحلة من هذه الرحلات أتأكد من أن العالم مكان غريب، وغامض.. لكن هل يجعله هذا جذاباً؟ طبعاً لا.. مع أنه بالتأكيد داخل وحشة كل يوم تولد لحظات سعادة غير محتملة.

ويدفعنى هذا الموضوع إلى القول أن أبى كان على اتصال بأدواته كما لو أنها كانت أجزاء ممتدة من جسده.. مجموعة تعويضية. وبنفس الطريقة كانت اللغة التى يستخدمها معنا ويقولبها لنا.. وحتى فى الوقت الذى كان أبى يبدو فيه أنه يتحدث إلى أدواته التى كانت فى متناول يده، كنا نتحدث له أكثر ما كنا نتحدث معه.

عندما توفى والدى، أحرقنا جثته وحفظنا رفاته فى مبنى لحفظ رفات الموتى، حيث يرقد فيها رفات أمى. لم يهتم أحد بوضع اسمه على شاهد القبر، فكانت تبدو رفات أمى فقط هى الموجودة هناك.. وعاء حفظ رمادها فقط، وبالتأكيد هو أكبر وأكثر بلاغة من وعاء أبى. وبعد شهرين قررت أن أجمع رفاتهما.. فقد أعربا فى إحدى المناسبات بطريقة غامضة أنهما يرغبان فى أن ينتهيا إلى البحر. وبعد سلسلة من المشقات البيروقراطية ودفع مبالغ من المال، وفى أحد أيام أواخر شهر ديسمبر واعدنى الموظفون فى المقابر فى الساعة التاسعة صباحاً. حضرت فى تاكسى، فلم أشعر برغبة كبيرة فى

t.me/qurssan

القيادة، وطلبت من سائقه انتظارى. وصل الموظفون فى ميعادهم وتوجهت بمصاحبتهم إلى المبنى الذى يوجد فيه الرفات، جناح ضخم بأسقف عالية، بدا كحجرة تجميد صناعى.

بعد نزع الشاهد الذى كان مكتوبًا عليه اسم أمى فقط، أزاحوا بخبطات من المطرقة حاجزاً رقيقاً من قماش صوفى كان يفصل الناحية الأخرى التى تظهر فيها أوعية الرفات. كانوا يؤدون عملهم باحترام - لكن بطريقة روتينية - بينما كنت أسأل نفسى هل يستلزم الأمر إعطاءهم "بقشيش" عندما ينتهون. يخرج من فمى بخار مثلما كنت صغيراً أذهب إلى المدرسة بأنف متجمدة. سلمونى بعض الأكياس لأحفظ فيها الأوعية، وسجلوا أرقام لوحة التاكسى الذى أحضرنى لأخذ الرفات.. إجراءات. ظل الشاهد الرخامى المكتوب عليه اسم أمى فى أحد أركان المبنى. ألن تكون حمولة غريبة إذا أخذتها معى؟.. أودعت الأوعية فى حجرتى بالعمل، داخل دولاب - عند طرف الطاولة التى أكتب عليها- أحفظ فيه ايضاً مفكراتى ودفاترى المستعملة. ظلت الأوعية هنا منذ ذلك الحين، فقد تحسنت حالتها من برد السنين الماضية فى مكان حفظها فى مدافن ألمودينا. تحدثت تليفونياً مع إخوتى لأخبرهم أننى استعدتها ونرى إذا كان أحد منا سوف يسافر إلى فالنسيا ويرمى رفاتهما فى البحر. شكرنى إخوتى لأخذى هذه المبادرة، لكن أحداً لم يعرض مساعدته لتنفيذ الوصية. سوف أنفذها أنا، مع أننى لا أعرف

t.me/qurssan

متى ولا أريد أن أعرف. خففت مرافقتى للرفات من إحساس قديم بالذنب.. فأنا أعترف لك يا أبى أن القلم الذى أستخدمه هو بالنسبة لى كالأدوات التى كنت تستخدمها وما كانت تمثله لك. أكتب فى كراسة ذات مربعات.. أتصور الكتابة بمثابة العمل اليدوى.. فكل جملة هى دائرة كهربائية، وعندما تدير المفتاح الكهربائى فيجب أن تشتعل الجملة.. فالدائرة الكهربائية لا يجب أن تكون جميلة لكن تكون فعالة.. جمالها يكون فى فاعليتها.

لو أن ولع أبى كان بالمُعدات، فولع أمى كان بالأدوية. وظلت دكاكين الحدائد والصيدليات يرافقانى فى خيالى كمدارس تكميلية.. فلا يوجد شىء شبيه باستعمال الملاقط تحت تأثير بعض الأدوية. بعض النشرات تحذر من استخدام معدات آلية تحت تأثير أدوية معينة. أما بالنسبة لى يكون العكس.. فخلال سنوات كنت غير قادر على الإمساك بالقلم - والذى يُعد ملقاطى- إلا بعد تناول بعض الأدوية. كان يعجبنى "أويتاليدون" الذى لايزال موجوداً مع أنه بتركيبة مختلفة عن تركيبة ذاك الوقت. كانت أمى مدمنةً له كما كان أبى مدمناً للمفك. وقد اعتمد نجاحه على وجود جرعة صغيرة فيه من الباريبتورات.. وهو - فضلاً عن جودته الكيميائية كان يشتهر بأنه المادة التى تختارها الممثلات الأمريكيات للانتحار.. أسطورة. أما عندما نتناوله نحن، كنا ننتحر قليلاً بصورة تتلاءم مع الحالة التى كنا كلنا

t.me/qurssan

نعيش فيها. وكان أكثر وقت تناولته فيه عندما التحقت بشركة إيبيريا كموظف بسيط.. كنت أصل إلى المكتب فى الثامنة صباحاً، أحضّر قهوتى وأذهب لمكتبى، ومع أول رشفة أتناول قرصين من أوبتاليدون (فتأثيره يكون أكثر قوة عند تناوله مع شراب ساخن). ولمدة عشر دقائق كانت تنشأ حالة غامضة بينى وبين الواقع تيّسر علاقتنا.. فكان الواقع يبدو أقل حدة، يفقد حدوده، أطرافه وعدوانيته... . حتى الكراهية تصبح لينة كفراش من ريش. وتحت تأثير الأوبتاليدون وعندما كان رئيسى لا يلاحظنى، كنت أكتب قصائد بقلم بيك أسود من الأقلام ذات السن الحاد.. ويكون هنا التحالف بين دكان الحديد والصيدلية.. عالمان معدنيان منسجمان.

هل اكتشفت أولاً الأدوات أم الأدوية؟ لست متأكداً. كانت الأدوات تبدو فى ظاهر الأمر أنها الأكثر ظهوراً، لكنى أتذكر الآن أنه فى أحد الليالى كشف أخى الأكبر عن زجاجة أثير وجدها فى ورشة أبى، كنت أجهل الفائدة التى يمنحها هذا المخدر له، كذلك لم أعرف كيف اكتشف أخى تأثيرات المخدر. حدث هذا بينما أبى وأمى فى السينما وقد تركونا فى أسرّتنا، عبر أخى الفناء ودخل الورشة ثم عاد بالزجاجة، بلل خرقة بالمادة التى كانت تحويها ثم وضعها على أنوفنا.. بدأ بمانولو ثم أنا وانتهى به.

حدث بعد ذلك أن والدىّ لم يجدا تذاكر فعادا على الفور، وعند دخولهما حجرتنا، لاحظا الرائحة

t.me/qurssan

وأخذا يصرخان مذعورين. أتذكرهما وهما يوقظوننا بعنف، يفتحان النوافذ ويحركان الهواء بشراشف السرير. إلا أننى أتذكرهما وكأنهما فى ناحية من الواقع وأنا فى الأخرى. لذلك لم يكن الأثير ضروريًا بالنسبة لى أيضاً.

كانت أمى تحبنى، أقصد أنها كانت تفضلنى. وقد أنقذنى هذا.. فعندى اعتقاد - يمكن أن يكون مستحيلاً- أنه تم خلاصى.. من ماذا؟ طبعاً من جهنم. ففكرة الخلاص فى ثقافتنا (فى عالمنا) ترتبط بتفادى جهنم أكثر من الفوز بالجنة. ومن أى شىء تتألف جهنم؟ من كائن حزين، غير متعد، دون منافع ثقافية، اضطرابات فلسفية، طموحات أدبية وربما دون أى اتجاهات برجوازية.

أنقذتنى أمى؟ ربما نعم.. لكن فى نفس لحظة فقدانى.. إذ أنها تصرفت مثل مشرط أبى الكهربائى، الذى يشق الجرح ويكويه فى نفس الوقت. أحلم أحياناً بكتابة تغرقنى وترفعنى، تمرضنى وتشفينى، تقتلنى وتعطينى الحياة.

بعد أن وُلد أخى الصغير بقليل، رأيت أمى فى أحد الأيام وهى ترضعه، عندما التفتت نحوى وعرضت علىّ حلمتها.. قالت:

- "هل تريد أنت أيضاً؟".

كنت مذعوراً.. كان عندى ثماني أو تسع سنوات.. فكرت أن أخرج راكضاً من غرفة النوم. تحدثت عن

t.me/qurssan

هذا المشهد لساعات أثناء جلسات تحليلى النفسى، دون الوصول لأية نتيجة. قرأت منذ فترة وجيزة فى بعض مواقع الإنترنت أنه لفهم اختبار يجب أن تحوله أولاً إلى تجربة نفسية.. بمعنى آخر.. هى تجربة ظلت هنا، تتكيّس.. مثل الورم الذى تلاحظه بارتباك فى كل يوم عندما تتجرد من ملابسك دون أن تعرف ماذا يجب أن تفعل به أو يفعل هو بك. ربما استطاعت تلك التجربة - التى قامت بها أمى كما يجب - أن تفيدنى بشكلٍ ما، لكنها تظل فى داخلى كنواة أولية فظة.

عندما أقول أن أمى كانت تفضلنى.. أقصد أن أقول إنها كانت شغوفة بى.. ففيما يبدو أننى كنت أشبهها كثيراً. كنت - حسب كلام الناس - "صورتها الحية". صورة حية.. أى اجتماع غريب للكلمات.. ربما كانت أول سياق تعبيرى لنوع من أنواع الغاز الطبيعى، مرض مؤلم، تكسية بالسيراميك، البرود البريطانى، شيخوخة مبكرة، الزينة على نعش الميت، تحسن عَرَضى، وقت ضائع، شدة الحُمرة، إلى آخره.... بدأت أخزن مصطلحات فى الذاكرة مثل هاوى جمع الأشياء.

كنت أنا صورتها الحية.. فلى أنفها، فمها، أسنانها، وشعرها. عندما أطالع صورتى كأننى أراها.. كنرجسى يرى نفسه فى انعكاسات المياه. وبالعكس.. كنت لا أرى نفسى فيها.. كنت لا أرى نفسى ولا حتى فى المرآة. لكن يبدو أننى كنت أتمناها.. بشدة.

t.me/qurssan

توصلت إلى هذه النتيجة وأنا على أريكة جلسات تحليلى النفسى. كانت حياتى محددة بتلك الأمنية التى فى لحظة انكشافها أثارت داخلى رفضاً كبيراً.. (من جديد الجمع بين المتناقضات). لم أكن أرى نفسى فى المرآة لأننى عندما كنت أنظر فيها كنت أكتشف بالفعل ملامح أمى فى جسد طفولى.. كان ذعراً. فاخذت قرارى ألا أشبهها، وقد كان هذا القرار أهم مشروع فى حياتى. كنت أنظر فى المرآة أرسم تعبيرات.. وهى طريقة للبحث عن هوية. كنت أقضى ساعات راسماً تعبيرات لا تجعلنى أشبه أمى، حتى أننى اكتسبت هذه المهارة التى استطعت الحفاظ عليها لساعات والتى جعلتنى أفعل ما هو ضد الطبيعة. اصلحت شكل الشفاه.. خاصةً الشفاه العليا التى كانت مرتفعة من المنتصف مُظهرة السنتين اللتين تكونان فى المقدمة.. القاطعتان، فقد كانتا مميزتين لفم أمى وفمى. أجهل كم عدد عضلات الوجه.. لكنى اعتقد أننى وصلت لدرجة مكنتنى من التحكم فيها كلها، وفى كلٍ منها على حدة. واليوم عندما ألتقى باحد فى الشارع لا أرغب فى تحيته، أغيّر ملامحى لدرجة أنه لا يتعرف علىّ.

بعد الوجه أتى دور الشعر.. ففى أحد الأيام فى صالون الحلاقة طلبت منهم أن يقصروا شعرى كشعر الفرشاة، فضحك الحلاق بشدة، فقد كان من المستحيل عمل هذه القصّة لشخص شعره مموج مثلى (مثل شعر أمى)، ضحكت كل الناس من هذه الواقعة..

t.me/qurssan

وبينما يضحك الناس سمعت نباح كلب يأتى من الفناء الداخلى، كان يخص أحد الحلاقين الذى كان صياداً. لا أنسى مطلقاً هذه الضحكات ولا ذلك الكلب ولا الفناء الداخلى الذى أطللت منه يوماً لأرى الكلب الذى احتفظت بنظرته فى لحظات حرجة.

أنا لا أشبه أمى.. بدأت المقارنة بين ملامحها وملامحى.. نبرات صوتها ونبرات صوتى، تعبيراتها اللفظية وتعبيراتى... . كنت قلقاً أن أكون بالفعل صورة طبق الأصل منها.. كنت أتحدث مثلها، أحرك ذراعى مثلها، أعرض أفكارى مثلها. خلال سنوات (فى الحقيقة طوال حياتى) كنت أتفكك وأعود لأجمع نفسى بطريقة أخرى.. يحدث هذا بينما كنت أنمو.. بينما تطول أرجلى وذراعىّ وأتحول إلى مراهق. إذ أن التفكك لا يحدث فى مادة ساكنة، أو صورة زيتية لشىء جامد، لكن يحدث مع الشىء المتطور. وعندما تُفَكِك شيئاً متطوراً، تتحول أجزاؤه إلى أحجام مختلفة عند العودة لجمعه.

أعتقد أن النتائج كانت مفاجِئة.. ففى الوقت الحالى أشبه والدى أكثر مما أشبه أمى. وفى يوم - ليس ببعيد- عندما دخلت إلى أحد الفنادق فى مدينة أجنبية شاهدت نفسى فى مرآة الاستقبال فرأيت أبى فى مرحلة انتقاله من النضج إلى العجز. لاحظتنى ولاحظته لوقت بدهشة.. لقد خسرت أمى المعركة.

لكنها لم تخسر، فأمى كسبت كل المعارك مع أنها خسرت الحرب.. مسكينة.

t.me/qurssan

وقد صنف ناقد جدير بالثقة أولى رواياتى "العقل هو الظلال" على أنها تجربة غريبة "مناقضة لأوديب". اعتقد بالفعل أننى تحولت إلى شخصية متناقضة مع اوديب.. فقد عاديت إرادة أمى من أجل أن أظل اعيش مع أبى.

خلال فترة من الزمان كنت قد نسيت واقعة حلمة ثدى أمى.. محوتها تماماً، ليست فقط هذه الواقعة بل غير ذلك. كنت كلما أرى فى السينما فستاناً مفتوحاً من على الصدر، أتخيل شكل الصدر كاملاً وواضحاً لكن بدون الحلمة.. حتى أننى كنت اعتقد أن صدر المرأة أملس تماماً، وفى أحد الأيام انتابتنى حالة من الذعر عندما كنت أتصفح مجلة إباحية مع اثنين من أصدقائى، كنت اظن أنه شىء إلى هذا الحد فظ، بيولوجى، لا يمكن أن يشكل جزءاً من الشكل الأصلى للصدر.. واعتبرته مجرد عقدة ليس اكثر نحلها عندما نأتى إلى الحياة.. نقوم بفكها.. فتقريباً ليس لدينا أى عمل آخر غير أن نحل هذه العقدة التى تغذينا عندما نأتى إلى الدنيا والتى نجدها بعد ذلك عند كل النساء.. حتى أننا أحياناً نفكها بأسناننا.

كان هناك دائماً ما يؤلم أمى.. وكانت دائماً حاملاً.. كنا نحن ـ أبناءها ـ جزءاً من مرضها.. فلم يكن لديها أبناء بل أعراض مرضية، وقد كنت العَرَض المفضل بالنسبة لأمى.. فعندما كنت أمرض، كانت

t.me/qurssan

تحملنى إلى سريرها، كان يوجد عند موضع قدميها دولاب من ثلاثة أجزاء بمرآة فى منتصفه.. والتى كنت أنظر فيها لأراها.

كانت الفائدة من كثرة الإخوة (تسعة) هى أنه تأتى لحظة يفقد فيها الكبار السيطرة علينا.. فقد كنت تستطيع أن تختفى لساعات دون أن يفتقدك أحد. فى إحدى المناسبات قضيت فترة المساء كاملة داخل الجزء الأوسط من ذلك الدولاب.. المساء كاملاً خلف المرآة.. لا يوجد الكثير الذى أضيفه لأننى لم أر شيئاً.. فلا يوجد شيئاً خلف المرآة ولا فى الجانب الآخر منها. لكن ليس أكيداً أنه لا يوجد شىء خلفها.. كنت أنا، لكن ماذا أفعل هنا؟ أُطل على هذا.. الجانب الآخر.. كأنه جهنم.. ليس فى المكان بل فى الحالة.. فلو أنك وصلت إلى هذه الحالة من الممكن أن تكون داخل أو خارج الدولاب، أمام أو خلف المرآة، معك صحبة أو وحيد. كنت تعلم أنك لا تنتمى - وأننا لا ننتمى- إلى العالم الذى كنا سننتقل إليه. ليس بسبب أننا كنا فقراء كالفئران أو بسبب البرودة التى لا تُحتمل، أو لأنه كان لايوجد غير السلق دائماً للعشاء، لكن بسبب وجود جو معتم بينك وبين العالم.. فالعالم كان مظلماً.

كان يوجد اختلال فى شخصية أمى، فكانت فى لحظات تتحول من الهدوء إلى الاضطراب. كان هناك شىء داخلها يدفعها لأن تكون سيئة.. فعندما تكون

t.me/qurssan

حالتها سيئة جداً كانت تنتقل بين حجرات البيت.. من واحدة لأخرى، تتذمر من هذا أو من غيره.. وكأنها إله من آلهة الانتقام.. فكانت تشكو من الشيء وعكسه في الوقت نفسه. أي تعليق كان يُقال في وجودها سواء كان ساذجاً أو بنية طيبة كان يجعلها تنقلب ضدك. كانت تهوى أيضاً إعطاء أوامر متناقضة تُشل الشخص عندما يتلقاها.. لم أكن أُصاب بالشلل فقط بل كنت اتمنى أن أصبح بحرًا، طاولة، قطعة زجاج أو شيئاً ساكناً. عندما كانت تُجن أمي كانت تصيبني بالذعر. تعبيرات كاملة مثل.. " ليست في حالتها الطبيعية" أو "لقد جُنت" كانت تصف جيداً كيف كانت طريقتها. عندما تكون في غير حالتها الطبيعية، كان يبدو شعرها المسترسل كبقعة من الصبغة تتغير حسب اهتزاز رأسها.. كان كثيفاً جداً.. ليس له ملامح.. كانت امرأة بائسة للغاية، لكنها كانت - وبطريقة غير مفهومة - سعيدة للغاية. فلربما كانت تدرك في لحظات تعاستها الكبرى قليلاً من النشوة. لكنها كانت في النهاية تتألم من تعاسة تجعلها سعيدة (المشرط الكهربائي).

منذ سنوات كنت أكتب تحقيقاً صحفياً حول شخصية كانت تعيش في مدريد تعاني من الهوس الاكتئابي ـ الاضطراب الثنائي القطب ـ كنت أحصي أعراض مرضها وأطابقها بأعراض أمي.. هي خطوة بين التفاؤل والإحباط، بين الجنة والنار.. هي انحدار. أعتقد أنني نفسي أعاني من الهوس الاكتئابي قليلاً،

t.me/qurssan

برغم أننى أسعى لعدم إظهار سعادة مفرطة ولا حزن مبالغ فيه.. وهذا مثل ذاك.. هى أشياء عقلية أكثر منها جسدية. قضيت فترة من الزمان أعيش أحلاماً عظيمة فأتخيل نفسى مُحققاً مكاسب غريبة، وباستمرار.. انتكاسات كبيرة وفقدان للحماس يجعلانى أضع قدمى على الأرض. ففى الانتكاسات توجد لحظات سعادة عظيمة (مرة أخرى المشرط الذى يجرح ويشفى فى نفس الوقت) فعندما أكون مقتنعاً بأنه إذا لم يكن عندى ما أخسره، فأنا أستطيع أن أخاطر بكل شىء.. مثل هذه الأحلام عادةً تُوجِد علاقة بالمشروعات الروائية.. فعند تخيل هذه المشروعات تكون المتعة شديدة تقضى على أية إمكانية لإنجازها. فيجب علىّ دائماً أن أقى نفسى من هذا.. فتوجد حكايات تقتحمنى، تملأ ليلى ونهارى دون الوصول إلى شىء، ودون أن تتحول لشىء، ودون الشعور بأنها مناسبة.

لا أعرف إذا كانت أمى تعانى من الهوس الاكتئابى، ربما هى كذلك.. ربما إذا كانت تعاملت مع الحياة أو الأدوية بطريقة مختلفة، جعلها هذا أقل هدوءاً، وأكثر تحكماً فى ملامحها وكلماتها.

عندما وُلد أصغر إخوتى، كانت هى على حافة الموت. فى الليلة السابقة كانت قد صعدت وهبطت السلم كثيراً.. ففى تلك الفترة كانت حجرة والدىّ فى الطابق الأسفل حيث أصبحت لاحقاً حجرة الطعام. لم

t.me/qurssan

لكن تقليد وضع النساء لحملهن فى المصحات شيئًا متعارفًا عليه بعد، أو ربما لم يصل هذا التقليد إلى عائلتى. فى الساعات الأولى من الصباح أتت المولِدة، وطلبوا من كل الأطفال الخروج من البيت وعدم الرجوع قبل منتصف المساء.. كان معنا القليل من السندويتشات.. كنا فى شهر يوليو أوأغسطس لأنه كان حاراً جداً، وكانت جائزتنا عندما نعود إلى المنزل اننا سنجد أخًا صغيرًا، لكن فى عائلة مكونة من ثمانية أشخاص لم تكن هذه جائزة. لكن من كان يناقش تلك الأمور.

خرجنا إلى الشارع.. حيث سرنا لساعات فى اتجاه موقع مطار باخاراس اليوم. كان كل شىء جافًا. أكلنا السندويتشات فى هدوء وجلسنا على بعض الأحجار ثم بدأنا طريق العودة، وعندما دخلنا إلى الحديقة شعرنا باضطراب يُقلق.. كانت هناك حلقة من الأشخاص الذين يتحدثون بصوت منخفض كما يحدث فى الجنازات. دخل الناس إلى غرفة أمى وخرجوا باكين. رايت ابى مرعوباً.. كما لو كانوا سحبوا الأرض من تحت قدميه. لم نسأل عن شىء، ولم نقل شيئاً.. فقد كانت حدودنا أن نتأمل هذا المشهد بحيرة أطفال مذعورين. على كل حال كنت متعوداً على الخوف الذى أضاف فصلاً آخر.. فالحياة بدون خوف لا يمكن تصورها، وأيام السلام لم تكن ابداً أيام سلام لكنها هدنة.. فالغريق الذى يصعد للحظات على السطح لاستنشاق الهواء قبل أن يغرق من جديد لا يكون أكثر سعادة منه حينما يزفره.

t.me/qurssan

أجهل ما مشكلة أمى، لكنها نجت. فى اليوم التالى ذهب القلق، فتركونى أدخل حجرتها.. اقتربت من السرير ومكثت أنظر لها، فقالت لى:

- "اعتقدت أننى مت. أليس كذلك؟".

أخذت أبكى فداعبت وجهى ووعدتنى أنها لن تموت أبداً.. وهو شىء كنت أؤمن به. كان هذا الوعد فى البداية كالبلسم، لكنه أصبح كالتهديد لاحقاً. وفى تلك الأثناء توفيت والدة أحد زملائى فى المدرسة، كانت المرة الأولى التى أرى فيها يتيماً، كنت أنظر إليه بتلطف وأفضلية لكونك تعرف أن أمك خالدة.

عندما كبرت أدركت أن الوعد كان تهديداً. أدركت أن أمى لم تمت - بالفعل - ولا حتى بعد موتها.. فقوى الطبيعة لا تموت، هى تتبدد، وأمى كانت قوة من قوى الطبيعة. فى أحيان كثيرة كنت أسأل نفسى ماذا كانت حالتها عندما أكدت لى خلودها.. كانت نشيطة أم مكتئبة.. من المنطقى أنها كانت مكتئبة، فكيف ستكون حالتها إذا ما كانت نشيطة.

خصصت جزءاً كبيراً من جلسات تحليلى النفسى فى محاولة رؤيتها امرأة هشة، فخلف صفاتها القوية تُخفى عادةً ضعفاً لا يُحتمل. لكنى أعتقد أننى لم أنجح فى ذلك.. فقد ماتت أمى - لو كانت ماتت - كأنها قوة من قوى الطبيعة.. لقد أجروا لها سبع أو ثمانى عمليات جراحية فلا يوجد جزء من جسدها لم يمر فيه مشرط (المشرط الكهربائى)، لكنها كانت

t.me/qurssan

تخرج من كل العمليات أفضل. من المؤكد أنها مرت بالعديد من الصعوبات.. لكنها مرت بهم كما تمر روبعة، كما يزيحهم إعصار أو عاصفة.. دخلت فى غيبوبة لأيام أو أسابيع، كانت غيبوبة شدتها غير عادية.. كانت كتلة من الجرانيت فى غيبوبة، فكنا أنا وإخوتى نتناوب لقضاء الليل معها. كنت مقتنعاً فى تلك الفترة أننى انفصلت عن أمى عاطفياً، فلم أعانى عندما كانت تحتضر.. كنت أعتقد أنها ماتت بالنسبة لى منذ سنوات، وموتها الحقيقى - الجسدى - ماهو إلا إجراء بيروقراطى. كان يوجد فى غرفتها سرير للمُرافق.. وقبل أن أرقد كنت أدخن سيجارة حشيش وأغيب فى أحلام محزنة وأنا أطل من النافذة. فى أحد الايام.. وقبل أن أدخل سريرى توقفت أمام مخدتها وأخذت ألاحظ وجهها ويديها فى محاولة للبحث عن اية إشارة لوجودها على قيد الحياة، أية محاولة للتواصل. أتذكر أننى ناديتها.. أمى، أمى.. مرتين.

بعد وفاة أمى عاد كل شىء - ظاهرياً - إلى طبيعته، لكن مرت شهور - ربما سنة - وبدأت أمرض.. كان تطور بطىء، ماكر وخفى. كان المرض يتحرك داخل جسدى مثل الشبح داخل منزل مهجور.. فهو يكون أياماً فى الرئة وأخرى فى المعدة، فى الحلق، فى الراس... وأحياناً فى العين.

ذهبت إلى طبيب نصحنى به أحد الأصدقاء عندما أصبح الوضع خطيراً، كان رجلاً لطيفاً،

t.me/qurssan

عظيماً، شرح لى أهمية أن ألبس حذاء بكاوتش من الهواء.. فقد قال: إننا نقضى حياتنا ونحن نسير على أسطح صلبة ونرتدى أحذية صلبة، وكل خطوة تمثل ضربة تتنقل من خلال السلسلة الفقرية إلى البصلة الشوكية(*)، إذن فليس من الغريب أن ننتهى إلى مجانين أو مصابين أو بالزهايمر بعد أن نتلقى آلافًا وربما ملايين من الضربات فى عضو أساسى كهذا. لا أتذكر الغرض الذى من أجله شرح لى هذا، لكننى كنت أتمنى الا ينتهى أبداً من حديثه، حيث انتابنى الذعر عندما بدأت أحكى أعراضى التى كانت صادمة كونها استطاعت إخفاء مرض مميت. كان اسم الدكتور لوثانو.. الدكتور رفاييل لوثانو. منذ ذلك الحين وأنا أقوم بإجراء كشف سنوى معه. تأكدت أنه لا يجب الذهاب للطبيب عندما تكون فى حالة سيئة لكن - وخاصةً - عندما تكون فى حالة جيدة.

سمعنى الدكتور لوثانو دون أن ينزعج (كنت أنتبه إلى ملامحه أكثر من انتباهى للقصة، فقد كانت ملامحه وكأنها ملامح مُضيفة عندما تتحرك الطائرة). أخذ ملاحظة على كل شىء وفحصنى بيده فحصاً لم يستنتج منه شيئاً، ثم بدأ يصف لى تحاليل، تحليل كهربائى، اختبارات...، قلت له إننى لا أستطيع أن أذهب من عيادة إلى أخرى.. فلم يعد بى قوة،

(*) البصلة: الجزء السفلى من جذع الدماغ، عند طرف الحبل الشوكى، وهو ينظم دقات القلب والتنفس وبعض الوظائف الأخرى. (المترجمة).

t.me/qurssan

كذلك يعرضون الأمر كما لو أنهم فعلوا كل الاختبارات فى العيادة. بعد أيام قليلة عاد واستدعانى وعندما هيئنى لسماع قراره - حيث بدوت شاحباً كالجدار- (والذى لم يكن غير عقوبة إعدام). قال لى ما يلى:

- "لن أقول لك إننا فحصنا كل ملليمتر من جسدك، لكننا فحصنا كل سنتيمتر منه، ولم نجد شيئاً يسبب هذه الأعراض".

فبحثت لى إيزابيل عن محللة نفسية.. كان اسمها مارتا لاثارو (عجبتنى فكرة إعادة إحياء لقب ما) وهى معروفة أيضاً باسم مارتا سبيلكا نسبةً إلى زوجها (الذى كان أرجنتينياً). تخيلت كثيراً أنه من الممكن فى إحدى اللحظات أن أجدها تقول لى: "خوانخو..إنهض وامشى".. لأن هذا ما أحتاج إليه.. أن أنهض وأمشى. إذ أن الأمر - وهو الشىء الذى اتجاهله- يجب أن يكون نابعاً من الداخل.

كانت امرأة كبيرة، دمثة الخلق، تدخن كثيراً مثلى وقتها. كان للأربع مقابلات الأولى تأثير مدهش.. حيث إن الأعراض خفت - دون أن تختفى- بطريقة جعلتنى أعود إلى حياتى الروتينية وإلى الكتابة. قمت بالأربع مقابلات وجهاً لوجه من أجل أن تقوم بتشخيصها وتقرر إذا كنا أحرزنا التفاهم النادر الذى يُبنى بين المحلل النفسى والمريض. فى اليوم الخامس استلقيت على الأريكة.. كانت هادئة، تحدثت قليلاً جداً.. لكنها عرفتنى بطريقةٍ ما أن أكثر

t.me/qurssan

الأساليب شيوعاً لرفض موت شخصٍ ما.. هى أن تتحول إليه.. بمعنى آخر.. أنا ـ مع كل هذه الأعراض المرضية التى تصيب بالدهشة- تحولت إلى أمى.. ملكة الأعراض المرضية. فأوعدك أننى لن أموت أبداً.

t.me/qurssan

الجزء الثانى
الشارع

كان فى شارعى صبى لديه مرض فى القلب يمنعه من الذهاب إلى المدرسة. وأثناء الشهور التى تكون فيها حالة الجو جيدة.. يظل فيتامينات -هكذا كنا نسميه.. ساخرين من مظهره الهزيل - جالساً على باب متجر والده (دكان للبقالة ملحق ببار ترك له ايضاً مهام إدارته) وبجانبه دراجة سباق.. لا يركبها مطلقاً.. لكنه أحياناً كان يقول إنه عندما يكبر سيصبح راكب دراجات.. وقد بدت أنها أمنية - إذا قدرنا أنه كان يختنق من أقل مجهود- مأساوية نوعاً ما. وبرغم من قسوة اللقب.. كان فيتامينات يتمتع بالاحترام - أو عدم مبالاة- من صبيان الشارع.. كنا نعلم أن أى غضب من الممكن أن يقتله. كنا نشكل مملكته.. بالإضافة إلى الدراجة، كرسى ذو مسند من الصفصاف بزوج من الوسادات كان يجلس عليه الجزء الأكبر من الصيف، والثلاثة أو الأربعة أمتار التى تمتد

t.me/qurssan

حول كرسيه. وبحسب كلام أمى.. فالأشخاص الذين يعانون من مرض فيتامينات كانوا يموتون أثناء نموهم. ووفقاً لنظرتها الحيوية.. فهو لا يستحق عناء الاستثمار فيه.. لذلك كان لا يذهب إلى المدرسة.

كان لدى فيتامينات قطعة جوخ يُعيد بها - بشكل وسواسى - طلاء الدراجة الكرومى. فى بعض الأوقات كان يضعها بالعكس.. فيسند مقعد الدراجة ومقودها على الأرض، ويحرك البدال.. جاعلاً العجلة الخلفية تدور فى الهواء.. ويُسقِط على تروسه - بعناية كبيرة - بعض نقاط الزيت من علبة صفيح صغيرة مزودة بأنبوب مدبب للغاية.. والتى تصل إلى أكثر نقطة صعب الوصول إليها فى الماكينة. كنت أقف أحياناً معه دون التحدث فى شىء.. حيث إننى لاحظت أن وجود متفرجين له يشعره بالأهمية. شيئاً فشيئاً تنبهت إلى أنها كانت عبارة عن دراجة سباق غير حقيقية.. مُجمعة من قطع. لكننى لم أقل شيئاً.. ولا حتى ذكرت له عدم ملاءمة وجود جرس ومرآة مُعاكِسة بها كدرجات التنزه.

كان لدى فيتامينات أيضاً كراسة يُدون فيها تحركات الجيران. فذات يوم بعد أن جعلنى أقسم بأن أحفظ سره.. ائتمننى على أن دكان البقالة كان يستخدمه كغطاء لإخفاء حقيقة هوية والده، الذى كان عميلاً للإنتربول.. واكتشاف حقيقته سوف يغضبه بشدة.

كان والد فيتامينات دائماً يرتدى معطفاً رمادياً نظيفاً جداً، تحته قميص أبيض. كان له شارب رقيق..

t.me/qurssan

لممثل أمريكى.. كان يقصه بطريقة عديمة التناسق، حتى يعطى انطباعًا (قال لى ابنه) أنه يبتسم من جانب وجهه. وبهذه الطريقة .. فيما يبدو.. كانت الناس تثق فيه. وكان من المؤكد أن الناس تثق فيه.. إذ أنه كان يُوجِد بذلك الوجه تعبيرًا خلابًا. عندما كنت أراه وهو يستخدم آلة صيد سمك البكلاه - والتى كانت الأكثر شبهاً لسلاح موجود فى الدكان- كان يقف شعر رأسى. كنت أتمنى على الفور أن أكون مثله.. مما يعنى أن اعيش حياة ظاهرة وأخرى حقيقية. ربما كنت اعيشهما.. إلا ان ذلك الاكتشاف لم يؤثر فىَّ كثيراً.

ولأن فيتامينات لم يكن يستطيع مساعدة والده فى الدكان.. فقد كان يساعده فى تدوين عادات الناس.. "السباك".. كان يكتب فى كراسته.. "مر فى الساعة الحادية عشرة والنصف بحوض الاغتسال فى عربة الموتوسيكل الجانبية". أو "خرجت باكا من بوابة منزلها الساعة الرابعة ونظرت على جانبى الشارع. ثم اتت إلى هنا.. لكنها توقفت على الناصية لبضع دقائق لتتحدث مع ريمديوس الذى أعطاها ورقة بها بعض العلامات. غابت عن نظرى عندما استدارت فى شارع روس دى أولانو". كل الملاحظات كانت واضحة.. مصطنعة.. بدون آراء.. لم يكتب أبداً "أعتقد" ولا "يبدو لى" ولا "ربما".. مثل هذه التعبيرات - قال له والده- ممنوعة فى تقارير الجواسيس.. فالجواسيس يكتبون أفعالاً فقط.. والتفسيرات يقوم بها الرؤساء. كنت أرغب فى تلك الكتابة البسيطة، ومازلت أرغب

t.me/qurssan

بها. كان الهدف من الملاحظات - التى يقرأها كل ليلة والد فيتامينات بعناية- هو اكتشاف إذا كان هناك أحد فى الحى يعيش حياة مزدوجة.. بمعنى.. أن يكون مظهر الشخص كمظهر أى منا لكن فى الحقيقة هو شيوعى.

كان والدا فيتامينات مُمتنين كثيراً لأنى كنت فى صحبة ابنهما. من حين لآخر كان يأتى أحدٌ منهما ليقدما لى البسكويت أو فى مناسبات خاصة جداً أوقية شيكولاتة. كان لفيتامينات أخت واحدة.. ماريا خوسيه.. التى كان لها وجود وهمى.. فقد كانت تعوم داخل الزى الرسمى للمدرسة.. بجونلة لها طية مزدوجة واسعة كانت تنتقل داخلها من مكان لآخر. كانت مُتحفظة إلى الحد الذى يجعلها تحرك أرجلها فتبدو كأنها لا تسير. كانت البلوزة البيضاء لزيها تبرق داخل الدكان الذى كان دائماً مظلماً للغاية.. كما لو أنها تبعث بنورها الخاص. لم تكن تقول شيئاً مطلقاً.. فلم أسمعها تنطق بكلمة واحدة خلال تلك الفترة. كانت خفيفة إلى الحد الذى جعلنى أعتقد أننى الوحيد الذى أراها.

ذات يوم.. أكد لى فيتامينات أنه من أحد نوافذ مبنى والده يظهر الشارع.. بدا لى الاكتشاف قولاً غريباً.. فلرؤية الشارع لا أحتاج إلى أن أطل عليه من أية نافذة.. فنحن نعيش فيه. عندما سألته إذا كان من الممكن أن يظهر لى.. قال بقدر من الغموض:

- " يجب انتظار اللحظة المناسبة". أشار.

t.me/qurssan

بعد بضعة أيام.. كنت أجلس عند باب منزلى.. اكشط بذر الخوخ إلى أسفل لصنع صفارة.. عندما قام بعمل إشارات لى للاقتراب.. فأنا من مملكته. كانت الساعة الثالثة أو الثالثة والنصف مساءً فى يوم من أيام يوليو أو أغسطس. كان الشارع صحراء - كعادته فى هذا الوقت - بسبب الحرارة. نهضت وذهبت لأقابله.

- "هيا لنرى الشارع". قالها بتعبير كمن يشترك فى جريمة.

كان على المحل القفل المعدنى نصف مغلق.. مما يعنى أنه مغلق للجمهور. كان والد فيتامينات فى البار والأم فى غرفة وراء المتجر تصير أحياناً محلاً للإقامة. دخل فيتامينات الدكان مختبئاً وأنا أتبعه.

- "انتظر لحظة".. قال.. "سوف أرى ماذا تفعل امى".

بعد قليل عاد يخبرنى أنها نامت قيلولتها على الكرسى ذى الآذان (أعتقد أنها كانت المرة الأولى التى سمعت فيها ذلك التعبير..كرسى بآذان.. وأثر فىّ كثيراً). فى كل الأحوال أياً ما كان هذا الكرسى.. فقد كان يعنى أننا لدينا وقت وافر للتصرف، وهكذا قادنى خلف طاولة الدكان وطلب منى أن أجذب حلقة عين سحرية موجودة على الأرض.. فعلت هذا فظهر سلم خشبى كان فى واقع الأمر أفقى يقود إلى بدروم، نزلت من بعده، غالقاً من جديد العين السحرية من خلفى. أحسست سريعاً أننى غصت فى عالم من

t.me/qurssan

الروائح.. شممت سجق بالفلفل الأحمر، جبنة، سجق مجفف، زيت ، بكلاة... حيث إنه كان مخزناً مظلماً وضيقاً فى أحد أطرافه كانت هناك كوة تقع فى مستوى الشارع.. والتى يتسلل منها جزء من الضوء. كانت الكوة مغطاة بشبكة معدنية كثيفة جداً.. سُد الجزء الأكبر من ثقوبها بسبب قذارة القرون. بغض النظر عن ذلك.. كانت الحجرة رطبة وقليلة البرودة بالنسبة للسطح.

أشار فيتامينات إلى صندوق من الخشب، صعدنا عليه لنطل على الشارع من خلال هذه الفتحة.

- "انظر". قال.

نظرت ورأيت منظوراً خطيًا لشارعى.. ففى المنطقة التى يوجد بها المحل يتسع الرصيف بشكل كان يجعل المبنى يشكل منعطفاً غريباً. بدت لى تفاهة.. على الأقل فى الدقائق الأولى، التى عندما مرت أصبحت لدى نظرة حقيقية. كان شارعى.. نعم.. لكنه وهو مرصود من هذا المكان وفى مستوى الأرض كان له صفات شديدة الواقعية بتفاصيلها، أو دون الواقعية، وربما له صفة الحلم. وقتها لم أكن أعرف بعد هذه الكلمات لوصف تلك الخاصية، لكنى شعرت أننى داخل حلم أدرك بوضوح غير معقول كل عنصر من العناصر التى يتكون منها.. كما لو كان عبارة عن نموذج. رأيت باب منزلى.. طبعاً.. بل أيضاً مصنع الثلج، دكان الخردوات، المخبز، ورشة العامل بجص الزخرفة، ورشة كاسى الإطارات بالمطاط، أكاديمية

t.me/qurssan

الكتابة على الآلة الكاتبة... . ربما لأنه فى ذلك الوقت كان ينبعث من الشارع لمعان كالذى يخلف الهجوم النووى. كان أكثر من كونه شارعى.. كان ترجمة روحية لشارعى.

لا أعرف الوقت الذى مكثناه هناك.. بوجوهنا الملتصقة بالشبكة المعدنية.. عندما ظهرت فى مجال رؤيتنا أرجل، عند تقدمها نحو عمق المنظور.. أصبحت تخص لوث.. فتاة أكبر منا بقليل.. جميلة جداً.. كانت تعجب كل الأولاد فى الشارع، مع أنها لا يعجبها أحد. كانت تلبس شبشبًا أحمر بدون رباط، وجونلة بيضاء مكشكشة، قميص قطنى أبيض أيضاً بدون أكمام. عندما تمشى.. كان ذيل الحصان شعرها - الذى كان طويلاً جداً- يتحرك على ظهرها من جنب إلى جنب كالبندول. أغلب الظن أنها كانت تمسك ملف تضمه إلى صدرها.. حيث إن ذراعيها لم يظهرا. استغرقت النظرة لحظات حتى وصلت إلى باب أكاديمية الكتابة على الآلة الكاتبة حيث اختفت. على أى حال.. كانت ثوانٍ خالدة بعدها نظرنا أنا وفيتامينات لبعضنا البعض للحظات دون قول أى شىء. هذه الليلة حلمت برؤية الشارع من البدروم.. لم أستطع إخراجه من رأسى.

دعانى فيتامينات لرؤيته فى مناسبات مختلفة.. احياناً فى الساعة الأخيرة من المساء، حيث يكون الدكان مغلقاً. عندما تخف الحرارة وتبدأ الحركة فى الحى. وهكذا انتبهت إلى النافورة التى توجد بجانب

t.me/qurssan

باب منزلى والتى لم يُعرها أحد انتباهاً قبل ذلك أبداً. بدت لى أداة من عالم آخر، هدية من أحد المخلوقات الفضائية.. تحفة. لاحظت فى يوم أيضاً من هناك موزع الثلج الذى كان ينقل فى عربة بعجلتين هذين العمودين شبه الشفافين اللذين عندما تلمسهما يذوبان، تاركين فى اليد مساحة من الماء. رأيته يُقسّم بدقة لا تُعقل أحد هذين البارين حاملاً على كتفه - بمساعدة خُطاف- أحد الأجزاء الناتجة. رأيت أمى أيضاً عند باب منزلنا.. والمحفظة بيدها منتظرة فتى الثلج (فنحن كنا نشترى ربع عمود فى اليوم)، رأيت إخوتى يلعبون فى منتصف الشارع، رأيت أبى يصل أو يخرج بدراجته البخارية الصغيرة التى كان دائماً يضعها فى الحديقة. رأيت الزمار ينصب مكانه ويجمعه. عدت ورأيت لوث.. هذه المرة تخرج من الأكاديمية وتتجه نحونا.. محتضنة لجسدها.. بذراعيها.. ملفًا ضخمًا.. كما لو أنها تحمى صدرها الذى لم يكن له وجود. رأيت البار وتظاهره أنه كافيتريا والذى نُصبت فيه بعد ذلك بوقت أول شواية للفراخ فى الحى وأُستعملت أول أطباق تم توفيقها مع بعضها. رأيت كل شىء.. وأُصبت بإدمان رؤيته من البدروم إلى الحد الذى جعل فيتامينات يحصل منى على عشرة سنتات فى البداية.. عشرون، عندما أدركت أننى لن أستطيع أن أعيش دون أن أرى الشارع.

ذلك الصيف قمت بعمل حسابات للوقت الذى أستطيع أن أقضيه فى الخارج.. فى التجول دون أن

t.me/qurssan

يفتقدنى والداى.. كان أكثر مما كنت أتخيله. فى الواقع كانا يقومان بعدنا مرتين فى اليوم.. واحدة فى وقت الغذاء والثانية وقت العشاء. وقت الغذاء والعشاء.. كان يقول أبى.. إنهما مقدسان.. وكلمة مقدس برغم أنها تخص الطقوس الدينية.. كانت فى مكانها.. حيث إن كل عشاء من عشائنا كان فيه شىء من العشاء الأخير.

عندما يكون أبى فى البيت أو الورشة.. كان يعلق سترته على شماعة مثبتة بمسامير فى حائط ممر صغير كان يوجد فى الطابق الأسفل، بالقرب من جوف السلم الذى كنت أختبئ فيه أحياناً (كان المكان الذى أحسب فيه الوقت الذى أستطيع أن أقضيه فى الخارج فى التجول دون أن يفتقدونى). وفى يوم اكتشفت أنه كان يحتفظ بالفكة فى واحد من جيوب هذه السترة. ومن المكتسبات التى أدخلها فيتامينات إلى حياتى أمر غير متوقع.. وهو ولعى بسرقته. . برغم الشعور الهائل بالذنب.. إذ أننى كنت أعرف أنها تبدأ هكذا.. سرقات صغيرة، وتنتهى بالهجوم على البنوك.

بدأت تحدث ظاهرة أخرى فى ذلك الصيف.. وهى نومى فى أية لحظة، فى أى مكان. كنت أعتقد انه أمر سرى حتى سمعت أمى تحكيه لأبى بقلق.. قال أبى إننى أحتاج إلى مقويات.. هذا كل شىء. لكننى لم اكن أحتاج إلى مقويات، بالعكس.. أياً ما كان السبب لهذا الضعف - بعيداً عن القضاء عليه - تناسبنى

t.me/qurssan

زيادته.. حيث إن الحلم تحول إلى تجربة رائعة. والآن - من منظور إدراكى المرتبك - أصبحت غير قادر على إثبات أين توجد الحدود بين الحلم واليقظة، ولا حتى ماذا يحدث لى فى ناحية وماذا يحدث فى الناحية الأخرى من هذه الحدود. فالحلم له قدرة على التأثير أكبر من اليقظة.. فهو يلوث كل شىء.. دائماً. فعلى سبيل المثال.. أختبئ فى جوف السلم منتظراً وصول أبى وتعليقه لسترته واختفائه.. من أجل أن أستطيع سرقة السنتات التى أدفعها لرؤية الشارع من مرصد فيتامينات. حينئذٍ أسمع ضوضاء باب، ثم ضوضاء باب آخر، ويظهر باب بصفته شبحًا، وبصفته رجلاً.. علق الرجل السترة واختفى فى اتجاه الساحة الخلفية للورشة. أخرج من بين الظلمات وقلبى فى حلقى. أقترب من السترة...

سأنتهى إلى السجن إذا استمررت فى فعل ذلك.. إذا لم أجد الدواء من ذلك المرض.. سأنتهى إلى السجن. وحتى بعد أن عرفت أننى سأنتهى إلى السجن أدخلت يدى فى جيب سترة الرجل. الممر مظلم ، لكننى تعلمت تمييز العملات باللمس، وإذا كان لديه الكثير.. ربما يشجعنى هذا على أن أسرق أربعة بدلاً عن اثنتين من أجل أن أؤمن لنفسى جلسة مزدوجة لرؤية الشارع. لو سألونى إذا كنت حلمت أو نفذت هذا المشهد.. لن أعرف ماذا أقول.. لقد نفذته.. بالطبع.. وعشرات المرات.. لكن كيف لم أقدّر صفته كمنام... .

t.me/qurssan

كنت أظل نائماً فى أى مكان.. بمعنى.. أننى انتهيت لتقبله كقدرة خاصة، كهبة. ففى الواقع.. برغم اننى كنت أتظاهر ببلعى للمقويات التى كانوا يعطونها لى مع الإفطار.. كنت أقذفها فى دورة المياه حتى لا يمنعوا عنى النوم. وبدأت فى النوم خفيةً.. كالفتيان الكبار الذين يدخنون خفيةً.. بهدف عدم إثارة قلق امى. بعد الأكل كنت أرقد فى جوف السلم والذى كان به أيضاً شىء كالكوة. مرات كثيرة يكون الانتقال من الحلم إلى اليقظة تدريجياً.. كانتقال الثلج من الحالة الصلبة إلى السائلة. فهل يحمل الماء ذكريات من حالته كثلج؟، هل أحتفظ أنا بذكريات الأحلام؟ ربما لا.. لأننى عند الاستيقاظ كنت أظل داخلهم.

كثير من الأطفال تحلم أن تكون غير مرئية.. كنت أنا غير مرئى بطريقةٍ ما.. فلم أُفاجا أبداً بينما كنت أسرق من جيب والدى، ولا عندما كنت أنام فى أحد مخابئى، كنت ابدو غير مرئى ايضاً بين إخوتى.. ربما لأننى كنت الأوسط.. فالكبار يعتبروننى صغيراً، والصغار.. كبيراً. الحدود.. الأرض التى لا تخص أحدًا.. الأرض التى لا يمتلكها أحد.. هى أرض الكتابة. كانت أمى فقط هى التى ترانى وتنظر إلىّ بملامح قلقة وهو ما كان يروقنى، كما كان يؤذيننى.. ربما كان يعجبنى لأنه كان يؤذيننى، لعلها كانت تعرف.

ذات يوم.. فى وقت الغذاء.. أشارت إلى شخص ما قالت إنه كان مهووساً بالسرقة، وعندما سألها أحد إخوتى عن معنى تلك الكلمة الغريبة.. أجابت متوجهة

t.me/qurssan

إلىّ.. حيث هرب الدم من وجهى للحظات.. حتى عدلت عن نظرتها.. ربما شفقةً بى، لدى ماما قدرات تكهنية.

فيما بعد.. تشجعت بسبب عدم معاقبتى على سرقاتى، وفى مسار مطلوق عنانه نحو الإجرام.. قمت بالهجوم على محفظة أبى.. والتى أخذت منها عملة ورقية بخمس بيسات (ثروة). بهذه العملة الورقية - متحولة إلى عملات- أستطيع أن أرى الشارع من بدروم فيتامينات بقية حياتى (بقية حياته.. حتى أكون دقيقاً). فى الحقيقة كانت أرجلى ترتعش عندما أخرجت العملة الورقية.. كنت أنهج كأننى مصاب بالربو. قمت بالسرقة فى ساعة القيلولة وظلت العملة النقدية فى جيبى حتى الساعة السابعة مساءً. وفى هذه الساعة أدركت أن ضميرى لن يتحمل عبء جريمة من هذا النوع، كما أدركت أن الشرطة ليست خرقاء حتى لا تعثر على السارق عندما يُبلغ أبى عن ضياعها.

فكرت أن أعيدها إلى المحفظة.. لكنها كانت عملية متأنية جداً، خطورتها هائلة.. حتى أننى لم أعرف كيف كنت جريئاً لسرقتها. قررت حينئذٍ أن أدمرها. خرجت للشارع وأنا أشك فى مقدرتى على الاختفاء.. إذ كان لدى انطباع أن العالم كله يرانى، كنت أسحق الورقة بأصابع يدى اليمنى وأنا أمشى.. وهى داخل جيب بنطالونى.. حيث كنت أخفيها. وعندما أصبحت قطعاً صغيرة بالقدر الكافى (صغيرة

t.me/qurssan

جداً فى الحقيقة) قذفتها على الأرض.. وغيرت الرصيف حتى لا أترك خيطاً للأدلة... برغم ذلك.. وفى أحد اللحظات.. خشيت أن يركز التحقيق على شوارع الحى.. فمشيت حتى شارع لوبث دى أويوس، وأخذت الترام حتى أدمر الأدلة بعيداً عن مكان الجريمة. كانت المرة الأولى التى أركب فيها الترام بمفردى.. وهى تُشكل مخالفة أخرى مهمة فى مسارى نحو الإجرام. دفعت - محاولاً أن أتظاهر بالطبيعية- بجزء من السنتات المدخرة عندما كنت سارق سنتات فقط، وجلست فى منتصف المركبة، التى كانت ممتلئة بالكبار الذين اختبأت بين أجسادهم حتى أستمر فى تدمير الورقة النقدية.

حينئذ حدث موقف غير عادى: رأيت من خلال نافذة الترام الصغيرة.. عندما سرنا لمسافة جيدة.. رأيتها واقفة على الرصيف، منتظرة الفرصة لعبور الشارع.. هى سيدة من الحى.. جارة كانت قد ماتت قبل أسبوعين أو ثلاثة. الآن من السهل استنتاج أنها كانت سيدة تشبهها.. ياله من تفسير آخر مناسب لأن يُقال.. لكن فى ذلك اليوم المحدد الذى تشبثت فيه بتدمير أدلة جريمتى كانت بدون مجال للشك سيدة متوفية. الأموات إذن يعيشون فى حى آخر.. يوجد حى مسكون بهم. راعتنى الفكرة.. برغم أنها ليست بالقدر الذى يُنسينى مرادى: تدمير الورقة ونثرها بعيداً عن المكان الذى تمت فيه الجريمة.

لا أعرف كم محطة مرت قبل أن آخذ قرار النزول من الترام.. لكنى عندما هبطت منه بدا لى أنه

t.me/qurssan

وصل إلى خارج البلاد. كانت الشوارع فى هذا المكان مرصوفة (فى حيىّ.. أغلبها من التراب) والمبانى عالية ومميزة وتحتها توجد محلات لا تستطيع ألا تنظر إلى واجهاتها. مشيت فى شارع واسع (ربما كان جزءاً من شارع فوينكارّال الذى يسير من مدينة كيبدو حتى بيلباو) دون أن أتخلى عن سحق العملة الورقية بيد واحدة (كيف وصلت إلى أن تؤلمنى أصابعى)، ومرة واحدة عندما أنجزت العملية.. بدأت بنثر الباقى.. فى الخفاء.. على الرصيف. وعندما لم يبق داخل جيبى أية قطعة صغيرة من الورقة. استرددت أنفاسى.. لكن لوقت قصير.. إذ أننى بعد سؤالى لسيد عن الساعة تنبهت إلى أن أمامى دقائق معدودة للعودة إلى المنزل قبل ساعة العشاء المقدسة. وعند المرور من جديد من الحى الذى رأيت فيه السيدة الميتة.. أغلقت عينىَّ وأبقيتهما هكذا لوقت كبير حتى لا أرى الأموات.

كانت صدفة - هل تكون شيئاً آخر إذا لم تكن صدفة-، ففى هذه الليلة فى العشاء.. قال أحد إخوتى إنه عندما يصبح مليونيراً سوف يشعل السيجار بأوراق نقدية من خمس بيزات.. كما كانت تفعل أحد شخصيات التيبيو(*). جاوبته أمى بجفاف أن تدمير النقود جريمة.

برغم ما قالته لأخى.. شعرت أن الجملة موجهة إلىّ.. من المؤكد أننى تلقيت الطلقة فى منتصف قلبى. ولذلك.. ارتكبت جريمتين: واحدة.. السرقة،

(*) مجلة مصورة للأطفال. (المترجمة).

t.me/qurssan

الأخرى.. التخلص المادى مما سرقته. ربما أنتهى إلى السجن قبل أن أدرك. مع أن ـ وهو ضد كل تكهناتى ـ ابى لم يشعر أبداً بضياع تلك الثروة.. وبالتالى لم تظهر الشرطة مطلقاً فى البيت.

فى هذه الأثناء.. اكتشفت أن أبى خبأ زجاجة الأثير فى دولاب فى الورشة والذى كان من المفترض أن لا يصل إليه أحد.. لكننى وصلت بمساعدة كرسى ودكة وضعتها فوق الكرسى فى توازن غير ثابت. كنت استنشقه من حين لآخر.. حيث إننى اكتشفت وقدّرت خواصه التخديرية. عندما يكون البيت هادئاً.. بعد الأكل.. أذهب إلى الحمام.. آخذ من صيدلية المنزل قطعة من القطن وأذهب بها إلى الورشة حيث أغمسها فى الأثير. ثم أرقد فى جوف السلم.. فى وضع الجنين.. نفس وضع نومى، الذى اعتدت عليه وكأنه قناع، داخلاً فى حالة سبات عميق. أشعر.. عندما أستيقظ وأنهض.. كما لو أننى كنت أحلم. ما كنت أفعله بدءاً من ذلك الوقت كان يتصف بالهلوسة، ولأنها صفة استثنائية ومدهشة.. لا يفاجئنا فيها شىء. لذلك فربما كانت الذكرى التى أحتفظ بها من تلك الفترة هى ذكرى حلم حىّ للغاية.. حلم من هذه الأحلام التى تجعلنا نشك فى اننا قريبان من واقع اليقظة.

ذات يوم.. بعد أن رأيت الشارع من بدروم البقالة.. سألنى فيتامينات إذا كنت أعتقد فى وجود أموات أكثر من الأحياء أو العكس، قلت له ما كنت افكر فيه، وهو أن الأموات كالمُحيط بينما نحن الأحياء

t.me/qurssan

بالكاد نُكون جزءًا بحجم البركة. عندما لاحظت أن إجابتى هدأته.. فكرت أنه ربما يعلم بأنه سيموت بينما يكبُر (وهو أمر ليس ببعيد أغلب الظن.. فبالنسبة لى بدأت تظهر عندى شعيرات فى العانة وفى الإبط).. حينئذٍ أضفت أننى أعرف أين يكون الأموات.. فلقد رأيت حيّهم من الترام.

- "من الترام؟". سأل ولم يكن مائلاً للتصديق.. حيث إنه من غير الطبيعى أن من فى مثل عمرى يركبون الترام.

وقتها أدركت أنه كان عبارة عن الشريك المناسب فى الجريمة.. لأن عنده عدة أسباب مثلى للصمت. شاركته فى مغامرتى. قلت له إننى سرقت نقودًا من سترة أبى لأرى الشارع وأنه فى يوم.. سرقت أكثر من المبلغ.. قررت أننى ادمر الأدلة لخوفى من أن أنكشف.. مما جعلنى أصعد الترام لأبتعد عن حيّنا.. إذ أن الشرطة لديها عدسات ضخمة يكتشفوا بها قطع الورق النقدية.. وأثناء ابتعادى مررت على حىّ يتنزه الأموات فى شوارعه. كان فيتامينات يسمعنى وهو بين الفتنة وعدم التصديق.. لكن قبل أن يقرر عدم التصديق دعمت تأكيدى بمعلومات.. فلم أؤكد فقط على رؤيتى للجارة التى توفيت منذ بضعة أسابيع - والتى كان يعرفها جيداً مثلى- بل بزوج من أقاربى. تكلمت بدرجة كبيرة من الإقناع جعلته يستسلم تماماً إلى القصة. سألنى فقط إذا كان يعيش أحياء أيضاً فى هذا الحى الذى يذهب إليه الأموات، قلت له إننى

t.me/qurssan

لا أعرف لأن هذه هى الحقيقة.. لم أكن أعرف. حينئذٍ طلب منى أن أذهب به إلى هناك.. وهو أمر كان مستحيلاً.. إذ أنه كان يعيش حول كرسيه الصفصافى وعجلة السباق، لكنه أكد لى أنه سوف يخترع شيئاً من أجل أن يغيب بضع ساعات:

- "ماذا سوف تخترع؟". سألته.

- "إننى سوف أقضى المساء فى بيتك.. على سبيل المثال.. فعملياً سأعبر الشارع فقط".

استمالتنى فكرة العودة إلى هذا الحىّ.. لكنى لم أكن أستطيع ذلك بمفردى. أعجبتنى إمكانية عمل هذا وأنا فى صحبة فيتامينات.. الذى تحول إلى رفيق غريب فى مغامرة هادئة، برغم أنها تبدو لى مليئة بالصعوبات العملية.

- "وإذا مت بسبب المجهود؟". سألته.

- "إذا مت".. قال ضاحكاً.."لن يتوجب علىّ تغيير الحىّ".

ضحكت أنا أيضاً.. كانت أضحوكة أن يدخل شخص بقدمه مملكة الأموات. ربما لم تكن الحدود بين مملكة وأخرى صعبة الاجتياز كالتى بين الحلم والواقع.

- "ستذهب بى أم لا؟". أصر.

- "يجب أن تُعيد لى كل النقود التى دفعتها لك لأرى الشارع". قلت.

t.me/qurssan

- "كلها؟".

- "نعم، كلها".

بعد تردد محسوب.. ذهب إلى ركن البدروم وأخرج من فجوة فى الحائط قطعة من ماسورة من الرصاص أطرافها مسطحة، فى داخلها.. كما قال.. توجد العملات التى أعطيتها له ليتركنى أطل من الكوة. أدهشتنى عادته لتخبئتهم. رجعت إلى بيتى بذلك الكنز الغريب،كان يزن إلى حدٍ ما.. وبرغم حجمه.. كان يبدو طيعاً فى نفس الوقت.. فقد كانت أبسط حركة لإمساكه فى اليد تعطى إحساساً غريباً بالقوة. خبأته فى جوف السلم، داخل ثقب اكتشفته خلف الإفريز.

بدأ فيتامينات فى إقناع والدته لتتركه يقضى إحدى الأمسيات فى منزلى.. والذى لم يكن أمراً صعباً لحدٍ ما.. فبسبب زياراتى المتكررة.. أصبحت السيدة المسكينة تحبنى وتثق فى. ومع ذلك.. أعطتنى عدداً لا يُحصى من التوصيات والقواعد التى يجب أن نتبعها من أجل أن ينجو فيتامينات من تلك الزيارة القصيرة. وفى اليوم المحدد.. ذهبت لآخذ له الأكل ليس إلا. أتذكر أن آخر نصيحة لأمه كانت أن نسير فى الظل.. ملاحظة غريبة.. غريبة جداً فى هذه الفترة، هى الآن تُقال فقط كدعابة.. لكن فى هذه الحالة كانت كأنها توصينا أن نمشى على الحجارة من أجل أن نعبر المحيط.. ففى هذا الوقت.. وفى هذه

t.me/qurssan

الفترة من العام.. لا يوجد فى ذلك الشارع ذى المنازل المنخفضة أى ظل.

سرنا.. حينها.. حتى شارع لوبث دى أويوس فى الشمس .. حيث توجد مبان بها أكثر من طابق.. فتمكنا من اتباع نصيحتها. كان فيتامينات يسير مندهشاً من أن جسده يقاوم المجهود. لحسن الحظ.. لم يتأخر الترام فى الوصول وكانت توجد مقاعد فارغة.. فتمكنا من الجلوس. وبالنسبة للتذاكر.. دفعهم هو، فلعله ندم على جعلى أتعلم ترجمة أى موقف به منفعة إلى استغلال مادى.

وهكذا ذهبنا.. الواحد بجانب الآخر.. روحان معذبتان ومتجليتان فى بنطلونين قصيرين، باحثين عن ذلك المُطهر الذى اكتشفته بالصدفة. عندما تعرفت على المكان الذى رأيت فيه الجارة الميتة.. نزلنا متأثرين من أننا وصلنا إلى مكان تسكنه الأموات. أريد أن أقول أنها كانت تجربة حقيقية كالتجارب القليلة التى خضتها طوال حياتى. تذكرت - بشأن تلك الرجفة - الارتباك الذى كان شائعاً جداً بين جنود فيتنام عندما لم يستطيعوا التواؤم مع الحياة المدنية: "كان ذلك حقيقةً".. هكذا قالوا لأطبائهم النفسيين.. متشككين فى أن فكرة الواقع المشترك مقبولة.

كان ذلك واقعاً.. تلك الشوارع التى بدأنا أنا وفيتامينات السير فيها ميتين من الخوف (ربما لذلك.. لأننا ايضاً ميتان، كنا نسير ونحن مهملان)،

t.me/qurssan

كانت واقعاً بالنسبة لنا كأحداث الحرب بالنسبة للناجين من فيتنام. ولو أننى كنت قد وجدت نفسى هناك كسائح - بالطبع فلا أزال حياً- فإن فيتامينات.. على العكس.. قد وصل للمكان الذى كان ينظر له بالطريقة التى ينظر بها إلى الأشياء.. كما لو كان قد ألفها قبل أن يتحول إلى جثة..

- "أين رأيت الميتة؟". سأل.

- "فى هذه الزاوية". قلت له.. وكان قد أعطى انطباعاً أنه ينتظر أحداً.

مكثنا ساعة.. ربما أكثر.. نلف فى تلك المتاهة من الشوارع.. ملاحظين وجوه الأموات التى كنا نمر بهم، والذين كانوا يطلون من النوافذ. توقفنا عند حافة منطقة خلاء. حيث كان هناك أربعة أو خمسة مخلوقات ميتة يلعبون كرة القدم. كانت تبدو الخفة المذهلة للجثث.. هكذا كانوا يمررون الكرة القماش الميتة بصمت جنائزى. كانوا نحيفين مثلنا.. جاءنى انطباع أن أجسامهم عند التلاقى فى مكان تعثّر تتجاوز بعضها. خرجنا نجرى كالروح التى يحملها الشيطان عندما توقف أحد الصبية وأشار لنا.. ربما كان يدعونا إلى أن ننضم للعب. ركضت أنا أسرع.. منطقياً.. وعندما شعرت أننى وحدى نظرت نحو الخلف.. فرأيت فيتامينات يستند على أحد الأركان.. يشهق كالسمكة خارج الماء.. فى احتضار تام.. انسحب الدم بالكامل من وجهه.. وظهرت حول عينيه بقعتان غامقتان.. تقريباً سوداوان.. مثل القناع. بدأت فى

t.me/qurssan

الصلاة حتى لا يموت هناك. ياربى.. لا تجعله يموت.. إذا لم يمت سوف أُرد إلى جيب سترة أبى كل العملات التى سرقتها، إذا لم يمت.. لن أعود وألمس قضيبى، إذا لم يمت سآكل السلق والعق الصحن، إذا لم يمت سأقتلع عشر شعرات واحدة بواحدة من رأسى، إذا لم يمت لن أعود وأنظر على إخوتى البنات من عين قفل باب الحمام أيضاً، إذا لم يمت... . من المؤكد أنه بقدر ما كنت أقول وعوداً.. استعاد فيتامينات أنفاسه وعاد اللون لوجهه. كانت توجد ـ فى النهاية ـ علاقة سحرية بين صلاتى واستعادته لقواه.

مرت الأزمة على وجهٍ عجيب.. وعند عودتنا لشارع الترام.. رأينا صبية ميتة فى عمر لوث.. شديدة الجمال.. برغم شحوبها المُحزن.. ربما كان جمالها سببه شحوبها.. كانت تشترى حلويات ميتة من كشك ميت.. تقف فيه متوفية كانت تغطى رأسها بغطاء أسود امتزجت أطرافه مع الظلال الداخلية للكشك. اقترح فيتامينات أن نشترى بعض الحلوى لنتذوق طعمها (متأكد أنها تشبه الهياكل. قال)، لكن لم يجرؤ أى منا.. خوفاً من أن تنتبه المراة أن نقودنا حية وأننا ـ بالتالى ـ دخلاء.

كانت المشكلة أننا تُهنا ولم نجد الشارع الذى نأخذ منه الترام. بحثنا مرتين.. أربعة.. ستة، دون أن نجده. لم يبد فيتامينات مذعوراً.. أما أنا.. غرقت فى الضيق.. وبدأت أواجه صعوبات فى التنفس. فكرة أن أكون مُلاحقاً فى ذلك العالم أخافتنى إلى حدٍ ما،

t.me/qurssan

فبدأت أئن، أتلعثم فى الكلام دون أن أشعر.. كالطفل المجنون. كانت هذه على الأقل الصورة التى فى ذهنى عن الطفل المجنون.

- "ماذا تقول؟". سأل فيتامينات.

- "لم يكن يجب علينا أن نأتى". نطقت فى النهاية.. من بين دموعى.. وأنا أعرف أننى أبداً لن أفعل ما فعلته فى حياتى.. أريد أن أمسح من سيرتى ذلك العمل الجبان. أصابنى خوفى بتأثيرات شلتنى مما جعل فيتامينات يأخذ زمام الموقف.. اقترب من سيد (ميت.. من الواضح) من أجل أن يسأله من اين نأخذ الترام، قال له السيد إننا نقف على نفس الجانب، على بُعد شارعين فقط، وأعطى له علامات ذات صلة.

وفى الترام.. خجلت من تصرفى.. لاحظت فى الخفاء وجه فيتامينات.. لمعرفة إذا كان يفكر فى السخرية منى أو يقذفها فى وجهى، لكنه كان غارقاً فى التفكير.. يراقب من النافذة شيئاً كان أكثر بُعداً من الشارع، ربما أكثر بُعداً من الحياة. أتذكره ممسكاً بأصابعه - التى كانت تشبه أصابع الطائر- بواحدة من عوارض المركبة الرأسية، وكل جسمه يرقص داخل قميص متآكل من الأطراف.. بخطوط بيضاء وزرقاء.. بشعره الملتصق على جبهته من العرق وفمه المفتوح قليلاً، متلهف.. كأنه ينتظر شيئاً لا يصل... . خطرت ببالى وقتها الفكرة المجنونة.. فربما يكون قد مات بعد الجرى، ربما الذى حسبته استرداداً لقواه كان فى

t.me/qurssan

الحقيقة دخول فى حالة مختلفة. ارتبت فيه، وربما من أجل صرف انتباهى عن الشك الذى انتابنى، وعند وصولى إلى الحى - بعد أن تركته فى بيته.. حيث لم أُعنى من مهمة الاعتناء به بعد- ذهبت إلى بيتى وقضيت بقية اليوم أقرأ مجلات الأطفال أو أتظاهر بقراءتها.. بينما تعودت على فكرة أنه ليس بطلاً.. ربما لن يكون أبداً.

فى اليوم التالى.. انتزعت عشر شعرات من رأسى.. واحدة بعد واحدة.. خرجت بجذور صغيرة مثل شكل البصلة التى راقبتها باهتمام بالعدسة.. متعجباً من منظر هذه البصلات ببعض جذورها وكأنها من المنتجات الزراعية. فتحت أيضاً الماسورة الرصاصية وأخرجت منها العديد من العملات التى أعدتها إلى جيب سترة أبى. كنت بلا شك على وشك ان أُذهل من مهمة إعادة ما سُرق.. والتى جعلتنى أدرك معنى السخرية دون معرفة الكلمة. أكلت أيضاً السلق ولعقت الصحن. فى نهاية الأمر.. كنت شخصاً مُنصلحاً تماماً. ربما لن ينتهى بى الأمر فى السجن.

ومع ذلك.. تجاوزت مغامرة حى الأموات الحد. خلال بضعة أيام خرجت بالكاد من المنزل وأفرطت فى تعاطى الأثير أكثر مما يجب. كنت من الممكن أن انام فى أى مكان، وفى أية ساعة. أحياناً كنت أنعس بينما كنت آكل ويغلقون لى فمى ويخرجون الملعقة منه. وفى الصباح.. عند استيقاظى.. كنت أفكر بامتنان كبير فى حلول الليل. كثيراً كنت أتخيل أننى هاجمنى

t.me/qurssan

واحد من هذه الأمراض التى تلزمك بالبقاء فى السرير لعام أو اثنين. اقتربت أمى منى ولمست جبهتى من أجل أن ترى إذا كنت محموماً. أحياناً كانت تقول: "هذا الطفل يحتضن شيئاً". كان للجملة جرس خطر. ولا يزال حتى اليوم.. هذا التعبير.. يحتضن شيئاً.. يرعبنى، لأننى رأيت من وجهة نظرى.. أننى نعم.. كنت محتضناً لمراهقة منحوسة.. ربما حياة مشئومة.

وأخيراً.. لم تهاجمنى أى من هذه الأمراض التى تُلزمك أن تبقى فى السرير لعام أو اثنين.. بل التهاب اللوزتين الذى كانت حُمته ترعب والدىّ وتمدنى للحظات بأقوال حقيقية. فكلمة الحمى هى الأجمل فى اللغة (حمى، حمى، حمى).. فلم يعطنى أى مخدر من المخدرات التى جربتها طوال حياتى بعد ذلك إحساساً بالهلوسة كالحمى.. يجب عليهم بيع حبوب مُنتجَة من الحمى.. فليست كثيرة هذه الثمانية أو التسعة أعشار التى تبعدنا عن الواقع. أتذكر جميع الأوقات، وكل وقت منهم كنت أرى فيه العالم من خلال الحمى، وكل وقت منهم كان العالم ينظر فيه إلىّ من خلال الحمى. التهاب اللوزتين سبّب لى الحمى.. طبعاً.. لكن أيضاً قراءة كتب معينة.. بعض الفصول من "الجريمة والعقاب".. على سبيل المثال.. سببت لى الحمى. مازلت أصاب بالحمى إذا قرأتها بتركيز شديد. مررت فى بعض الأوقات بتجربة غريبة.. تجربة اكتشاف الحمى فى الواقع.. ليس منذ وقت طويل، ذات صباح وبعد خمس دقائق من جلوسى

t.me/qurssan

للعمل.. بدت لى الحجرة وكأنها مصابة بالحمى.. تحسست تميماتى وكانت مصابة بالحمى، ربت على ظهر الكرسى وكان مصابًا بالحمى. بدأت فى كتابة مقالة وخرجت. طبعاً مقالة بالحمى.

الحمى.

فى مناسبة معينة.. أشار إلىّ أحدهم بأن شخصيات كُتبى تكون دائماً على وشك الكتابة أو المرض.. أحياناً يمرضون عندما يشرعون فى الكتابة، او يكتبون فى لحظة المرض. وأفضل الأشياء التى كتبتها هى التى تُلامسها الحمى.. أقصد التى تكون محمومة.. فتكون مصابة بحمى خفيفة.. يالها من كلمة ايضاً.. حمى خفيفة. بدأت هذا الكتاب مع هجوم صغير للحمى التى لم تتركنى بعد. وتُنشأ الحمى شبكة من الألم اللذيذ الذى يصلك بالواقع، العالم، بالأرض... الحمى تضر وتشفى.. كمشرط أبى الكهربائى.

والقصة هى أننى عندما كنت محتضناً لالتهاب اللوزتين الذى كان يُفضى بى إلى سرير والدىّ طول الصيف.. كما أشرت.. أكون سعيداً للغاية. فكنت امتلك بين تلك الملاءات هلوسة مُنتجة للتعجب والسكون. حدث ذات مساء.. عندما علت الحمى.. قالت أمى عدة مرات إن ذلك الالتهاب هو السبب فى نموى السريع. ولكى أدرك أنا مقدار تلك الإطالة البدنية .. كنت أمد أحياناً فمى لأعلى.. وكم كان واسعاً.. محاولاً الوصول بإخمص قدمى إلى الطرف

t.me/qurssan

الجنوبى من السرير الضخم. ذات يوم.. كنت أقوم بعمل هذا التمرين عندما اصطدم إخمص قدمى بإخمص قدم أخرى مطابقة لأقدامى. كما لو كان يوجد طفل آخر تحت الملاءات يظهر لى فى المرآة. وبدهشة أكثر منها فزعاً سحبت قدمى ومكثت أفكر للحظات.. ثم عدت مدتها وعادت إخمص قدمى تتقابل مع إخمص الطفل الآخر. ظللت نائماً أشعر باتصاله. لم يخفف الوقت المنصرم أبداً الإحساس بالواقع بالنسبة لتلك الواقعة التى نسبتها إلى بطل "الترتيب الهجائى". بدا لى أنه يوجد جانب آخر.. ربما لا أفعل شيئاً آخر فى حياتى غير أننى أحاول الوصول إلى هذا الجانب الآخر. أحياناً.. دون أن أتجاوزه.. كنت أستطيع أن أطل عليه. ومع هذا تتعامل هذه الصفحات بشكل جزئى.

"رأسى تؤلمنى" هو التعبير الأكثر قبحاً فى اللغة.. على الأقل من وجهة نظر طفل. فالرأس تتضمن الذقن، الأنف، القفا، الوجنتين، الأذنين... . إذا سمع أحدهم "راسى تؤلمنى" فيتضمن الألم كل هذه الأجزاء. لكن عندما كانت ترتفع الحمى للغاية.. كان يؤلمنى مخى:

- "مخى يؤلمنى". قلت لأمى.

- "لا تقل مخى".. كانت قلقة.. "قل رأسى".

ظللنا أنا وأمى نراقب بعضنا للحظات.. كل واحد وقف للآخر بالمرصاد. كان يحدث شىء مرعب لم أستطع تقصى حقيقته- حول المخ.

t.me/qurssan

وبالفعل.. نموت بسرعة، فعندما خرجت من السرير بعد أسبوع، كان ذراعى وساقى ينموان بشكل غير طبيعى.علاوة على ذلك كنت نحيفاً جداً. كنت أبدو كالحشرة الخشبية العملاقة(*) وبالنسبة للواقع.. لم يكن يكف عن التحول. تحققت على الفور أن هذه الحالة الغريبة كانت تسمى النقاهة. والنقاهة لها بعض مميزات الحمى.. تماماً.. منها أننى كنت أبدو جديداً.. بدون تدشين.. حتى جسدى. تذكرت الانطباع الذى تركته لدى الشمس عندما خرجت الحديقة (تلك التى كنا نسميها حديقة). لم أنس أيضاً الدهشة التى أصابتنى لمجرد لمس الأشياء.. فعندما كنت أفتح باباً كنت أربت على مطرقته بينما كنت أكرر فى قرارة نفسى اسمه.. مطرقة الباب.. إن فاللغة أيضاً كانت تُكتسب خلال المرض.. اتساق غريب. وجدتنى - بالمعنى الحرفى للكلمة - أفتتح كل شىء.

جلست على درجات السلم التى تؤدى إلى الساحة الخلفية والورشة - حيث كنت أستطيع رؤية أبى كيف كان يعمل - متوقفاً بضع دقائق فقط لالتقاط انفاسى.. إذ أننى أصبحت ضعيفاً للغاية.

بنفس الصورة التى كنت بها شاعراً بذراعى، بساقى، بلسانى، بفمى... كنت شاعراً برئتىّ.. اللتين أتخيلهما ككيسا ورق ناعمين ممتلئين بالهواء، يفرُغان

(*) نوع من الحشرات الطويلة والرفيعة جداً.. وسميت بهذا الاسم لأنها تأخذ شكل الشجرة التى تقف عليها. وهى تعد أطول حشرة فى العالم. (المترجمة).

t.me/qurssan

منه فى كل مرة كنت أستنشق أو أطرد الهواء. ومع الهواء.. أحياناً.. كنت أطرد الكلمات.. بكرة نحاس.. مثالاً. كنت أنطق داخلى - عند ارتفاع الصدر- تعبير بكرة نحاس وكنت أشعر به كيف يعبر الحلق، كيف يترطب عند انزلاقه من اللسان (حيث كان يترك طعم الكهرباء)، وكيف كان يبحث عن فجوة بين سياج الأسنان من أجل الانطلاق للخارج حيث كان يتطاير كدخان السجائر.. متنسراً حتى يفقد معناه.

اكتسبت الكلمات بعض صفات الأشياء الجامدة.. الأشياء المصمتة، كنت أستطيع أن آخذ كلمة وألوكها داخل فمى.. كالكراميل.. قبل أن أبلعها أو أبصقها. كنت أسأل نفسى أسئلة مجنونة عن اللغة.. لماذا - على سبيل المثال- يأكل جميع الناس العدس (وهى كلمة مؤنثة فى اللغة الإسبانية)، بينما من الطبيعى أن الرجال يأكلون العدس (قام الكاتب هنا بتذكير الكلمة)(*) أنا أتكلم عن عالم كانت فيه الحدود فظة بين ماهو مذكر وما هو مؤنث (ربما مازالت موجودة). ليس الأمر أنه لايوجد ثقافة مختلطة، بل إنه لم يكن يوجد شىء مختلط. وفى عالم هكذا.. صار متناقضاً.. حيث هن يأكلن الحمص (كلمة مذكرة فى اللغة الإسبانية) بدلاً من الحمص (جعلها هنا مؤنثة)، وهم يجلسون على الكراسى (كلمة مؤنثة فى

(*) يقصد هنا الكاتب وجوب التذكير والتانيث بحسب فاعل الحدث.. فإذا كان الفاعل مذكرًا وجب عليه تذكير الكلمة حتى لو كان اصلها مؤنثًا فى اللغة الإسبانية، والعكس إذا كان الفاعل مؤنثًا وجب عليها تانيث الكلمة المستعملة وهكذا. (المترجمة).

t.me/qurssan

الإسبانية)، بدلاً من الكراسى (ذكّرها هنا)، وهن لهن شعر (مذكرة)، بدلاً من شعر (أنثّها)، وهم يلبسون القمصان (مؤنثة) بدلاً من القمصان (ذكّرها)..كان كل شىء راساً على عقب، وهكذا قلت لأمى ما أفكر فيه مع بعض الكلمات.. عندما أتت لتعطينى صفار البيض المخفوق مع السكر فيصبح حلوى.. والذى كان كمقوٍ فى ذلك العصر، سمعتنى أمى بحيرة وطلبت منى ألا أحكى لأحد ذلك التفكير، وأنها سوف تقوم بترتيب كل شىء. وعد آخر كاذب.. كوعد خلودها. لم تنظم أمى الواقع.. وقد تأخرت وقتاً طويلاً فى الاعتذار لها. أصبح لدى.. فى قرارة نفسى.. هاجس تصحيح كل الجمل السيئة التى يستخدمها الباقون.. فلو أن أحد إخوتى قال.. مثلاً.. إنه تأذى فى ساقه، كنت أهمس له بوجوب تذكير ساقه، بينما لو كانت إحدى إخوتى البنات تظل كلمة الساق كما هى مؤنثة. تنظيم الواقع شىء مُنهك، لكن يجب أن يقوم به أحد.

ليس كل شىء - فى اللغة - يكون رائعاً هكذا.. فكنت أتعجب مثلاً من قدرة الكلمات على التطابق مع الأشياء التى تسميها.. فلم يكن ممكناً أن تكون الطاولة باسم آخر غير طاولة، أو حصان.. فعندما يقولون حصاناً ترى عُرف الحيوان، ذيله، عينيه القلقة... هل نحن قادرون على تسمية الحصان بالطاولة. والطاولة بالحصان؟ مستحيل. كيف التقت فى الزمن البعيد- الكلمات مع الأشياء؟ كان يوجد فى العالم

t.me/qurssan

كلمات كثيرة وأشياء كثيرة، ومن الممكن بسهولة أن ينتج عن هذا بعض الارتباك، بعض التوافق الخاطئ، لكن لم يحدث شيء كل شيء يُسمى بما يجب أن يُسمى به. وبالعكس كان يبدو لى أمرًا لا يمكن شرحه.. فعند نطق كلمة "قط" كان يظهر فى رأسى قط.. وعند قول "ق" لا يظهر نصف قط. لم أقل شيئاً لأمى حتى لا أقلقها.. إذ بدت لى أنها كانت تسمع أفكارى عن الكلمات بضيق صدر.

استغرقت فترة النقاهة من التهاب اللوزتين وقتاً طويلاً.. فى الواقع كل حياتى.. لكن لم يعد هناك شيء بالنسبة للكبار يدعو للقلق ليومين أو ثلاثة من تركى السرير ، وعدت لاختنائى السابق. أول ما قمت به هو ذهابى لزيارة فيتامينات الذى عندما تأمل تغير جسدى أكد أننى أصبحت أبدو كطفل العنكبوت. أما هو.. فعلى العكس.. قد متن بشكل غريب. عندما حكيت لأمى فى وقت لاحق.. قالت لى إنه ليس متيناً بل متورماً. بدا لى تعريفاً مدهشاً وسألت نفسى إذا كنت فى أحد الأيام سأسيطر على الكلمات بتلك الدقة. ربما عندما بدأت التعود على القاموس - مكتشفاً أن التعريف كان النتيجة لاستعمال المشرط على الواقع (الواقع اللفظى)- أدركت حينئذ أنه لا يوجد اختلاف بين الكلمة والشيء. فهل يوجد الآن؟.

بينما كنت أعانى أنا من النمو السريع، كان فيتامينات يتقلص. كانوا يعطونه أدوية تأخير أو تقليل النمو السريع والذى كان يشكل بالنسبة له حكماً

t.me/qurssan

الموت. كان يروق لى التحدث عن هذا الأمر معه.. لكننى لم أجرؤ. لم أعرف أبداً إلى أى مدى كان هو مدرك لحالته. لعلى اكتشفت أنه إذا تكيّس سوف يعيش أكثر.. إلى الأبد. فقد كان يُقال إن القُراد عندما يعيش فى محيط بيئى غير مناسب له.. يختبئ منشئاً حوله قشرة صلبة يظل داخلها حتى تأتى أوقات أفضل.

- "القرادة".. شرح لى فيتامينات ذات يوم: "يمكن أن تظل خمسين عاماً على غصن شجرة منتظرة أن يمر كلب من أجل أن تلقى بنفسها عليه".

بدا لى تمريناً للصبر لا يُصدقه عقل. وماذا يحدث إذا سقطت وحدث خطأ فى التقدير.. وبدل أن تجثم عل الكلب ألقت بنفسها على الأرض؟ لم يحبنى. لكن صورة تلك القرادة صاحبتنى طوال حياتى. وبعد سنوات.. عندما تعرفت على البوذية.. وصفتها بأنها قرادة بوذية. كنت أريد كتابة قصة بهذا العنوان.

ذلك اليوم.. دعانى فيتامينات لرؤية الشارع.. أغلب الظن أنها كانت الساعة الثالثة عصراً.. الساعة التى يكون فيها الحى كأنه ناتج عن انفجار نووى. نزلنا إذًا إلى البدروم، وتوجهنا إلى المرصد منفعلين. بعد قليل.. وبسبب التباين بين الظلام فى الداخل والضوء القاسى فى الخارج.. اكتشف فيتامينات بعض الشعيرات فوق شفتى العليا.

- "عندك شارب". قال.

t.me/qurssan

- "وأشياء أكثر". أضفت وفكرت فى شعر العانة وفى الزغب الذى بدأ يظهر فى الإبطين.

نظر لى فيتامينات بحنين.. بحنين المستقبل.. وقتها بدا بوضوح أنه - أينما كنت أنا- لن يستطيع ملازمتى. ثم أخرج من جيبه مفكًا وبدأ فى نزع المسامير الملولبة التى تمسك الشبكة التى تفصلنا عن الشارع بالحائط.

- "سوف نخرج إلى الشارع من هنا.. لنرى ماذا يحدث". قال.

عرفت بحدسى أن الخروج إلى الشارع من هناك سوف يكون له عواقب.. لكنى لم أكن أتخيل من أى نوع. تأكدت.. ذات مرة فى الخارج.. أنه لا يزال شديد الواقعية كما كنا ننظر له من البدروم. كل شىء كان جديداً.. من أجل استعماله للمرة الأولى.. مثل جسدى الذى مر بفترة النقاهة. حتى النواصى الأكثر تهدماً كانت لها حالة من التألق التى تُجبرك على الإعجاب بها. كان من الواضح أن فيتامينات طفل منهك.. لكن كان من الملاحظ أيضاً أن فى نهايته إتقان رائع. أذكر أنه مر بجانبنا كلب شعرت كما لو أنه أول كلب فى الخليقة - لم يلفت انتباهى أبداً حيوان من هذا النوع - وعندما توقف ليتبول.. رافعاً رجله.. راقبنا بنفس الدهشة التى نراقبه بها. أريد أن أقول إنها كانت دهشة متبادلة.. دهشة كنا نتقاسمها مع الحياة الطبيعية للشارع.. كما لوكنا نحن والكلب امتداداً لنفس الحالة. نظرنا أنا وفيتامينات لبعضنا وانطلقنا

t.me/qurssan

فى الضحك، بل إن ضحكته وضحكتى كانت هى نفسها أيضاً.. ضحكة موجودة فى العالم من أجل أن نتقاسمها. كان باب الأكاديمية التى تذهب لها لوث مفتوحاً.. بشكل جعلنا نطل ونراها مائلة على ماكينة الكتابة.. وعيناها مغميتان بعصابة، كانت تقوم بتمرينات للكتابة العمياء (هكذا يُطلق عليها. يا إلهى.. ما كانت تتعلمه تلك الفتاة هناك.. كتابة عمياء)، وعندما شعرت بوجودنا نزعت العصابة ونظرت لنا.. نظرنا لبعضنا.. وتبادلنا شيئاً نابعًا منا نحن الثلاثة.. ومن الكلب الذى مررنا به. كانت بضع لحظات من التركيز لن تتكرر. غمزت لوث لنا بعينها وابتسمت، وعند ترتيبها للجونلة تحت فخديها حتى تتفادى كرمشتها.. ظهر لنا دون قصد - خلال جزء من الثانية- حرف لباسها التحتى. ظل ذلك الجزء من الثانية مستمراً معى.. مازلت أعيش داخله. لو كنت أعرف الرسم.. كنت رسمت بقلق شديد.. خلال ما تبقى من حياتى تلك النظرة. عند إدراك حيرتنا.. أخرجت لسانها لنا بملامح سخرية ودودة، ثم وضعت العصابة مرة أخرى واستمرت فى التمرن على الطريقة العمياء بينما شغفنا نحن بها. كانت ترتدى تى شيرت أبيض وجونلة بيضاء أيضاً.. من الجونلات ذات الكشكشة.. لكن كانت العصابة التى تغطى بها عينيها.. سوداء، حتى تتطابق مع الخبطات السوداء لحروف الطباعة التى كانت تخبط الورقة على الإيقاع الذى تنساب به أصابعها على مفاتيح ماكينة الكتابة. ذات يوم.. سألنى صحفى إذا كانت تعجبنى الموسيقى

t.me/qurssan

السوداء.. قلت له نعم، مفكراً فيما سمعته فى ذلك اليوم البعيد من باب أكاديمية شارعى.

أنهكتنى التجربة.. لكنها كانت عبارة عن إجهاد هلوسى.. حافل بتفاصيل مدهشة إلى حد كبير سواء كنت أعتبرها تفاصيل فُرادية أو جملةً. اكتسب الواقع - فضلاً عن ذلك التألق الجديد- تراكيب لفظية ظلت أجزاؤها فى الأفق من أجل أن أنطلق منها لكل شىء. لاحظ فيتامينات شحوبى وسألنى إذا كان سيغشى علىّ.. قلت له لا.. لكنى أشرت له لكى نعود إلى البدروم.. تسللت من فتحته من جديد بخفة سحلية. مرة واحدة وأنا فى الداخل انحنى فيتامينات الذى كان لايزال فى الخارج وقال لى إنه سوف يدخل من باب الدكان.. كما لو كان لايريد التخلى عن المنظر الذى يمدنا به خروجنا للعالم من تلك العين السحرية السرية. سألنى إذا كنت أريد أن أصاحبه. لكن كانت تنقصنى الشجاعة.. فلم أكن أعتقد وقتها أنه يستطيع تحمل منظر حاد بهذا المقدار لوقت طويل، فقد كان يحتاج إلى استرجاع الملمس القاتم للأشياء.. خواصها اليومية.. سوقيّتها المعتادة.

عندما تقابلنا فى البدروم.. بعد أن وضعنا من جديد الشبكة على الفتحة، سألنى فيتامينات - الذى كانت له نظرة مشابهة لنظرة القديسين فى الصور المطبوعة- إذا كنت أريد أن أرى "عين الله".. سألته كم ستكلفنى فلم يجب بشىء.. لقد كانت هدية. وقتها قادنى إلى أعلى.. أخذ شيئاً من أحد أدراج طاولة

t.me/qurssan

المكان وخرجنا إلى الشارع.. حيث قال لى أن أنظر من الثقب الفارغ فأدركنى أكثر الانطباعات قوة فى حياتى.. بالفعل.. من عمق الأنبوبة.. راقبتنى عين.. مهلت للحظات لإدراك أنها كانت عينى أنا.. حيث كان فى الطرف الآخر مرآة مثبتة بشريط لاصق. لكن منى بعد أن أدركت ذلك استمرت تُحدث داخلى رغبة

إذا لم يكن خوفاً- للنظر خلال الأنبوبة (بعد سنوات سوف تُذكر هذه القصة على ما أعتقد فى كتاب لباتاييى..(*) أن العين التى يرانا بها الله هى نفسها التى نراه بها). كان فيتامينات يلاحظ ردود أفعالى بابتسامة بها فخر.. أحاطت ملامحه هالة من القداسة. أدركت أننا - حتى لو كنا بجانب بعضنا البعض- كنا نتلاقى فى أبعاد مختلفة.. فهو - ربما لأنه لم يرجع إلى البدروم من نفس المكان الذى خرج منه- لم يتخل عن تلك النظرة التخيّلية للشارع التى تخليت أنا عنها بسبب الإنهاك.

أهدانى الأنبوبة.. من أجل أن أرى عين الله عدد المرات التى أرغب بها فى المستقبل.. إذ أن لديه العديد من هذه العيون، كان قد اكتسب مهارة كبيرة فى صناعتها من أجل إعطاء المرآة الشكل الدائرى، كان يكشطها بصبر فى اتجاه الحائط، وكانت دائماً تركيبة العين فى القعر هى نفسها. كانت تتطلب منه وقتاً.. كما قال لى.. ثلاثة أو أربعة أيام. ومع الوقت تحولت أنا نفسى إلى صانع لهذه القطع.. فكل مرة

(*) كاتب ومفكر فرنسى (المترجمة).

t.me/qurssan

تنكسر فيها مرآة فى البيت كنت أحصل على القطع الناتجة التى كنت أحافظ عليها ككنز.

فى تلك الليلة.. توفى فيتامينات. ربما عندما كان نائماً حاول جسده النمو قليلاً فانفجر قلبه.. لكن النتيجة أنه توفى.. أصبح فى الجانب الآخر. لم تسمح لى أمى بالذهاب إلى منزله (وهو ما شكرتها عليه بمودة).. لذلك قضيت اليوم بباب منزلى.. أراقب حركة الكبار الحزينة فى النواحى المحيطة بدكان البقالة.. والذى ظل "مغلق للوفاة".. كما كُتب فى الملصق الموضوع على الشباك المعدنى. ومن بين أولئك الأشخاص.. كانت أخت فيتامينات تطوف أحياناً كالشبح. لدى اكتشاف غريب.. كانت تعجبنى تلك الفتاة .. التى لم تكن جميلة.. أكثر من لوث.. التى كانت النموذج الرسمى للجمال. لماذا تعجبنى القبيحة؟.

فى اليوم التالى أتت عربة الموتى فى شكلٍ فاخر وداخلها تابوت أبيض. من المفترض أن يذهب صديقى داخله. كان هذا فى الصباح.. فى وقت الغذاء.. انتقدت أمى لون التابوت؛ حيث إن فيتامينات من وجهة نظرها كان كبيراً بالقدر الكافى حتى يتمتع بتلك الميزة. وعندما سألت عن الفرق بين التأثير الذى يُحدثه اللون الأبيض والأسود فى الجنازة، أجابت أن اللون الأبيض يرمز للبراءة، للطهارة. ومنطقياً تكون عدم الطهارة هى فقط التى تستطيع الحفاظ على العلاقة مع ما كان يسميه الكبار "باللمس الآثم".

t.me/qurssan

فيتامينات - بالفعل - كان يلمس نفسه باستمرار.. استطيع أن أشهد بذلك. وحتماً.. أقمت علاقة غامضة بين الموت والجنس. تعلمت بسرعة.

هذا المساء خرجت إلى الشارع وصعدت حتى شارع لوبث دى أويوس.. حيث يوجد كشك كان يبيع سجائر فُراطة. اشتريت واحدة (إل إم).. أشعلتها خفية فى الخلاء وأتيت عليها بتعبير رجل فظ.. رجل منُرب من الحياة. برغم أننى كنت لا أبتلع الدخان.. إلا أن راسى دار قليلاً.. لكنها كانت دوخة لطيفة ساعدتنى على الهرب. ربما - ظننت- فى نفس هذه الليلة أن فيتامينات سوف يظهر فى حى الموتى.. كما كنا نسميه. تخيلته فى نفس الشوارع التى كنا نتجول فيها معاً. هل سيخرج ليقابل أحداً؟ هل سيعيش (كان يقول) مع أقارب أموات سبقوه؟ هل سيكون لدىّ القدر الكافى من الجرأة حتى أعود لهذا الحى وأبحث عن صديقى؟.

بعد سنوات كثيرة.. عندما كبرت.. حدث شىء كان يبدو صدى لتجربة الشارع الحىّ من دكان البقالة مع فيتامينات. والأمر هو أن أحد الناشرين أقام حفلة فى بيته للاحتفال بإصدار كتاب لى.. ولسوء الحظ.. كنت المدعو الوحيد الذى لا يستطيع أن يغيب.. برغم أننى لم أكن أشعر أننى بخير.. فقد كنت أعانى من نوع من الإنفلونزالخفيفة (ربما كانت نقاهة مُضاعفة) الذى كان يمنعنى من التنفس فى الأماكن المغلقة، أو بها عدداً من الأفراد زيادة عن الحد. لم أكن أذهب

t.me/qurssan

إلى السينما ولا المسرح.. ولو ذهبت أجد لنفسى مكاناً بجانب الباب حتى أخرج من حين لآخر لأتنفس بعض الهواء. أما فى المطاعم.. كنت أجلس بطريقة ما - عندما أصاب بالمرض- تمكننى من الخروج راكضاً دون لفت الانتباه. اكتسبت عادة.. فى أسفارى.. أن أضع فى شنطة سفرى عدة أمتار من الخيوط النايلون المتينة.. حتى إذا احترق الفندق ولزم علىّ أن أهرب عن طريق النافذة. كان المرض (عقلى.. بأى طريقة يُنظر بها إلى الأمر) قد حولنى إلى خبير فى الهرب.. إلى مسيطر على مخارج الطوارئ.. مجنون فحسب.

تناولت مهدئًا قبل الخروج من المنزل وتنزهت قليلاً حتى منزل الناشر. لكى أجمع فى دمى أكبر قدر من الأكسجين. وصلت من الأوائل.. بحسب عادتى.. فجلست على واحدة من أرائك الصالون.. متظاهراً بالاستمتاع بمشاهدة مباراة كرة القدم التى كانت على التليفزيون. كان بيت الناشر فى آخر دور فى العمارة، وكان له شرفة كبيرة. ولأن الجو كان ممتازاً (كان ربيعاً)، فقد كانت الأبواب المؤدية إلى الشرفة لاتزال مفتوحة والتى كانت تدخل منها كميات من الأكسجين.

بينما كنت أحىّ الحاضرين وأتظاهر بالإنصات إلى كلماتهم، لم أكن فى واقع الأمر أفعل شيئاً آخر غير وضع خطط للهروب، واضعاً فى الاعتبار طوارئ مختلفة مُتخيّلة. كان يرن جرس الباب كل نصف دقيقة، فيزيد الحاضرون شخصين أو ثلاثة ليشغلوا المساحات الفارغة فى الصالة. كان يجب فى لحظة

t.me/qurssan

إغلاق التليفزيون (الذى كان على طاولة ذات عجلات) ووضعه بجانب الحائط لإفساح مكان.. وهو نفس ما حدث للأرائك والكراسى. لكن الناس لم تكف عن الحضور.. وبأعداد غير متناسبة مع حجم الشقة. كان أغلب الحاضرين معروفين بنشاطهم.. كان بالطبع يوجد كُتاب لكن أيضاً صحفيين وممثلين وقضاة وحتى مدربين كرة قدم. وفى الحال لفت انتباهى أن العديد من الكُتاب مقتنعون أن الحفلة قد أُقيمت على شرفهم.. حيث إن الناشر قال نفس الشىء للجميع. وبعيداً عن أنه أغضبنى.. حررنى من ضغط البطولة. من الممكن أن يكون ضايقنى مع أننى أردت عدم لفت الانتباه.. فشهرة أغلب المدعوين جعلت منى نكرة تماماً.

ملأنى هذا بتفاؤل غير مبرر شجعنى على عمل نزهة إلى المطبخ.. حيث كان يوجد - بحسب ما حكى الذين أتوا منه- علاوة على كل أصناف المشروبات.. جمبون(*) ممتاز يجعلك قادراً على قطعه بنفسك بسكين تقسم الشعرة (بالطول) إلى قسمين. كانوا يقولون هذا. أتذكر أننى بدأت رحلة الذهاب بروح المغامرة.. وبشعور ثقيل بسعادة سخيفة. أوافق على أن الموسيقى التى كانت فى هذا الجزء الأول من الحفل ولّدت داخلى - لأسباب تتعلق بالنظام الشخصى- قدراً من الانتعاش الوقتى الذى جعلنى أفكر فى الجمبون كما أفكر فى صوف من الذهب. وفى

(*) فخذ الخنزير المملح (المترجمة).

t.me/qurssan

منتصف الممر - حيث تدور الأجسام التى تذهب وتعود- شعرت بنفسى كالمستكشف الذى يجب عليه إنجاز مهمة خطيرة فى بيئة عدائية.. لكن يمكن التحكم فيها. خدعت نفسى: البيئة لم يكن من الممكن السيطرة عليها.

بعد مجهود ضخم وصلت إلى المطبخ.. كان عبارة عن جزء على شكل رحم أو كمثرى فى آخر الممر. مرة واحدة.. دفعتنى غريزة البقاء إلى أن أكتشف فيه نافذة تؤدى إلى ساحة داخلية، وكانت لاتزال مفتوحة.. اطللت منها وتحققت - دون فزع.. لكن بقلق- أنه بالكاد يوجد فى حوائط الساحة عناصر أتشبث بها فى حالة بدأت فى الهرب من هناك، لكن كان الارتفاع - الطابق السادس- يجعلنى - من ناحية أخرى- أعدل عن الفكرة. تنحنحت قليلاً.. متظاهراً بعدم الطبيعية، وقمت بعمل فجوة بين الناس التى كانت تقف فى طابور الجمبون. فى الواقع.. كنت أحاول كسب الوقت حتى أرى إذا كنت قادراً على تقرير شىء.. حيث إن الانتعاش الوقتى ومجهود المغامرة جعلانى أتركه. ومن ناحية أخرى.. حساب إمكانية العودة للصالون لم يكن مشجعاً.. حيث يستحيل اجتياز ذلك الجمع البشرى (وضد التيار.. إذ أن الداخلين للمطبخ كانوا أكثر من الخارجين منه) دون أن أهلك. قارنت ذلك العمل البطولى بموقف كنت قد شاهدته مؤخراً فى فيلم من أفلام المغامرات.. حيث كان يجب على البطل اجتياز ماسورة طولها خمسون متراً غاطساً فيها من أجل الهروب من الخطر، وأدركت

t.me/qurssan

اننى لن أستطيع حبس أنفاسى خلال هذا الوقت. وهكذا.. مكثت فى ذلك الرحم متظاهراً أننى أرغب فى تجربة ذلك الجمبون المُثنى عليه إلى هذا الحد. ومن حين لآخر كنت أطل من النافذة التى تؤدى إلى الساحة لأخذ قليل من الهواء الخارجى.. إذا أن هواء المطبخ أصبح مختنقاً بسبب الجميع.

وسط هذا.. أخرج كاتب شاب من أمريكا اللاتينية - والذى كان يشكل جزءاً من المجموعة التى انضممت إليها بعد حصولى على زوج من الشرائح الرقيقة من الجمبون- لفة من التبغ وقدم سيجارة. فى ذلك الوقت.. كنت أدخن بشكل إجبارى أو أترك التدخين بشكل أيضاً إجبارى.. أعنى أننى خلال أوقات امتناعى كنت شاعراً بكل سيجارة لم أدخنها. كنت أقول لنفسى.. لم أدخن سيجارة الآن بعد القهوة، لم أدخن سيجارة الآن ونحن فى منتصف النهار، لم أدخن سيجارة الآن والساعة الثانية عشرة، الآن.... كنت أضر نفسى عندما أدخن أو لا أدخن، لكن كانت صحتى ضعيفة كثيراً فكنت أسعى لعيش حياة صحية. كنت فى نهاية الأمر قد اجتزت فترة من عدم التدخين الإجبارى، لكن السيجارة التى قدموها لى كانت إل إم (سيجارة إل إم.. يا إلهى). اعتقدت أن مع علامة التبغ تلك أصبحت إنساناً مفقوداً. ربما مفقوداً، لكن المؤكد أنه هنا من جديد.. يتردد كصدى لذلك الصوت البعيد. أخذت واحدة مقرراً الا أبتلع الدخان.. ولانشغال يدىّ أشعلتها بلهب قداحة تخص آخر.

t.me/qurssan

انفجر الدخان - كان بشكل أكثر داخل فمى أو داخل رئتىّ (لأننى فى النهاية ابتلعته) أو داخل مخى- مع كل الضيق الذى استحضره ذلك الطعم البعيد. شعرت بنحنحة خفيفة فانسحبت إلى النافذة لاستنشاق الهواء.كان قد حل الليل وأصبحت الساحة الداخلية كالبئر الذى تُخفف ظلمته نتوءات الضوء الأصفر الناتج من نوافذ المنازل. تركت الـ إل إم تسقط وعددت الثوانى التى استغرقتها حتى أفقد رؤية جذوتها. حينئذٍ أدركت أن الموقف ميئوس منه.. وبرغم أننى تصرفت كما أنه لم يلفت انتباهى شىء.. فمن المؤكد أن فزعى بلغ مستواه بينما كنت أتحدث مع مجموعة الكاتب الشاب الذى كان من أمريكا اللاتينية ولم يبق فعلياً فى جسدى فجوة واحدة لشغلها. درت برأسى حتى أرى ما هو الموقف فى مدخل الرحم.. لكنه لم يكن أفضل. حسبت وقتها إمكانية بقائى فى المطبخ إذا مكثت هناك حتى انتهاء الحفل فسيصبح المخرج خاليًا من العوائق. لكن كانت الفرصة قليلة جداً.. فى الواقع.. ولا واحدة: فهواء الغرفة كان قد أصبح غير صالح للتنفس وهواء الساحة الخلفية صار راكداً، فاسداً. لأحد الأسباب.. كنت أحتاج مقداراً من الأكسجين أكبر لمن هم فى مثل عمرى. لم أكن واحداً منهم (يا إلهى.. لم أكن واحداً منهم).

أدركت أن الحل الوحيد يتلخص فى أن أستنشق الهواء. حبست أنفاسى، وفتحت لنفسى ممراً بين ذلك المحيط من الأجساد حتى وصلت إلى منطقة صالحة للوقوف فيها. حسبت طول الممر (طول الماسورة)

t.me/qurssan

وتصورت أن الكل سار حتى شرفة الصالون.. التى كانت هدفى. بعد ذلك.. دفعنى الضيق إلى قرار واعٍ.. بحثت عن مخرج الرحم وبدأت أن أُوَلِد نفسى بنفسى. كانت الأفواه التى مررت بها تضحك عند رؤيتى أتقدم بهذه المثابرة وأرد عليهم.. على ما أظن.. بتكشيرة ماساوية دون أن أعاود التنفس. أتذكر مدير أحد الجرائد التى كنت قد بدأت العمل فيها منذ فترة قصيرة.. والذى صادفته فى منتصف الممر.. يضع يده اليمنى فوق كتفى محاولاً إيقافى ليقول لى شيئاً.. وقد ناولته ضربة. قبل أن أصل إلى الصالون نفذ الهواء داخلى وأدركت أننى لن أصل إلى هدفى.. أننى سأموت هناك فى نفس المكان. ربما - فكرت - عند رؤيتى ميتاً سوف يتفهم مدير الصحيفة تصرفى الفظ الذى قمت به منذ لحظات ولن يرفدنى من العمل. إذ أننى كنت حتى ذلك الحين أرسل مساهماتى الصحفية من المنزل.. والآن سوف أرسلها من حى الأموات. منذ ألف سنة لم أتذكر ذلك الحى ولا فيتامينات. بعد كل هذا.. أستطعت أن أهرب من هناك.. أو هكذا اعتقدت. كل تخميناتى هذه صرفت انتباهى عن الموت وتقريباً دون أن أنتبه أصبحت فى شرفة المسكن.. منهكاً لكن حيًا.

كانت الشرفة أيضاً مليئة بالناس.. لكن كان يوجد هناك هواء للجميع. وكان فضلاً عن ذلك يهب قليل من النسيم الذى يمحو للحظات الناتج الفاسد من تنفس الغير. استطعت الوصول دون مشاكل إلى

t.me/qurssan

منطقة الدرابزين.. حيث اكتشفت مصطبة صغيرة جلست عليها حتى أستعيد أنفاسى.. حينها وضع أحدهم يده على كتفى وسألنى إذا كنت بخير. كان إم. .. كاتب مصاب بوسواس المرض والذى التقيت به فى سفرية مشتركة لباريس تبادلت معه - خلال أسبوع مجنون- معلومات حول نوبات الذعر وفقدان الوعى. كنت فى تلك الفترة أعانى من الاثنين (كنت على وشك أن أعانى من مرض ثالث):

- "هل أنت بخير؟" سأل بأسلوب تضامنى.

- "نعم، نعم.. شعرت قليلاً برُهاب الأماكن المغلقة هنا بالداخل".

- "وأسرعت للهرب".

- "أسرعت للهرب.. طبعاً".

- "إذا كنت تريد مهدئًا...".

- "لا...، حسناً، نعم.. اعطنى إياه على سبيل الاحتياط".

- "هو آخر إنتاج. يمكنك أن تخلطه مع الكحول".

أعطانى إم. حبة صغيرة.. والتى تأملتها للحظات فى كف يدى:

- "كيف يكون هذا ممكناً". قلت من أجل قول شىء.. "أن يستطيع شىء بهذا الصغر من التأثير إلى هذا الحد؟".

جمعت قليلاً من اللعاب ووضعتها فى فمى:

t.me/qurssan

- "شكراً". قلت.

- "عفواً.. سوف أتمشى".

بقيت وحدى. وبينما كان الليل، كان وجودى .. فى الواقع.. مهملاً بالنسبة لبقية الأشباح التى كانت تقوم بعمل علاقات عامة فى الشرفة. ذهب الذعر، وعندما تخلى عنى الذعر.. عدت إلى الحساب.. بدأت فى حساب الحركات التى سأضطر للقيام بها من أجل الوصول - أينما وجدته- إلى باب المسكن. لم تكن النتيجة سهلة.. فقد كان يجب علىّ اجتياز الشرفة من جديد، عبور الصالون فى خط مائل، ومنه أحزو جزءاً من الممر الذى يؤدى إلى الردهة حيث يوجد الباب. كان عدد الأجساد لانهائياً ولا أزال آملاً ... حتى آخرها بالأكسجين، كانوا يبدون بلاشك ... غير متوقعة. من الممكن أن أمر.. مثلاً.. بمدير الجريدة مرة أخرى والذى يجب أن أتوقف عنده حتى أطلب منه قبول اعتذارى بسبب حادث الممر. ولن يكون غريباً أيضاً أن أصادف صاحب الدعوة الذى كان موجوداً فى كل مكان حيث يتوجب علىّ شرح أسباب انسحابى المبكر جداً... .

وبرغم احتفاظى بكمية كبيرة من الأكسجين.. وجدت نفسى من جديد فى حالة مشابهة لحالة المطبخ.. وتأثيرات المهدئ لم تكن قد بدأت فى الظهور ... نهضت لأتسلى قليلاً والتفت إلى الشارع أسفل ... طوابق. وكانت الشرفة مُكمَلة.. من الناحية الخارجية.. بإفريز لا يقود لأى مكان. وحتى أخفى

t.me/qurssan

جزعى الذى بدأ يُهيّج أمعائى، أوجدت لنفسى فراغاً وسط مجموعة من أربعة أشخاص كانوا ينقدون شخصاً خامساً.. لحسن الحظ.. لم أكن أنا. تحملت لنصف دقيقة.. مبتسماً وقائلاً نعم على كل شىء.. عندما مرر لى الشخص الذى كان على يسارى سيجارة حشيش.. كنت أحتفظ فى تلك الفترة ببعض الصلات الغامضة مع الحشيش.. فبعض المرات لاءمنى وأخرى لا بطريقة عشوائية. على أى حال.. تعاطيت المخدرات وعند انتشار الدخان تذكرت أننى انتهيت للتو من تناول المهدئ. ربما لم تكن تركيبة ملائمة.. حينها حدث التالى.. تركز الضيق فى الصدر وكل الحساب فى الرأس، كنت أستطيع أن أفكر فى حساباتى وأن أكون متضايقاً فى آنٍ واحد.. دون أن يأتى الضيق على الحساب.. حيث إن كلاً منهما مستقر فى مناطق راكدة من جسدى. فكرت أنه إذا ظل كل طرف منهما فى مكانه، سوف يجد جانبى الحسابى حلاً لجانبى الحزين.

كان الموقف هكذا: دون أن أتوقف عن التظاهر بالانتباه للمحادثة، بدأت النظر فى خفية حولى لتقدير إمكانات الهروب. انتبهت وقتها إلى أن الشرفة التى كنا فيها مفصولة عن شرفة منزل الجيران بحاجز سهل للغاية تخطيه. فى الحقيقة العبور من منزل إلى آخر كانت لعبة الأطفال.. فبرغم أن الشخص بالطبع يعرض نفسه للخطر خلال لحظات فى الفراغ، إلا أن جاذبيته - وقد حسبتها- سوف تخف بسبب منظر الإفريز. مرة واحدة أصل إلى شرفة المنزل المجاور،

t.me/qurssan

، إذا كان الباب المؤدى إلى الصالون مفتوحاً (وهو أمر طبيعى فى هذه الفترة من العام) سيكون من السهل الوصول إلى مدخل المسكن والهروب من جهنم تلك، والشرط الضرورى كان عدم وجود أحد بالصالون.

دون أن أكف عن الابتسام.. ابتعدت عن المجموعة وعدت إلى منطقة الدرابزين وأطللت برأسى على شرفة المنزل المجاور. فى الواقع.. كان الباب الذى يتصل بالصالون الفارغ تماماً.. مفتوحاً. إذا كان تخطيط المسكن - كالعادة- مطابقًا لمسكن الناشر، فلن يتوجب علىّ أكثر من أن أخرج من الشرفة، أجتاز الصالون، أخرج منه إلى الممر وأمشى ثلاث أو أربع خطوات حتى باب المنزل. مخاطر الهروب من ذلك الجانب أكثر سهولة للغاية من هذا الجانب. هل سأقدر؟. وقبل لحظة تنفيذه الحقيقية.. نما الذعر فى صدرى، بل الحساب فى رأسى أيضاً.

فى هذا الوقت.. طلب مضيّفنا الهدوء من داخل الصالون، فقد كان يريد توجيه بعض الكلمات للحاضرين. وبالتالى.. التفت الجميع ناحيته وأعطوا إلىّ ظهورهم. الآن أو أبدًا.. قلت لنفسى. وكانت الآن.. حيث صعدت فجأة إلى الدرابزين لأسقط على الفور فى شرفة المنزل المجاور. ثلاث أو أربع لحظات.. لا أدرى، أقل مما يستغرقه المرء فى الحساب. بعد ذلك.. بحركات حذرة.. متفادياً الأثاث الذى أصبح بسبب الظلام السائد عبارة عن أشباح.. عبرت صالون المسكن وأطللت على الممر. كان يوجد

t.me/qurssan

على يسارى - على بُعد مترين على الأكثر- الردهة وبها باب مدخل الشقة. وعلى يمينى كما كنت أتوقع.. كان يمتد الممر ليؤدى إلى الحجرات، منتهياً بمطبخ على شكل رحم. كان يصدر عن واحدة من الحجرات فى عمق الممر - والتى كان بابها مفتوحًا- لمعانًا متقطعاً مميزًا لتليفزيون مُضاء وحواراً خافتاً لأبطال فيلم. ربما كان أحد هذه المساكن التى تحتوى على غرفة معيشة. وكما كانت اللحظات تمضى ببطء ومشاعرى كانت متيقظة.. لاحظت أن المنزل تفوح منه رائحة خضراوات مغلية.. ليس بسبب أنها كانت تغلى فى تلك اللحظة، بل لأن الرائحة كانت تشكل جزءًا من شخصية الشقة.. لذلك لم يكن غريباً أن يكون بها غرفة معيشة.

حسنًا.. كانت الحرية على بُعد ثلاث أو أربع خطوات، لكن قبل أن أخطوها درست من موقعى - على الضوء الخافت المحيط - خصائص القفل حتى لا يكون هناك شك فيما سوف أجده أمام الباب. لحسن الحظ.. من أجل فتحه كان يجب علىّ فقط أن أحرره من السقاطة.. إذ أن المزلاج الذى كان فى الجزء العلوى لم يُخلع. وأنا على بسطة السلم، رجعت لأغلق الباب ببطء لأتفادى الضوضاء.. وبدأت فى الركض على درجات السلم من تحتى بجنون السعادة. كنت أنزل بقدر كبير من الخفة والسرعة اللذين أعطيانى انطباعًا فى لحظة أننى كنت أتزحلق على منحدر بزلافة فى يوم عطلة. وبينما كنت أهبط وأهبط..

t.me/qurssan

كانت أبواب المنازل تمر من أمام عينى كبناءات خيالية تتكرر خلفها حيوات متطابقة، كائنات مستنسخة، صعوبات وروتين متشابه مع ما هو خلف باب المسكن الذى هربت منه. تملكنى فى لحظات النشاط والخفة انطباع بأننى لم أهرب من شقة، بل من نمط حياة، من أحد أبعاد الواقع، كأنه واحد من هذه المبانى القديمة التى يشغل قلب السلم فيها المكان الخاص بالمصعد.. فألتقى بالكابينة التى من الخشب والزجاج والتى كانت تصعد نحو الطابق الثالث بينما أنا أهبط، أحيىّ الأشخاص الذين بداخلها كما لو كنت فى طائرة وأودع ركاب طائرة أخرى.

ومع ذلك.. كان أفضل شىء عند بلوغى الشارع.. هو عثورى مرة أخرى .. بعد سنوات كثيرة.. على الشارع. أعنى أن شكل الواجهات، الفوانيس المضاءة، الدكك، مقصورات التليفون، حتى نوع المارة... كان مطابقًا لما كنت أتأمله من قبلها بسنوات من بدروم فيتامينات ولتجربة اليوم الذى خرجنا فيه للشارع من الفتحة التى كنا نرصده منها عادةً. كان الواقع قد اكتسب الامتياز الذى تمنحه بعض أعشار من الحمى لأى منظر. كان الواقع منظراً محمومًا، لكل شىء فيه وظيفة. كنت أستمتع برفع عينى ومراقبة النوافذ المضاءة بلون الضوء الضارب للصفرة والتكهن بالحيوات التى تمضى خلف الستائر. كان كل شىء للتدشين، للرؤية، كان جديداً. حتى النواصى الأكثر اتساخا، الأكثر تحطّما التى كانت الكلاب تتبول فيها كثيراً.. لها صفة الصورة، صفة منتزه لقضاء أوقات

t.me/qurssan

الفراغ.. مما أوجد الدهشة. سألت نفسى ماذا كان سيحدث لو أن فى ذلك اليوم البعيد من طفولتى لم أرجع من نفس الفتحة التى خرجت منها.. ربما احتفظت الحياة دائماً بذلك الرونق أو تلك الحمى التى استرجعتها الآن وقلت لنفسى ـ لن أفقدها بعد الآن.

أخذت تاكسى وطلبت من سائقه أن يأخذنى إلى ذلك الحى الذى ربما لم أخرج منه. كان سائق التاكسى كريهاً، متسخاً، حانقاً. هذه المواصفات.. فى ظروف أخرى.. كانت تغضبنى. أما حالياً.. فهى تمنحنى الفرصة لأطل على آلات الحزن.. إذ أن هذا الرجل كان كواحدةٌ من هذه الساعات ذات الغطاء الزجاجى التى- علاوة على إظهار الوقت- تُظهر لك الحيلة التى بها تكون قادرة على إعطائك الوقت. برغم ذلك كانت تفوح من التاكسى رائحة سيئة.. قلت:

- "يالها من رائحة جيدة فى هذه السيارة".

راقبنى سائق التاكسى من خلال المرآة ليرى - دون شك- تعبير سخرية. لكنه وجد ملمحاً من الصراحة. فأضفت فى الحال:

- "تُذكرنى برائحة أول سيارة لأبى".

بالصدفة.. كان الرجل فى نفس عمر أبى. حكى لى أنه ـ برغم أنه سوف يتقاعد بعد بضعة أشهر ـ سوف يستمر فى العمل لبضع سنوات أكثر لأن له ابناً يعانى من مشاكل نفسية علاجها مُكلف للغاية.

t.me/qurssan

اهتمت به وبابنه.. حكى لى أنه كان فتى طبيعياً ، مميلاً جداً.. حتى تشاجر مع أحد زملائه بالمدرسة ، الذى أهانه:

- "منذ ذلك الوقت.. تحول إلى كائن عنيف، كان يضرب كل الناس. ذهبنا به .. بناء على نصيحة اساتذته.. إلى طبيب نفسانى، والذى بدأ فى إعطائه حبوباً جعلته مجنوناً حتى يومنا هذا الذى أصبح يبلغ فيه ٦٢ عامًا.

انتهز الرجل فرصة إضاءة الإشارة باللون الأحمر.. وأخرج من محفظته صورتين.. فى واحدة منهما كان يبدو طفلاً جميلاً.. ذا سبعة أو ثمانية اعوام.. كان ينظر نحو عدسة الكاميرا باندهاش، كانت شفتاه مفتوحتين وفتحتا الأنف متسعتين قليلاً.. شعره ناعم جداً ولامع للغاية.. كما لو كانوا قد انتهوا من غسله.. يسقط على جبهته وكأنه بشكل عرضى. كان بالفعل جميلاً، حتى قلقه جميل. فى الصورة الأخرى كان يبدو فتى يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً له تعبير مميز لشخص مضطرب العقل.. العينان موجهتان للكاميرا.. لا ينظران فى الواقع إلى أى موضع، على الأقل إلى أى موضع يجده فى هذا العالم.

أظهر لى الرجل تلك الصور لابنه مستخدما ـ دون أن ينتبه ـ تقنية «قبل» و «بعد» فى إعلانات نمو الشعر.. «قبل» و «بعد» الدواء النفسى. كنت مُنحنياً على المقعد الأمامى لأقترب من الصور التى وضعها

t.me/qurssan

الرجل أسفل ضوء السقف الضعيف. شعرت أننا تقابلنا.. أنا وسائق التاكسى.. داخل فقاعة برغم أنها استغرقت الثوانى التى غيرت فيها الإشارة وضعها، إلا أنها ستظل طوال الحياة.. كما ظلت طوال حياتى تلك الغمزة التى وجهتها لنا لوث فى اليوم الذى خرجنا فيه إلى الشارع من البدروم بعد أن خلعت العصابة السوداء التى تتمرن بها على الكتابة العمياء. أو كما ستظل باقية نظرة الله فى المرة الأولى التى أطللت فيها من أحد أطراف الماسورة ووجدت عينه.

اكتفيت برؤية «قبل» «و» بعد لذلك المخلوق المسكين حتى أفهم «قبل» وبعد لحياة سائق التاكسى.. لكل الحيوات فى الحقيقة. عرفت أننى إذا بدأت فى هذه اللحظة حكى حياة ذلك السائق المتضجر. المتألم، الكريه الرائحة.. سوف أشيّد تحفة.. برغم أن جسدى كان موجوداً فى تلك اللحظات التعيسة التى تأخرت فيها الإشارة فى تغيير لونها.. إلا أن رأسى كانت تعمل فى بُعد زمنى مختلف.. مختلف إلى الحد الذى بدت لى فيه الرواية من أولها لآخرها عبارة عما نطلق عليه.. يا إلهى.. رواية كاملة. وبالدقة التى تُراقب بها ماكينة الساعة المفتوحة، رأيت جميع وكل جزء من أجزاء تلك الحكاية، تلك الحياة التى كنت قد بدأت أشعر من أجلها بشفقة لم تضرنى.. إذ أنها كانت قطعة زائدة من البناء الروائى. كان يجب علىّ فحسب النظر لهذه الشفقة بالمنظور الذى يُجرى به المهندس حسابات مقاومة مواد البناء. لكن الشخص الذى يرى

t.me/qurssan

الأمور بذلك الوضوح - قلت لنفسى فى الحال- لم يكن يستطيع إضاعة الوقت فى سرد قصة كقصة سائق التاكسى.. بكل ما آلت إليه. كنت مضطراً لسرد قصة العالم.. بمعنى.. قصة شارعى.. إذا أننى أدركت فى هذه اللحظة أن شارعى كان تقليداً، صورة طبق الأصل، نسخة.. ربما استعارة للعالم. وعرفت بحدسى ايضاً انه يجب لإنجاحها استخدام أسلوب من نوعية الكتابة العمياء.. التى كانت متناقضة ظاهرياً مع كتابة لوث.

خلال هذه اللحظات الحاسمة أدركت أيضاً أن فذارة وثقل ظل سائق التاكسى لم توظفا فى العالم ضدى.. ولأنهما لم يوظفا فى العالم ضدى استطعت ان ألحظهما من تلك المسافة التى كنت أستقر فيها. ومن هذا الكشف يُستنتج أن العالم لم يكن أيضاً عملاً غير متقن ضدى، ربما ولا حتى غير متقن. كان العالم كما كان، ويوجد به براغيث، بق، فئران.. يوجد به ألم، وضرر.. بالطبع.. لكنهم لم يوجدوا من أجل التنغيص علىّ، لا.. ولا حتى صحيحًا قول أنه يوجد براغيث، بق، فئران، ألم وضرر كما لو انهم كانوا أجزاء من المجموع، فما كان يوجد هو النظام الذى نتج منه - من بين أشياء أخرى- البق والفئران.. نظام نتج منه سائق التاكسى، وابنه المجنون وأنا. تذكرت مقابلة قراتها - لم تكن من فترة طويلة - مع الله. كان كاتبها صحفيًا امريكيًا معروفًا انعزل لشهور فى حجرة مع وسيط. كان يسأل الوسيط، والوسيط ينقل هذه الأسئلة إلى الله، وأحياناً كان يتأخر الله فى الرد لساعات أو أيام

t.me/qurssan

(فى الحالة التى لا يكون فيها الصمت هو الرد). لكن عندما كان يتكلم - فظهوره أمر لايُصدق- كان يقول أشياء عن أهمية الهدم، وعن الفاعلية الهائلة. وهكذا.. عند سؤال.. لماذا الموت، أجابه أن الموت ليس أكثر من «انتقال داخل الحياة» لم يصوره الله مطلقاً بطريقة أخرى، ولم يكن يفهم لماذا نحن - المنتفعين - من الموت نعتبره وكأنه اعتداء شخصى. انتقال داخل الحياة. كان من الواضح أننا مخطئون فى تسميته، أو فى تعريف مضمون اسمه. لم يوجد الموت ولا سائقو التاكسيات كريهو الرائحة فى العالم لأذيتى أو أذيتنا.

وبقدر ما خطرت ببالى هذه الأشياء قلتها لسائق التاكسى الذى بدأ فى لحظة يبكى بامتنان. هى حقيقة.. قال.. فابنه لم يصبح مجنوناً من أجل مضايقته هو وزوجته. فالجنون لم يكن أكثر من انتقال داخل الحياة.. ظهور نظام غامض نشكل منه جزءاً. والخطأ يكون داخله كمشكلة. جرى داخل التاكسى - بينى وبين ذلك الرجل كريه الرائحة- شىء من الحقيقة لا يُصدق: معجزة، إلهام، علامة. والأفضل.. مع كل هذا.. كان إدراك أن المعجزة تكررت فى كل لحظة، داخل التاكسى، داخل كل منزل، كل جسد. المشكلة هى أننا لا نكون فى المكان المناسب من أجل أن نرصد الحقيقة. لذلك نرى أن الموت هو انتقال من الحياة فقط.

t.me/qurssan

نزلت من التاكسى متحولاً، تجولت فى شارعى.. ... بدايته حتى آخره.. فى حالة غيبوبة. لم يكن ... ه.. بالطبع. كل المنازل المنخفضة منذ طفولتى ... بدلت بعمارات من ستة أو سبعة طوابق. لكنى كنت ... ادراً على رؤية أشباح المساكن القديمة وسكانها ... رسومين على تلك الواجهات. رأيت أبى فى الورشة.. ... انلاً على شريحة لحم بقرى لعمل قطعات بمشطره ... لهربائى، رأيت لوث بعينيها المغطاة بالعصابة ... سوداء تتمرن بالطريقة العمياء (الطريقة العمياء!) ... ام الآلة الكاتبة فى الأكاديمية، رأيت أمى وهى تفك ... حذر سدادة زجاجة المهدئ، رأيت فيتامينات.. ... راجته بجانبه.. يصنع عيناً جديدة للرب، نظرة ... يدة يتأمل بها نفسه، رأيت أخته تطوف بين ... بانى.. داخل جونلتها ذات الطيات المزدوجة ... واسعة.. كأنها شبح، رأيت أمسيات مراهقتى الميتة.. امسيات ميتة.. لم يكن يُقال هذا مطلقاً للصباح ولا الليل.. فهو فقط للمساء.. من بين كل أوقات اليوم، فهو فانٍ: فعندما تغرب الشمس.. يُقال.. عند موت النهار.. والذى هو أيضاً موت للمساء. الأمسيات الميتة.. بمنظور الوقت.. أصبحت أكثر حياةً منى. فهى التى صنعتنى.. للأفضل أو للأسوأ. فقد ولدت من تلك الأمسيات التى تنزهت فيها عاطلاً كشبح. وفكرت .. فى نهاية الأمر.. فى حى الأموات الذى كشف أن الموت لم يكن أكثر من انتقال داخل الحياة. لكن الذى رأيته.. بالأخص.. الصلات غير المرئية التى تصل كل ذلك.. وكانت وطيدة للغاية.. الصلات التى

t.me/qurssan

كانت فى الحقيقة اكتشاف كل شىء لنفسه. ذلك، التنوع.. الظاهرى.. كان فى صالح الوحدة.. التى كانت شيئاً واحداً فقط.. شارعى.. يعنى.. الشارع أو العالم، العالم حيث كنا أنا ولوث مجرد انتقالات، مجرد أماكن. فأنا ولوث وأخت فيتامينات وفيتامينات المتوفى كنا نفسه.

حولنى الاكتشاف خلال لحظات إلى النموذج الأكثر إيماناً فى العالم (الإيمان.. كما يُقال يأتى أحياناً كثيرة من religare التى تعنى التوحد). لكن ظهر فجأة فى جسد النشاط والخفة، فى جسد الحمى.. صدع، بمعنى.. سؤال: وما إذا كنت رأيت كل شىء هكذا لأننى خرجت إلى الواقع من باب كاذب (باب جيران مضيفى) بدلاً من الباب الحقيقى؟. وهو ما خطر ببالى عندما خرجت إلى الشارع من فتحة بدروم فيتامينات. وبالفعل.. تلاشت النظرة عندما رجعت له من نفس المكان. وهل سوف يحدث نفس الشىء لو هدمت ما صار.. لو أننى دخلت إلى منزل جيران الناشر ومنه وصلت إلى الشرفة ومن الشرفة إلى مسكن مضيفى لأعود إلى الشارع من خلال المكان الصحيح؟ هل سوف تختفى الحمى، النسيم، اكتشاف الأشياء؟ هل سيعود العالم إلى عتمته الخاصة بأمسيات الآحاد؟.

قررت أن أتحقق من مقاومة تلك الأدوات.. أخذت تاكسى آخر من أجل رجوع ما سرته والعودة إلى الواقع من خلال الباب الحقيقى. لم أكن أعرف

t.me/qurssan

اله طريقة أستطيع الدخول من جديد إلى مسكن
جيران الناشر والقفز مرة أخرى من شرفة إلى شرفة.
لكن افترض أنه سوف يخطر ببالى شىء هناك.

بهذه الثقة دخلت العمارة ثم المصعد الذى كان
من الخشب والزجاج والذى قادنى إلى الطابق
السادس. وهنا عندما غادرت المصعد لاحظت أن باب
الجيران كان مواربا. أطللت برأسى فرأيت الصالون
والممر وهو ممتلئ الناس.. مكونين حلقات يناقشون
فيها بجدية أحد الأمور الخطيرة. وبينما كان وجودى
ليس بغريب.. دخلت.. واختلطت بأحد المجموعات،
وفهمت على الفور أنه يوجد أحد ميت، وبسبب تدفق
الناس استنتجت أن المُصلى الجنائزى موجود فى آخر
الممر على اليمين.. فى الحجرة التى كنت أظنها فى
منزلى الأولى حجرة المعيشة، والتى كانت غرفة نوم
واسعة جداً.. تقريباً استوديو، وكان يرقد فى السرير
شاب بشارب وقفت أمام جسده وتظاهرت بالتفكير
لحظات. فإذا كان الشارب قد لفت انتباهى فلأنه
كان يبدو مستعاراً.. بالرغم من أننى حينها لم أكن
افكر فيه. قدمت مرتين العزاء ثم رجعت إلى الممر
حيث انضممت إلى الصالون. كان يوجد فى الشرفة
عدد من الأشخاص ايضاً.. لكننى استنتجت من
استجماع أفكارى أنه لن يكون من الصعب علىّ البحث
عن لحظة مناسبة للقفز إلى البيت المجاور.

ملت على الدرابزين، بالقرب من الجدار الذى
كان يفصل بين المسكنين، متظاهراً أننى أتأمل
الشارع.. أطللت على منزل الناشر وتأكدت أنه برغم

t.me/qurssan

وجود ناس فى الصالون.. لم يبدأ المدعون فى شغل أماكن فى الشرفة بعد. بسبب شىء غريب لايمكن تفسيره.. فقد كان يبدو أن الحفلة قد بدأت لتوها، كما لو أننى مُنحت فرصة ثانية للتحدى.. فالعبور من ناحية إلى أخرى لم يكن أكثر من مشكلة فرصة وقرار. تخيلت نفسى فى هيئة حشرة.. تخيلت أننى ذبابة.. فمن فى سهرة على جثة ميت أو فى حفلة يولى انتباهه إلى ذبابة؟ إذن.. وبحركات حيوانية.. بعد أن تحققت من أن أحداً لا يرانى فى هذا الجانب أو الآخر.. قفزت. أصبحت سهلة بطريقة مدهشة. لكن كل شىء كان سهلاً هكذا مع أعشار الحمى أو النشاط الوقتى الذى كنت أعيش فيهما.

بعد ثانيتين أو ثلاثة من وجودى فى مسكن الناشر.. خرج إلى الشرفة مجموعة من أربعة أو خمسة أشخاص قمت بتحيتهم.. فقد كنت أعرفهم كلهم. كانوا يتناقشون بتأثر عن فيلم يصننه أحدهم كعمل رائع والباقى يصنونه أنه فيلم من القمامة. فى لحظة معينة مرروا لى جوينت(*) والذى لم يكن "حشيش"، بل ماريجوانا، وكانت جيدة جداً، فقد كانت هذه السيجارة كافية لجعلى أهفو. بدا لى أن أحداً لم يلاحظ أننى أرتفع عن الأرض بعض السنتيمترات، مما أعجبنى فضحكت، نظروا لى كلهم.. أعتقد بملمح انتقاد.. لكننى رسمت تعبير من يريد أن يقول: عن ماذا تريدون أن أحدثكم، وقد استمروا بملمحهم.

(*) ما يطلق عليه العامة جوان مخدرات (المترجمة).

t.me/qurssan

قوّت السيجارة الثانية إحساسى بكونى مُحلقاً، وبينها نبهتنى الحاسة السادسة إلى أنه يجب علىّ الانسحاب من تلك المجموعة التى لم تكن تلائمنى. بدأت السير فى اتجاه الصالون ببعض الصعوبة.. حيث إننى لم أكن ألمس الأرض، وبرغم حرصى الشديد.. ظلت قدماى دائماً على بُعد ثلاثة أو أربعة سنتيمترات عن الأرضية، كما لو كانت توجد مرتبة غير مرئية بينهما، والتى كانت تجبرنى على السير بقليل من التوازن. أصبحت أضحك وحدى من الموقف.. مفكراً فى الميت صاحب المنزل المجاور ذى الشارب.. لم أر مطلقاً ميتاً بشارب.. واتت إلى رأسى فكرة أنه من المحتمل أن يكون الشارب مزيفاً. كما أدركت أيضًا أن عدم الإحساس بالراحة الذى شعرت به أمام الجثة كان ناتجاً عن إحساسى - الذى لفظت به متأخراً - أن الميت كان فى الحقيقة امراة.. امرأة زينوها بذلك الشىء المستعار.

جلست على نوع من الكراسى دون مسند والذى كان أمام أريكة وأنا أفكر فى المفاجأة.. متظاهراً أننى انضممت إلى محادثة كان صوتها هو صوت الناشر.. الذى التفت إلّى قائلاً إنه لم يرنى عندما أتيت:

- "لأننى دخلت من الشرفة". قلت بطبيعية فضحكوا كلهم.

فهمت فى الحال أنهم كانوا يتحدثون عن جمبون رائع كان موجودًا فى المطبخ حيث يستطيع الشخص أن يخدم نفسه بما يحب. شرح مضيفنا أنه اشتراه

t.me/qurssan

بالبريد. فى الواقع.. كان قد اشترى الخنزير كله.. لكنهم أرسلوه جزءاً جزءاً، فكان يحكى لنا وهو مختنق قليلاً:

- "بين يونيو ويوليو".. كان يقول.."أرسلوا لى أربع قطع من السجق المحشو بلحم الخنزير، وأربع من السجق المجفف، شريحة لحم صغيرة، قطعة من لحم بطن الخنزير، نقانق كبيرة محشوة بالدم المطبوخ، وسجق متبل. وفى أكتوبر.. قطعتان من السجق المحشو بلحم الخنزير المملح فى أمعاء طبيعية، قطعتان من السجق المجفف المملح فى أمعاء طبيعية أيضاً، وشريحة اللحم الأولى من الصلب. وفى ديسمبر.. شريحة اللحم الثانية من الصلب، سجق آخر محشو بلحم الخنزير مملح فى أمعاء طبيعية، سجق مجفف مملح فى أمعاء طبيعية، شريحة لحم صغيرة أخرى، سجق إضافى من الأمعاء الغليظة فى أعور طبيعى..." .

سألته ماذا تعنى «أعور طبيعى» لأن التعبير خوفنى:

- "الأعور".. قال وهو مسرور من إظهار علمه الخنزيرى الواسع.."هو جزء من الأمعاء الغليظة التى تنتهى فى أسفل الكيس".

- "كيس المؤخرة". ترجمها أحدهم غريزياً.

- "هذا هو". وافق الناشر الذى استمر مع السلسلة السابقة.. "فى مارس.. عظمة اللوح، فى سبتمبر..

t.me/qurssan

الأخرى. أما الفخذان فيرسلوهما فى ديسمبر.. فى عيد الميلاد".

- "اشتريت منذ سنتين أعمال تولستوى كاملة بنفس الطريقة".. تكلم شخص كان يقف بجانبى.. " بمعنى

أنى اشتريت أعمال تولستوى كاملة.. لكنهم ارسلوه لى مُجزأ على مدى الاثنى عشر شهراً المتتالية،

لكن حيثما وضعت تولستوى كان تولستوى، لن يكون ديستوفسكى ولا زولا ولا بلزاك. فكيف تعرف

انت أن عظمة اللوح وفخذ الخنزير وسجق الأمعاء الغليظة الإضافى الموضوع فى الأعور الطبيعى يخصوا الخنزير الذى اشتريته وليس حيواناً آخر؟".

- "يجب عليك أن تثق".. قال الناشر بصراحة.. "لأنك لا ترى وجه الخنزير. قلت إن كله يكون عن طريق البريد".

- "بالتأكيد سيكون خنزيراً رمزياً".. اضاف آخر من المشتركين.. " ليس خنزيراً معيناً، باسم ولقب.. فما اشتريته من عظمتى اللوح، فخذى الخنزير المملح، السجق المحشو بلحم الخنزير، شريحة اللحم من الصلب والسجق المجفف... إلخ، باعوه لك كما لو كانوا يخصوا نفس الخنزير من أجل أن تتوهم أنك ربحت ماشية".

t.me/qurssan

- "كأنك تنفق على طفل من العالم الثالث".. اشتركت كاتبة.." لا أريد أن أقول إن النقود التى ترسلها تكون لهذا الطفل المحدد.. لأن المنظمة تديرها من أجل المجتمع، لكنهم يحددوا لك شخصاً من أجل أن تستطيع مواجهة تقلب مشاعرك التى تدفعك للتبرع بالمال".

- "بالضبط". قال الشخص السابق.

- "وماذا يحدث مع الجلد؟". اشتركت أنا.

- "مع أى جلد؟". سأل الناشر.

- "مع جلد الخنزير الذى اشتريته. ألم يرسلوه لك؟".

- "لا". أجاب بقليل من الارتياب.

- "لقد جلدوا به الأعمال الكاملة لتولستوى التى اشتراها ذاك". تكلم فجأة سيناريست تليفزيونى.

قهقهنا وغيّر الناشر المجموعة بعد أن دعانا لزيارة المطبخ من أجل أن نتحقق من جودة الجمبون.

- "ومن السكين".. أضاف.."فعند عمل الطلبية يهدونك سكين جمبون قادراً على قسم الشعرة - بالطول-

إلى جزأين".

بدأت رحلة الذهاب بروح المغامرة.. بما فيها من إحساس بسعادة سخيفة. إضافةً أن موسيقى هذا الجزء الأول من الحفلة التى أثارت داخلى - لأسباب

t.me/qurssan

..علق بنظامى الشخصى- قدرًا من النشاط والخفة
الذين جعلانى أفكر فى الجمبون كما أفكر فى صوف
.. الذهب. وفى وسط الممر.. محاطاً بالأجسام التى
..هب وتعود.. شعرت داخلى كأننى مستكشف عليه
انجاز مهمة خطيرة فى بيئة عدائية.. لكن يمكن
التحكم فيها. خدعت نفسى: لم تكن البيئة سهلة
التحكم فيها.

أعنى أن كل شىء تكرر بطريقة متطابقة للمرة السابقة. وصلت إلى المطبخ الذى كان على شكل رحم والذى يوجد فى نهاية الممر. اكتشفت النافذة التى ..طل على الساحة الداخلية، تحققت أن الحوائط ..ستتر إلى عناصر أتشبث بها فى حالة بدأت الهروب ..ذلك. أخذت زوجاً من الشرائح الرقيقة من الجمبون، ..ملت الـ (إل إم!) من كاتب شاب من أمريكا اللاتينية. انفجر الدخان داخل مخى، شعرت بدوار خفيف. رميت الـ (إل إم) المشتعلة من نافذة الساحة وعددت اللحظات التى استغرقتها لأفقد رؤية شعلتها... إلخ.

كنت أُشبّه كل لحظة مما حدثت باللحظة التالية.. واستسلمت فى خضوع للتكرار مع أمل أن يظهر فى أية لحظة منعطف، درب، شق يسمح لى بالهروب من ذلك الموقف المُضاعف. بدا لى المنعطف عندما قررت أن أذهب إلى الشرفة للبحث عن أكسجين. أجتهد بيأس فى الممر.. بعد قليل من وضع مدير الجريدة يده على كتفى فحررت نفسى منها بضربة. فجأة.. رأيت على يمينى باب حجرة تسللت

t.me/qurssan

منه. كان فيها احتياطى من الهواء دون أن يستنشقه أحد.. فقاعة ضخمة من الأكسجين. يوجد سرير كبير، خزانة ذات أدراج بمرآة دائرية، كومودينان، وباب يؤدى إلى حمام دخلته وأنا أحتضر وجلست فوق مرحاضه للحظات قبل انقطاع الأجل.. حيث إن ما حدث يُسمى بالكلمات الاصطلاحية.. فقدان الوعى بالنسبة لى بدا أنه الموت.. موتة صغيرة.. إذا طُلب منى أن أقلل منه، لكنه فى نهاية الأمر موت.. باحتضاره، برجفاته، حتى بنفقه.. وفى نهاية النفق بدلاً من تجمع الضوء الذى يشير له الذين خاضوا تجارب مشابهة.. كانت توجد عين.. عين الله. ربما عينى، وكأننى وجدت نفسى داخل واحدة من تلك المواسير التى كان يصنعها فيتامينات. أتذكر أننى قلت فى أعشار الثانية التى سبقت فقدانى للوعى: ابقوا هناك. وخلال هذه الأعشار (التى ربما كانت من الحمى أكثر منها من الوقت) كنت أكثر رجل خطى على الأرض سعادةً.

مر وقت غير محدد، أغلب ظنى أننى حلمت خلاله أننى وصلت إلى الشرفة من أجل الوصول منها إلى بيت الجيران والخروج إلى الشارع.. إلى العالم.. من الباب الكاذب. هز أحد كتفى وناداني باسمى.. فتحت عينى ورأيت الناشر وعلى وجه الذعر.. وعلى بُعد مترين تقف زوجته بوجه مشمئز. وجدت نفسى على الأرض.. منكمشًا فى وضع جنينى.. وبينما كنت أستوى فى جلستى، أعدت بناء ما حدث وموتى تقريباً

t.me/qurssan

مرة أخرى فى هذه المناسبة المخجلة. كانت الحفلة قد انتهت وعندما ذهب الناشر وزوجته للرقود عثرا على جثتى فى حمام غرفة نومهما. تلعثمت وأنا أعتذر.. شرحت لهما أننى كنت أشعر بسوء وأننى كنت أبحث عن الحمام فدخلت دون قصد فى الغرفة غير المقصودة. وبعد كل هذا.. لاحظت سريعاً فى المرآة أن لى وجهاً كمن بُعث من الموت.. أفزعنى أنا نفسى. عند سقوطى من على صحن المرحاض أغلب الظن أننى خُبطت.. لذلك كان فى جبهتى نتوء بحجم كبير.

عرض علىّ الناشر أن يتصل بالطبيب وأن تحضر له زوجته شاياً بالأعشاب، لكننى قلت لهما ألا يقلقا.. أننى بخير. وخرجت إلى الشارع.. إلى العالم.. إلى الواقع، هذه المرة من الباب الصحيح. كانت الخامسة صباحاً وبالكاد كان يوجد مارة ولا توجد حركة مرور.. لكننى وجدت باراً مفتوحاً دخلته وطلبت "شاى" حتى أعيد بناء حلمى.. فى حالة أنه كان حلم.. حيث إننى كنت أتذكره كله.. كله تماماً، كأنه واقع، بل مفرط فى الواقعية. كنت قادراً - حتى داخل فقدانى للوعى بما فيه من نشور - على تكرار واحدة بواحدة من كلمات سائق التاكسى الذى حكى لى حكاية ابنه، صوره (قبل وبعد الجنون) التى ظلت محفورة داخلى بطريقة لا تُمحى. كنت أتذكر أيضاً.. لحظة بلحظة.. نزهتى فى الحى والشعور بأن المبانى والفوانيس وإشارات المرور والعربات محاطة بهالة من التَفرد لا تُنسى. أذكر كذلك قرار قطع الطريق للعودة إلى العالم من خلال الباب الحقيقى وسألت نفسى ماذا كان سيحدث لو لم

t.me/qurssan

أفعل هذا. ربما.. فكرت باشتياق.. أننى كنت سأظل على الدوام داخل عالم مضىء، صاف.. عالم مناسب.. فى نهاية الأمر. لعلى لم أستيقظ.

رأيت الشارع.. أقصد.. نوع من الترجمة الأفلاطونية لشارعى، بعد أن تجولت فيه فى ذلك الحلم، ودائماً كان الشارع نموذجًا للعالم. رأيته مرة فى نيويورك وأنا أسير من مبنى الجراند سنترال - المركز الغريب الذى يبدو مدخله كقرية للنمل- إلى فندقى. بدأت تسطع فجأة الواجهات والأشخاص عندما كنت أمر بجانبهم كما كانت تسطع الأشخاص والأشياء التى راقبتها من بدروم دكان فيتامينات. ظللت هادئاً على الرصيف.. خائفاً من أن تختفى الرؤية فى الحال.. لكنها طالت لعدة دقائق. وبرغم أننى كنت فى نيويورك.. بعيداً لحد كبير عن البيت.. وجدت نفسى فى الحقيقة فى شارعى.. كما لو كان شارعى.. عالمى. كان فى كل الأماكن، كان لى تجارب مشابهة فى كيتو، مانشستر، فى المكسيك... . هو متكرر كثيراً.. عندما أسافر بمفردى، أجد نفسى مع شارعى أينما ذهبت. لذلك.. عند وصولى لمدينة - خاصةً إذا كانت مدينة غير معروفة- أول شىء أفعله.. بعد تركى لحقائب السفر فى غرفتى بالفندق.. أن اخرج لأتمشى دون تحديد اتجاه. عندما أمر بناصية.. فى وقت متأخر أو مبكر.. تبدو لى شبيهة بشارعى، وفى كل مرة تبدو لى أنها تشبه شارعى.. أرى نفسى أيضاً متجسداً وأحاول أن انسجم مع نفسى بالشفقة التى جردتها من الحسرة بمرور الوقت. لم أستسلم

t.me/qurssan

للحسرة بل للفضول.. فكيف نجا من كل ذلك شخص هش لهذا الحد؟ كيف - أسأل نفسى- سد حاجة تلك المجموعة من العظام، تلك الحفنة من اللحم التى كبرت فى جوف السلم، فى ظلام بدروم...؟ إذا كنت مت حينئذ.. ربما هذا ما حدث.. فماذا يُسمى كل ما حدث بعدُ ذلك.. وكل ما يحدث فى كل يوم. وجدت طوال حياتى بدائل لبدروم فيتامينات، أماكن كنت أرى منها بطريقة أو بأخرى العالم.. كانت جلسات التحليل النفسى واحدة من هذه الأماكن.. فالخمسون دقيقة فى جلستى كانت تعنى خمسين دقيقة من المشاهدة. لم يكن غريباً أنه عند تركى الجلسات، كان يجب علىّ ان أتجول لمدة ساعة أو ساعتين لأتأمل ما رأيته على الأريكة. أيضاً القراءة والكتابة مساحات يظهر من خلالها - ليس دائماً لكن من حين لآخر- شارعى.. أقصد الشارع.. أو العالم.

لم أدَوِن ملاحظة عن ذلك الحلم - إذا كان فى النهاية عبارة عن ذلك.. عن حلم - فى منزل الناشر، لكن فى كل مرة أستحضره يعود إلى ذاكرتى بالدقة التى أوصفه بها. ولم تضيع.. كما يحدث عادةً مع الأحلام.. بعض القوة، لم يضيع الحماس، ولا العنف، لم يضيع النسيج ولا الانطباع. كان هناك دائماً.. فى وسط حياتى.. رواية تنتظر أن تُكتب. ذات مرة.. بالمناسبة.. ظهرت لى رواية. وقد قلت ظهرت لى رواية لأن بها مقومات تجربة روحانية.. كانت بعد ساعات من إحراق جسد أمى.

t.me/qurssan

عند عودتى إلى المنزل.. ولأننى لم أستطع النوم برغم التعب.. جلست على الأريكة للتفكير ودخلت فى حالة يقظة خفيفة.. حالة حُلم، وسط ما بدا أنه رواية كاملة.. من أول سطر وحتى آخر سطر. كانت تحفة يجب علىّ تكريس العمل لها فقط.. إذا قررت أن أكتبها.. فالعمل، الموهبة، القوة، الحماس... كل ذلك يصنع الرواية. وعند الخروج من الحُلم.. جلست على المكتب، متهيئاً لبدئها، لكنها كانت قد فقدت كل مضمونها. شعرت بالذنب كثيراً لهذه الخسارة.. التى بدت وكأنها حدثت بسبب شىء خطأ قد فعلته.. لكننى تجاهلت ماذا يمكن أن يكون ذلك الشىء.

t.me/qurssan

الجزء الثالث
أنت غير جذاب بالنسبة لى

وإذا كان الشخص البالغ يحلم بأن تظهر له الروايات، فإن الطفل كان يحلم بأن يظهر له الله.. والذى لم يكن فى البداية بهذا القدر من الصعوبة. كنا نعيش فى عالم يوجد فيه الله ساعة بساعة.. دقيقة بدقيقة.. كنا نتلوا الصلوات عند بداية الفصول، وعند نهايتها.. ونستمر عند عبور الشارع، نُقبل أيادى القساوسة، نتضرع عندما نرقد، وعندما ننهض، عندما نجلس على المائدة، عندما نقوم من عليها... كل تصرف فى حياتنا كان قرباناً للرب.. إما كان لإرضائه، وإما لتجنب غضبه.

كانت جهنم موجودة عند منعطف الزاوية.. وكان من الممكن الذهاب للتنزه، لكن يكفى أحياناً التعثر فى حجرة للسقوط فيها. إذا استمنيت فى هذه الليلة ومت.. تذهب إلى جهنم، إذا مصصت كراميل قبل تناول القربان ومت.. تذهب إلى جهنم، إذا هاجمك

t.me/qurssan

وسط فصل اللغة تفكير دنس ومت.. تذهب إلى جهنم. كان من السهل أن يتنهى الحال إلى جهنم على أن تنتهى إلى السجن.. برغم من جملة أمهات هذا العصر التحذيرية: "سوف تنتهى إلى السجن". لحسن الحظ كان الاعتراف يضع العداد على الصفر.

كانت فكرة الخلاص و (العقوبة) تلوث أى نشاط فى المستقبل. من المحتمل أن مفهومى النجاح والفشل لا يزالان يظهران بيننا من تلك التسمية الثنائية. كان الله سيد أيامنا.. ومن ثم فإن العام كان يُنَظم وفقاً للأحداث الأكثر أهمية فى حياة ابنه.. الذى وُلد خلال إجازات عيد الميلاد وتُوفى فى إجازات أسبوع الآلام.

كانت الشهور تسير بمثابة فصول لقصة مضمونها الأساسى كان حياة المسيح. إذا أبعدت الله عن الوجود.. تتفرق حيوات الأشخاص كحبات العِقد المجردة من لُبها (فما هو غير حقيقى يُوصل بما هو حقيقى.. كانت دائماً هكذا). بالنسبة لى كانت تعجبنى أعياد الميلاد.. ككل الأطفال.. لكننى كنت أهتم بالصوم الكبير.. فهو وقت طقسى يكون من أربعاء الرماد(*) حتى عيد القيامة، والمميز بكونه فترة توبة نصوم خلالها الصوم الذى حفظ المسيح فى الصحراء قبل أن يبدأ مهمته. بصراحة.. أعطى أهمية فقط لما أكتبه فى الصيام.. فأستيقظ مبكراً.. حوالى فى السادسة صباحاً وأجلس على طاولة العمل دون أن

(*) أول يوم من أيام الصوم الكبير (صوم الأربعين يوماً). (المترجمة).

t.me/qurssan

اطاول شيئاً حتى التاسعة. أعتبر ما أكتبه خلال ذلك الوقت كأنه ملكى، وأكتبه من أجلى. وما أكتبه بعد العطار يكون ملوثاً بسبب الأعمال التعيسة، بسبب ضرورة كسب المعيشة. رواياتى، كذلك كالأعمال الصحفية الأكثر تقديراً.. كُتبت بين السادسة والتاسعة صباحاً.. فى الصوم.

حسناً.. فالرب كان هناك طوال الوقت من أجل ما هو جيد وما هو سيئ. عامةً لما هو سيىء.. لأنه كان رباً سريع الغضب، عنيفاً، مُعاقِباً، متعصباً. كان الله متعصباً لنفسه لأننى كنت أعيش بسببه مستسلماً بطريقة مبالغ فيها.. كما لو كنت فى صميمى غير واثق من شرعية خططه أو إمكاناته للنجاح. نستطيع أن نقول أنه كان منتمياً لنفسه، كانت له وجوه أخرى. لكن كان ذلك يسيطر على الباقين. والغريب بالنسبة لتفكير ساذج كتفكيرنا هو.. وجوده بدون وجود.. فهو يكون موجوداً خلال غيابه الذى كان يشغله تماماً. لذلك كنا نحلم أن يظهر لنا.. أن يكون واضحاً.. ملموساً. كنا نحلم بمعجزة.

فى السنة الدراسية التى تلت وفاة فيتامينات.. ذهبنا أنا وأمى وحدنا ـ لسبب لا أتذكره ـ ليضعوا لنا الرماد. وكان أربعاء الرماد يومًا عاديًا.. دراسى، لذلك فإن الشىء الوحيد الذى خطر ببالى هو أننى كنت مريضاً كفايةً حتى لا أذهب إلى المدرسة، برغم أننى ذهبت إلى الكنيسة. خرجنا من البيت فى الساعة الأولى من الصباح.. كنت أذهب فى يدها.. فى يد

t.me/qurssan

أمى.. التى لفت يدى برقة بورقة هدايا (فقد كنت أنا هديتها). كانت أمى طويلة ولها جسم ممتلئ بشكل يلفت النظر.. كانت جميلة للغاية. كانت ترتدى سترة طويلة سوداء، أغلب الظن لسنوات كثيرة.. إذ أننى رأيتها بها فى صور فى فترات مختلفة. فى الأبرشية التى تبعد شارعين أو ثلاثة عن شارعنا.. كان يوجد أُناس أكثر من الذين يأتون عادةً لتلقى الرماد بطريقة جعلتنا نقف فى صف. عندما حان دورى - وكنت أنتظر مُرتجفاً من الانفعال- وضع القسيس الرماد علىّ، بصم به علىّ بالعنف الذى رسم به الصليب على جبهتى. عند العودة لمقعدى.. لم أجرؤ على تحريك رأسى بسبب خوفى من أن يتساقط الرماد من علىّ.. حيث كانت فكرتى الحفاظ عليه على الأقل حتى يعود إخوتى من المدرسة لأتفاخر به. فهم لم يضعوه.. لكن أنا وضعته، هذا ما كنت أعتقده.. فقد كان له معنى خاص.. مثل الندبة على البطل. تذكر يا إنسان أنك تراب وللتراب تعود. كانت معرفة أن الحياة لم تكن أكثر من فترة فاصلة تمنح السكون. سكوناً مرعباً.

الرماد.

كنت أقول إن خلف مكتبى، فى دولاب صغير.. حيث أحفظ مفكراتى ودفاترى المستخدمة.. يوجد أيضاً منذ بعض الوقت رماد أمى وأبى. استرجعته بهدف نقلهما إلى ڤالنسيا ورميهم فى البحر.. كما رغبا.. ومنذ أسبوعين - وكان يتوافق صدفة (صدفة؟) مع الأيام الأولى من الصوم الكبير- وافقت على إعطاء

t.me/qurssan

محاضرة فى مركز ثقافى فالنسى والذى كنت وافقت على طلبهم لى منذ حوالى فصلين. وسوف أستغل الرحلة من أجل أن أُسقط عنى الرماد الذى كان وجوده معى قد بدأ يُحزننى.

من أجل هذا النوع من الانتقالات لمدة يوم أو يومين.. تعودت على حمل شنطة صغيرة -لا يتم تسجيلها - تتسع للكمبيوتر، طقم داخلى نظيف، واشياء قليلة أخرى. فكرت أن أضع مكان هذه الأشياء القليلة رماد والدىّ. لكن أوعية حفظ الرماد كانت متضخم كفاية.. بحيث إن اليوم السابق لسفرى - فى وقت كنت فيه بمفردى فى المنزل- قمت بفتحهم وأنا ميت من الخوف.. دون أن أعرف ماذا سوف أصادف هناك فى الداخل بعد سنوات كثيرة. وتحققت أن الرماد موجود بدوره داخل الكيس البلاستيك الذى تهيأت لاستخراجه من الأوانى.

بدأت برماد أمى، لكن فم الوعاء كان أكثر ضيقاً من الكيس.. لذلك كان يقاوم الخروج، علاوة على ذلك.. كانت للأوانى حافة مسننة قامت بعمل قطع فى البلاستيك. تبعثر جزء من الرماد على الطاولة بجانب الحاسوب، حاولت أتخيل - وأنا أتصبب عرقاً من الضيق- ماذا سوف أقول لزوجتى أو أولادى إذا أتوا فى تلك اللحظة.

استطعت فى النهاية إخراج الكيس.. الذى كان متضخماً أكثر مما كنت أتوقعه.. وضعته جانباً. بعد ذلك.. جمعت الباقى الذى كان قد تبعثر بحافة ورقة

t.me/qurssan

صغيرة وأعدته إلى مكانه. ظل هباءً.. نفخته فانتشر فى الهواء، أتى جزء من الرماد على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، أفترض أنه تسرب من فتحاته والآن سوف يُكون جزءاً من أحشائه.. وربما من كتاباتى. على أى حال.. أصبح الكيس الأصلى تالفاً للغاية.. فبحثت عن آخر لأدخله فيه ووجدت أحد أكياس «الكورت إنجليس..» الذى أعطى معنى تهكميًا.. حيث كان ذوق أمى لكونه من المتاجر الكبرى.. فقد كانت تحضر تخفيضاته كل عام والتى من وجهة نظر المجتمع الاستهلاكى.. كانت عبارة عن حدث له مضمون رمزى رفيع.

عانيت أقل مع رماد أبى.. فقد كان أقل تمرداً (وكان أيضاً أقل بكثير)، لكنه انتهى كذلك فى كيس «الكورت إنجليس» ..فالكيس الأصلى لم يكن بحالة جيدة أيضاً. فى كلا الأمرين أدهشنى إثبات أن الرماد هو شىء أكثر من كونه رماداً.. هو الهيكل العظمى للميت مسحوق ومتحول لقطع صغيرة جداً، لكن يمكن من خلالها معرفة النسيج الذى أتت منه. وضعت على الأكياس شريطاً لاصقاً.. حتى أتجنب المفاجآت.. وأدخلتهم شنطة السفر الصغيرة، على أن أترك كل ما يستلزم علىّ تحضيره لليوم التالى. تضخموا أكثر مما كنت أتخيل، لذلك سوف أستغن عن الكمبيوتر.. الذى يصاحبنى فى أغلب الأحوال كأنه تميمتى، أكثر من كونه أداة: فبالكاد يكون لديك الوقت للعمل فى رحلة الذهاب والعودة. كانت خطتى أن أصل إلى ڤالنسيا

t.me/qurssan

فى الساعة الأولى من الصباح، آخذ تاكسى يوصلنى للشاطىء، أنثر الرماد، ألقى المحاضرة، أتناول الغداء مع المنظمين وأعود إلى مدريد فى منتصف المساء.

وبرغم أن إيزابيل كانت تعرف أننى أحتفظ بالرماد، فإننى لم أقل لها إننى كنت أحمله معى فى تلك السفرة حتى أتحاشى أن تعرض علىّ مرافقتها لى.. إذ أنه كان أمراً ـ أعتقد ـ يجب عمله بمفردى. اتصلت بتاكسى مبكراً جداً ـ حسب عادتى ـ ووصلت إلى المطار قبل الإقلاع بساعة ونصف. وعند طاولة تحرير الفواتير.. قدمت بطاقة هويتى.. حيث إنها كانت تذكرة إلكترونية.. وأعطونى بطاقة ركوب الطائرة. ثم توجهت إلى نقطة تفتيش الشرطة بقصد العبور لمنطقة الركوب وتمضية الوقت فى قراءة الصحف.

حينئذٍ.. فى صف تفتيش الشرطة وعند دورى وضعت جراب السفر على سير جهاز الكشف. وقتها.. عند دخوله فى فتحة النفق بالضبط، انتبهت إلى الحماقة التى قمت بعملها.. فربما يسألوننى ما هذا الذى تشبه تركيبته تركيبة البارود، ويجب علىّ أن أجيب أمام الجميع.. إنه رماد والدىّ. كنت على وشك أن أُدخل يدى لأحاول جذب الجراب، لكن بدا لى أنهم سيشتبهوا فى أكثر.. بحيث مررت من تحت إطار الأمن محاولاً الحفاظ على هدوئى. كان دائماً عندى تخيل أنه فى يوم سيقبضون علىّ فى واحدة من أجهزة التفتيش هذه.. إذ أننى مولود مذنب. وفى الواقع..

t.me/qurssan

كانت تبدو لى كذبة انه بعد سفرى كثيراً لم يكتشفوا بعد شيئاً مريباً فى الجمارك. وعندما وصلنا أنا وشنطتى إلى الجانب الآخر.. سألنى الحارس الموجود أمام شاشة المراقبة ماذا تحوى تلك الأكياس الغريبة وطلب منى أن أظهرها له. شرعت فى فتح شنطة سفرى الصغيرة ووجهى أبيض بلون الحائط.. بينما كنت أنطق بكلمة رماد بصوتٍ منخفض.

- "ماذا تقول؟".

- "رماد.. رماد والدىّ". أضفت مُخرجاً أكياس الكورتِ إنجليس.

- "بقايا بشرية". ترجم الحارس لافت انتباه مشرف كان موجوداً قريباً جداً منا ومسافرين آخرين بدأوا فى التحرك ببطء لرؤية إلى ماذا انتهى الأمر. توجهت إلى المشرف بأدب وقلت له إنه رماد أبى وأمى اللذين كانت رغبتهما نثره فى البحر المتوسط. نظر لى المشرف بعدم ثقة وتكلم مع أحد من خلال نوع من التليفونات المحمولة، وعلى الفور ظهر حرس مدنى.. كررت له نفس الكلام.. بصوت منخفض.. حتى لا امنح أى شعور بالرضا للفضوليين. كان الحارس المدنى يشك فىّ:

- "وتقول أنه بقايا بشرية لوالداك ووالدتك؟".

لاحظت أنهم يستخدمون تعبير «بقايا بشرية».. بدلاً من رماد.. من ناحية لتخويفى، ومن أخرى لتبرير الاستجواب. جاوبت بنعم.. هو رماد كلاهما، مُرضياً

t.me/qurssan

اياه بأن أظهرت فى صوتى غرابة أطوار. وأخيراً قال لى ان أنتظر.. إذ كان عليه استشارة مشرف أعلى منه فى الرتبة. كنت على وشك أن أسقط من الخجل والقلق، لا أعرف ما هو الشعور الذى كان يسيطر على الآخر. بدا لى أننى نائم فى قسم الشرطة. وبينما كنت أنتظر مر من بوابة الأمن كاتب أكرهه، لكننى احتفظ معه بعلاقات مهذبة.. سألنى إذا كنت أواجه اية مشكلة وإذا كنت أحتاج مساعدة، قلت له لا.. وأننى على وشك ان اتدبر كل شىء. رأيته وهو يبتعد يتحدث مع أحد الفضوليين الذى كان بدون شك يحكى له انهم فُوجئوا فى التفتيش ببقايا بشرية.

وصل حارس مدنى بشرائط أكثر أو بنجوم اكثر.. لا أتذكر.. وعدت لأشرح له الحكاية. هذه المرة أضفت أننى فى الواقع سوف ألقى محاضرة فى جامعة فالنسيا.. ولأن مهمة رمى الرماد فى البحر كانت معلقة، فقد قررت حمله لضرب عصفورين بحجر واحد. كنت أُفضّل أن يخرج منى تعبير آخر.. لكن خرج منى ضرب عصفورين بحجر واحد.. والذى بدا أمراً خبيثاً مع وجود تلك البقايا البشرية الملفوفة فى كيس الكورتِ إنجليس. لم يؤثر فى الحارس أننى مُحاضر.. فتجاهل ذلك الجزء من المعلومة وسألنى عن الأوراق:

- "أية أوراق؟". قلت.

- "أوراق البقايا البشرية.. ففى المقابر اعطوك وثيقة".

t.me/qurssan

تذكرت أنهم أعطونى وثيقة.. بالفعل.. لكن لم يخطر ببالى أنها ضرورية.

- " وهو كذلك". قال.."أخشى أنه يجب علينا أن نأخذ منك البيانات ونحجز البقايا البشرية حتى تُثبت مصدرها".

ظل رماد والديَّ فى قسم شرطة المطار.. حيث قبل أن يتركونى أذهب تحققوا أننى لم أكن مصاباً بمرض نفسى فى التفتيش والضبط. وبالطبع.. أرجأت الرحلة إلى فالنسيا وعدت إلى البيت شاحباً، قلت إننى شعرت بسوء فى المطار ودخلت السرير.. حيث مكثت ثلاثة أيام بلياليها، وفى اليوم الثالث جدد حياتى مكالمة من قسم الشرطة.. كانوا يريدون فيها أن يعرفوا متى أذهب لأخذ تلك البقايا البشرية فقد بحثت عن أوراق الرماد وعثرت عليهم بأعجوبة بين صفحات كراسة كنت أكتب فيها مدونات لقصة.. ربما رواية قصيرة.. لم أكتبها.. كانت تحكى حكاية كتاب وُلِد دون كلام.. كتاب أبكم. وإذا فكرنا أنه كان مفكرة نحو فيسكون الأمر خطيراً. كانا والدا هذا الكتاب - نحو مذكر ونحو مؤنث.. منطقياً- لهما وضعهما فى العالم الأكاديمى.. لذلك لم يكن من الممكن قبولهما بكل هذه الصفحات البيضاء. سوف يتكون البناء الرئيسى للقصة من تجول والدىّ النحو الأبكم لاستشارة أفضل أطباء العصر، الذين لم يتفقوا على رأى.. إذ ان حُكم البعض كان أنه مشكلة جسدية، والآخرون نوع نفسى. وقد اقترح بعضهم حلولاً

t.me/qurssan

مراحية للتأثير السريع، وآخرون علاجات عقاقيرية طويلة المدى للغاية. كنت أتطلع من ذلك المشروع كتابة واعد لغة متعاقبة.. من أجل الأطفال (من أجلى).. واعد لغة يُشرح فيها فكرة عامة عن الاسم والصفة والفعل والظرف بطريقة مختلفة عما تفعله علوم النحو والصرف التقليدية. حسناً.. توجد بين صفحات ذلك المشروع - لأحد الأسباب الغامضة- وثيقة البقايا البشرية لوالديّ.. والتى استرجعتها فى نفس ذلك اليوم وعدت لحفظها فى الدولاب الموجود خلف الطاولة التى أكتب عليها هذه السطور.. وبقيت هناك.

تذكرت فيتامينات بشدة فى أربعاء الرماد.. موته احدث تشويهاً.. كنت أمشى دون أن أُدمى.. دون ألم ظاهر.. كذبابة أو عنكبوت اقتلعت منها رجلاً. لكن أية نظرة متفحصة كانت تدرك أنه ينقصنى شىء. وضعونى فى تلك السنة فى المدرسة فى الصفوف الأخيرة.. بجانب أحد النوافذ التى تطل على الساحة. كان أمامى صبى له نتوء غريب فى قفاه.. أعتقد أنه كان يُدعى خيسوس. ذات يوم.. حكى لى أنهم أزالوا قطعة جلد من الفخذ من أجل وضعها له داخل الأذن.. بديلاً لطبلة الأذن المتأذية، ولأننا كنا نرتدى بنطلونات قصيرة.. رفع حرف البنطلون قليلاً ليُرينى المنطقة التى أخذوا منها الجلد. يُعتبر.. بالفعل.. مستطيلاً من اللحم أكثر سهولة فى الانجراح من الطبيعى، أكثر توردا.

كنت خلال الفصول أنظر من النافذة وأضيع فى الأحلام. وبينما يتحدث الأستاذ، كنت أتخيل حكايات

t.me/qurssan

أضيف لها كل يوم عناصر جديدة، اعتنيت بهم وكأنهم قطعة مصنوعة يدوياً. كنت أعمل فيهم بحرص كحرص النجار على أن يُراجع على حواف الأثاث أو الكهربائى عند تغيير دائرة كهربائية. تخيُل الحكايات تحول إلى مرض.. لم أكن أقوم بشىء آخر.. عامةً. كنت أحضّر ثلاث أو أربع حبكات أقوم بالتغيير فيهم بالتناوب من أجل إنجازها أو إتمامها. كنت أعيش داخل كل واحدة من هذه الحبكات والتى فى أوقات كانت تُضفر لعمل حكاية لها أبعاد أكبر. كنت أبدو أننى فى الفصل، فى البيت، فى الشارع.. لكنى دائماً أكون فى بُعد مختلف، أصقل أسطورة بالإصرار الذى يبنى به النمل الأبيض أنفاقه فى الخشب. كنت أتحرك فى تلك الأنفاق بالخفة التى يتجول بها حيوان الخلد(*) فى متاهة الدهاليز المحفورة تحت الأرض. دون أن أتخلى عن الانتباه لما يحدث على السطح.. إذ أننى أكثر من مرة تُخرجنى من أحلامى صرخة أستاذى العنيفة. المقارنة بين النمل الأبيض والخلد مناسبة لأننى كنت أفتح فى واقع الأمر ثقوباً فى سطح الحياة أتسلل منها لأعيش فى الداخل.كنت أعيش فى قرية النمل مع ساكن وحيد.. أنا.. بطل الحكايات التى التجأ إليها. لكن بُنيت الدهاليز التى تحت الأرض أيضاً للهروب من أحد الأماكن.. كنت أهرب ـ خلالها ـ من الحى، من العائلة، من تلك الحياة التى - دون أن أعرف حيوات أخرى- لم تكن تستحق الألم.

(*) هو حيوان قارض، متكيف كلياً للعيش في أنفاق تحت سطح التربة لا يغادرها إلا في فترات محددة في حياته. (المترجمة).

t.me/qurssan

..الطبع رسبت فى كل المواد الدراسية.. بما فيهم الرياضة البدنية. لم أستطع أن أذاكر.. فلم أكن قادراً على الانتباه فى الفصل ولا الانتظام فى البيت. كان فى الكتب المدرسية ..أو فىّ أنا.. جزءاً من العتمة التى جعلتنا متنافرين. أقولها بكلمات حقيقية.. كان بيننا مشكلة فى التواصل، برغم أننى كنت أقضى وقتاً كثيراً أمامها.. لكن بعد خمس دقائق من فتحها كنت أهرب من خلال العين السحرية المتخيّلة والتى كانت توصل إلى البدروم.. حيث كانت محفورة دهاليز قصصية جديدة، نطاقات جدلية جديدة أتقدم من خلالها بلا تبصر.. كحيوان بدون أعين. غالباً كنت أختلق حكايات فى نفس الوقت الذى كنت أرسم فيه وجوهاً بطريقة ميكانيكية فى هامش صفحات الكتب المدرسية. وجوهاً جانبية، وجوهاً من الأمام.. بلحية أو بدونها، بشارب أو بدونه.. دائماً بعيون مفتوحة وأفواه مواربة، بحواجب مقطوبة قليلاً وشعر مُسرح إلى الخلف. دائماً رجال. فى كل صفحة كان يوجد خمسة عشر أو عشرون وجهًا، رسمت آلافًا منها ضاعت مع كتب المدرسة. أين سيكونون الآن. أنا رسام سيئ للغاية.. لكن لدى مجموعة من الوجوه الرائعة (كلهم أتوا من تلك الفترة) التى لاأزال قادراً على استنساخها. لا أعرف لماذا كنت أفعل ذلك.. لم أجد له سببًا مطلقًا.

كان النهار قصيراً فى الشتاء.. عندما كنت أرجع إلى البيت فى المساء يكون الليل قد حل. كانت المدرسة على بُعد ٢٠ دقيقة من المنزل إذا كنت أرجع عن طريق

t.me/qurssan

أطراف الحى.. عن طريق الخلاء، وعلى بُعد ١٥ دقيقة إذا رجعت من وسط الحى.. عن طريق مجموعة من الشوارع الصغيرة والمعذبة.. كالقنوات الهضمية. كان الخلاء فى الليل يبعث على الخوف.. فكنت أختار الخيار الثانى. وغالباً كنت أعود وحدى.. حتى أستمر فى تخيل حكايات فى الطريق. أحياناً.. دون أن أنتبه.. كنت أتكلم وأنا وحدى. كنت أذهب بشنطة يد قديمة جداً..تخص أحد إخوتى، وألبس الثياب التى اصبحت صغيرة على الكبار. كنت طفل المستعمل بكل المعانى. إذا أغمضت عينى أستطيع أن أرى داخل رأسى شارعًا مضيئاً بأعمدة إنارة بالجاز. كان الشارع داخلى.. لكننى كنت أنا أيضاً داخل الشارع، وكلا الأمرين من المحتمل أن يكونا مقترنين. تستنسخ السينما مرة أخرى الجو المعنوى لأعمدة الإنارة بالجاز.. ضوؤها - بشكل متناقض ظاهرياً - مولد هائل للعتمة. يتحول ظلك تحت هذه الفوانيس إلى ظل هايّد.. برغم أننا وقتها لم نكن نعرف من هو هايّد. شتاء كامل أرتدى فيه فانلة داخلية بأكمام طويلة، قميصاً، صدرية من الصوف، وكوفية، وفوق كل هذا - محاولاً جعله وحدة متجانسة- يُلبسونى سترة أحد إخوتى الكبار.. التى يكون بها القليل من التصليحات لتناسب جسمى. كانت سترة لها ثلاثة أزرار.. ولا زر فيهم كان يشبه الآخر.. إذ أنهم كانوا يُستبدلوا عندما يسقطوا بأول زر يوجد فى سلة الخياطة. كان من الأفضل أن تُثلج وتمتلئ الأرصفة بالثلج المتسخ، أو تُمطر فيلمع رصيف الشارع غير المنتظم تحت ضوء الجاز.

t.me/qurssan

ذات يوم.. كنت عائداً من المدرسة.. وجدت منطقة عمل مُسورة بسياج حديدى. كان العمال - قبل أن يذهبوا- يعلقون فانوس الكريبد ليُنبه المارة لأى خطر. لم يكن يوجد أحد غيرى فى الشارع فى تلك اللحظة.. فأخذت حجرة وقذفتها على لمبة الكريبد التى سقطت على الأرض منكسرة مُحدثةً جلبة منقطعة النظير. فى تلك اللحظة.. تجسد أمامى رجل سألنى لماذا فعلت ما فعلته.. ظللت أنظر له دون أن أجيب. بقينا ننظر أنا والرجل لبعضنا خلال لحظات كثيرة مريعة دون أن نقول شيئاً. فى النهاية.. قام بعمل إشارة لوم واختفى.

لماذا فعلت ذلك؟ ربما لأن والدىّ كانا يقضيان الحياة فى نزاع دائم. ربما لأننى كنت الأخير فى الفصل، ربما لأننا كنا فقراء كالفئران، ربما لأننا كنا دائماً نتعشى السلق، ربما لأنه لم يكن لدى قفازات لأتجنب برد الأصابع، ربما لأننى - خلال تلك السنوات - لم أرتد مطلقاً قميصاً وبنطلوناً وسترة جديدة.. ولا حتى - أعتقد - حذاء، ربما لأن الله لم يظهر لى. كنت أستطيع أن أملأ صفحات «بربما» فى الوقت الراهن.. اقضى كل صباح فى منتزه قريب من بيتى.. عند دخولى المنتزه.. توجد مظلة أتوبيس والتى تكون أيام الإثنين.. على الدوام.. مكسورة.. يكسرها الشباب الذين يريدون أن يتسلوا خلال نهاية الأسبوع. هو آخر عمل يقومون به قبل أن يذهبوا إلى السرير. لماذا يفعلونه؟ ماذا خربوا قبل تخريب المظلة؟ ماذا كنت أكسر قبل كسرى لفانوس الكريبد؟.

t.me/qurssan

عندما وصلت إلى البيت.. كانت تُخيفنى أصوات الأرجل.. فإذا كان الرجل فاجأنى وحملنى إلى قسم الشرطة.. كنت سأنتهى إلى السجن.. الذى كان - من جانب آخر- قدرى. سميت ذلك الشخص «السيّد ربما» لأسباب واضحة - وضعت على «a» نبرة لأن جَرّس الكلمة أفضل وهى منبور مقطعها قبل الأخير من وجود نبرة على الأخير(*). ربما. خلال بعض التمارين الروحية فى تلك الفترة.. قال لنا القسيس إن الله يظهر خاصةً فى الأمور التى تبدو صغيرة فى الحياة اليومية. عند سماع ذلك شعرت بالقشعريرة.. أدركت أن «السيد ربما» كان الله. كان هو أو لم يكن.. موقفه الغريب غيّر حياتى. لم أعد لارتكاب فعل غير متحضر.. ليس خوفاً من أن يظهر لى .. لكن خوفاً من أن أُخيب أمله. فالمعلم الجيد (وأيضاً الأب الجيد) يجب عليه أن يكون قادراً على التدخل بهذا الشكل غير المؤلم.. لكنه شكل مؤثر، مناسب ودقيق لهذا الحد. لم ينقطع «ربما» أبداً عن الظهور لى.. ومازال حتى اليوم.. عندما أكون على وشك القيام بشىء لايجب علىّ القيام به.. يظهر فى عقلى متسائلاً لماذا. منذ سنوات بدأت كتابة رواية حولت فيها هذا الشخص إلى نوع من الأبطال السوبر والتى كانت تظهر للشباب فى لحظات حاسمة من حياتهم، لكنى تركتها من منتصفها.. من ناحية لأنها أعطتنى انطباعًا

(*) السيد ربما او .. el señor Tálvez أصل talvez فى اللغة الإسبانية ان حرف الـ a لا يوضع عليه اية نبرة، لكن الكاتب وضعها هنا لجعل جَرّس الكلمة افضل فقط. (المترجمة).

t.me/qurssan

أننى أُنقص من قيمته عند تقديمه بهذه الطريقة، ومن ناحية - أظن- لأنه انزعج منى لأننى أشركته فيها. كان «ربما» يرتدى قبعة بإطار، بالطو رماديًا، قميصاً ابيض وربطة عنق سوداء.

كنا فى البيت نجتمع كلنا - حتى ساعة دخولى السرير- فى الصالون.. حيث إن باقى الغرف كانت باردة، وكنا نفتح الكتب على طاولة كبيرة لنتظاهر أننا كنا نذاكر. كانت أمى تخيّط واضعة الراديو بطريقة غير مناسبة حتى تسمعه وتمنعنا نحن منه. كان الصالون فى الدور العلوى أو فى الأسفل.. على السواء.. حسب الفترة.. حيث إننى قلت إن الغرف كانت تتبدل وظيفتها بشكل متكرر بعض الشىء للبحث عن نظام عملى أو معنوى لم نحصل عليه مطلقاً. كنت أترك أحياناً الحجرة.. وكأننى ذاهب إلى الحمام وأدخل إحدى الغرف التى كانت تؤدى إلى الساحة والتى كنت منها - عن طريق نافذتها.. فى الظلام - أستطيع مراقبة والدى فى الورشة المضاءة بنور ضارب للصفرة. كان هناك وحده.. يعمل فى دائرته الكهربائية بنفس المثابرة التى أعمل بها فى حكاياتى. كان يوحى بأنه شيوعى أو عميل للإنتربول.. لايمكن أن يكون من الإنتربول لأنه يبدو أمراً لا يصدق أن يكون هناك عميلان فى نفس الشارع، وليس شيوعياً أيضاً.. كان هذا واضحاً. إذا كان لأبى حياتان.. فكان يقوم بها بالطريقة التى أعيشها فى حكاياتى. فى كل الحالات.. عند مراقبتى له من النافذة.. بينما كنت

t.me/qurssan

أسمع مناقشات أمى أو إخوتى تعلو فوق صوت الراديو.. كنت أدرك أننى لم أكن واحداً منهم.

لم أكن واحداً منهم. بدأت إذن فى التقرب لوالد فيتامينات، الذى كان يعيش فى عالمنا دون أن ينتمى له..

كالمتسلل. كان والد فيتامينات يُدعى ماتيو.. بدون شك كان اسم حرب حتى لا ينتبه أحد.. إذ أنه كان اسمًا عاديًا بطريقة زائدة عن الحد بالنسبة لجاسوس. عندما أرسلتنى أمى إلى «بيت ماتيو» لشراء هذا أو ذاك..

كنت متلكئاً فى المحل.. تاركاً الجميع يسبقوننى فى الصف.. على أمل أن أبقى أنا وهو وحدنا فى لحظة ما. كنت أريد أن أقول له إننى أعرف بانتمائه للإنتربول، لكن لايقلق لأن فمى مغلق.. سوف أطلب منه أيضاً أن يسمح لى بالعمل معه فى جمع المعلومات بدلاً عن ابنه. كان يجب علىّ أن أعدّ كلاماً مختصراً جداً.. تقريباً مقتضباً.. من أجل قوله قبل أن تدخل أية سيدة المحل أو الأسوأ.. طفل آخر برسالة. مرت بى ثلاثة أو أربعة فرص، لكن جاءت اللحظة التى فيها جف حلقى، تجمدت عضلات صدرى، بقيت شاحباً وكنت بالكاد أتلعثم - أمام استغراب صاحب المحل- فى طلب ما تريده أمى.

حينئذ أعدت ورقة أصف فيها - مقلداً لغة فيتامينات البسيطة والمحددة- تحركات الناس فى الحى. دخل فلان فى أيام الثلاثاء والجمعة فى الساعة السابعة والنصف فى رقم خمسة وسبعين فى

t.me/qurssan

الشارع وخرج بلفة تحت ذراعه. علمنى فيتامينات أنه من المهم فى هذا النوع من المعلومات ألا يكون هناك تأمل، تعبير عن الرأى، تفسير، فهذا يُترك للخبراء.. فعميل المعلومات الجيد يحكى التصرفات الموضوعية فقط، الأفعال، فلم يكن مسموحاً لى أن أخاطر بقول إذا كان موجوداً فى تلك اللفة ساندويتش أو قنبلة.. فى النهاية سوف يتقصى من حقيقته الخبراء المبعوثين إلى الحى. فى الوجه الثانى من الورقة أسجل أرقام السيارات التى كانت تمر من الشارع خلال الوقت الذى كنت أخصصه للمراقبة. كان هذا مبادرة منى، فلم يكن يخطر ببال فيتامينات أو لم يكن والده يطلبها منه. عملت عدة مسودات فى ورق ذى مربعات انتزعتها من كراسة الحساب. وأنقل الكتابة النهائية بطريقة نظيفة على ورقة أخذها من مكتب أبى. لم أقدم فى المدرسة عملاً دقيقاً، منظماً لهذا الحد، بخط مضبوط صحيح. ضاعفت الورقة مرات عديدة، وحفظتها فى جيب البنطلون فى انتظار فرصة.

فى ذلك العصر كان ينقطع النور بشكل متكرر.. فى جميع غرف المنزل تقريباً كانت توجد شمعة، تستوى على مادتها فى طبق الفاكهة أو داخل فنجان القهوة. كان يوجد فى دكان ماتيو العديد من الشموع الموضوعة وفقاً لاستراتيجية لإضاءة المكان عندما ينقطع النور. كانت - على عكس الشموع الموجودة فى المنازل الخاصة - عريضة وعالية.. كشموع الكنيسة. كانت توجد واحدة فى كل طرف من أطراف طاولة

t.me/qurssan

المحل وأربعة أو خمسة موزعين على رفوف الخزانة.
ذات يوم.. كنت موجوداً بالمحل عندما أتى النور..
كانت توجد سيدة داخل الدكان بالإضافة لوجودى أنا وماتيو.. وقد انقطع النور وهو يقوم على خدمتها. بعد لحظات من الانتظار (أحياناً كان الانقطاع يستغرق طرفة عين) سمعت خربشة وظهر عود ثقاب مضاء بين أصابع عميل الإنتربول. والذى أشعل به الشمعتين اللتين كانتا على طرف الطاولة قبل أن يعود لخدمة السيدة، وهو يعلق على تكرار انقطاع الكهرباء. تحول الدكان إلى مخزن ظلال بالكاد يُحدث فيها لهب الشموع زوجاً من الشقوق المضيئة. وفى ضوء هذين الشقين انتبهت إلى وجه صاحب المحل وقدرت براعته التى كان يقص بها الجانب الأيمن من شاربه بطريقة يبدو فيها باسماً على الدوام. كان بدون شك وجهًا لشخص خلاب يتناقض مع غطائه الرمادى الذى يُكون قناعه التنكرى. شعرت ناحيته.. فى تلك اللحظة.. بإعجاب دون حدود.

عندما انتهى من البيع للسيدة وظللنا وحدنا.. طلبت منه ربع بقسماط بالعجينة النطائرية.. الذى وصتنى به أمى.. وبينما كان يعده.. أخرجت من جيبى المعلومات ومررتها له وأنا مصاب بنوبة ذعر.. واثقاً من أن الظلام الغالب يعوقه لإدراك التأثيرات المفجعة التى يثيرها الخوف والخجل فى جسدى. اعتقد ماتيو أنها عبارة عن قائمة من السلع التى تريدها أمى.. والذى لم يكن أمراً غريباً.. ففتح الورقة واقترب من ضوء الشموع - حيث اكتسب وجهه وصلعته بريقاً

t.me/qurssan

بطانياً- وبدأ يقرأ بصوت منخفض. فى الوقت الذى كان يقرأ فيه، كنت أدارى أو أحاول أن أدارى دهشتى لأنه تأخر كثيراً فى قراءة الورقة كلها (بالنسبة لى.. كان دهراً).. كما لو كان يحاول تأخير الإجابة عن ذلك الفعل الذى عرّض عمله كجاسوس للخطر. فى نهاية الأمر.. دون أن ينظر إلىّ.. طوى الورقة عدة أجزاء - كما لو كنت أضنيته بها- وفتح درج الخزانة الضخمة وحفظها فيه فبدا لى تصرفاً سرياً..

- "شىء آخر؟". سألنى بجدية مرعبة من أعماق الظلام.

- "لا". جاوبت وأنا على وشك البكاء أو الركوع. فكرت فى أننى لم يكن لدى الحق فى الاشتراك فى ذلك السر.. لذلك ربما أصبح الإنتربول مُلزماً بقتلى..

- "هذا جيد". قال.

التفت لكن وأنا على وشك الخروج نادانى..

- "لم تدفع لى البقسماط".

أخرجت ببطء العملات التى أعطتها لى أمى وناولتها له. وعندما بدأت فى الهروب عاد وأوقفنى:

- "انتظر". قال.

حينئذٍ أخرج عشرة سنتات من الخزانة وأخذ من خلف الطاولة حلوى ملفوفة فى ورقة سلوفان.

- "الآن تستطيع أن تذهب".. وأضاف.." وشكراً على المعلومات".

t.me/qurssan

بلغت الشارع فى حالة مؤسفة آفقت منها خلال ثوان بفضل نوبة نشاط لم أشعر بها - أعتقد- أبداً، ولا حتى عندما حصلت على أول جائزة أدبية، ولا عندما وقّعوا معى أول ترجمة لواحدة من رواياتى... . لم أستمتع بتسرب الأدرنالين (أو تلك المادة المخدرة) التى تحررت داخلى. لم يؤثر انقطاع النور على الفوانيس التى كانت تعمل بالجاز.. لكن ظلت نوافذ البيوت مظلمة، صامتة، أو بها بريق الشموع الخفيف من الناحية الأخرى من الزجاج الذى كان يمنح الشارع لوناً شديد الواقعية، مشابهًا للون الذى كنت أراه من بدروم ماتيو. وسط ذلك الجو الشتوى (كم كان يعجبنى لسنوات بعدها ذلك الفيلم «الجاسوس الذى يظهر من البرد» المأخوذ من رواية لم تكن أقل جودة للوكارّ)، سرت وأنا فى النهاية عميلاً للإنتربول.

عند الوصول إلى البيت.. بعد أن تركت البقسماط فى المطبخ.. أخذت شمعة.. أشعلتها.. وأغلقت علىّ باب الحمام لأتأكد من أن العشرة سنتات التى أعطاها لى ماتيو كانت حقيقةً عشرة سنتات.. وقد كانت. كان من الممكن أن يعيش المرء من التجسس.. كانوا يدفعون من أجل هذا. هل كان يعطى الفاشلون وقتها أكثر من ملاحظات سيئة؟. لن أعود لأسأل نفسى ماذا سأكون لأننى أصبحت بالفعل: كنت جاسوساً للإنتربول وُجد.. بصفته الخفية.. فى عالم لم يكن ينتمى إليه.

كانت الحلوى عبارة عن رقائق من التين.. حلوى لها شكل المستطيل بها جزء من هذه الفاكهة بين

t.me/qurssan

بسكوتتين رقيقتين، كانت تُكلف ريالان (خمسون سنتاً)، لكن أحياناً كانت تحمل داخلها هدية.. عملة لها ثقب فى الوسط تساوى قيمتها ثمن الحلوى. أعتقد أن تلك العملات كان لها بعد اختفائها قيمة نقدية معينة. حسناً.. لاشىء أكثر من فك رقائق التين وقضمها.. اصطدمت أسنانى بشىء صلب والذى كان .. بالفعل.. الجائزة.. الريالان.. المحميان بورقة سلوفان. قلت.. بالطبع أعطانى ماتيو هذه الحلوى وهو يعرف أن بها جائزة. عندما حدثت واقعة بيسيتة امى.. على الشاطىء.. لم أنتبه أنها كانت هى من وضعتها. الآن.. على العكس.. نسبت الذى حدث.. والذى دون شك لم يكن مصادفة.. إلى تعمد الجاسوس. كل شىء بالعكس.

أثناء هذا.. جاء النور.. لكن لم يختفى معه السحر. خرجت من الحمام وانضممت إلى الحياة العائلية متظاهراً أننى واحد منهم، مع أن أمى.. التى كانت عرافة.. سألتنى إذا كان قد حدث لى شىء.

ابتداءً من ذلك اليوم.. كنت أناول ماتيو.. بشكل أسبوعى دورى.. تقرير محكم بالتفاصيل والذى كان يخفيه فى مكان سرى من الخزانة وبدلاً منه يناولنى عشرة سنتات. لم يعد يعطى لى رقائق التين.. حيث خيب أملى من جانب، ومن جانب آخر أعجبنى.. فلا يمكن أن أكون عميلاً للإنتربول وصبياً أشتهى تلك الحلوى فى الوقت نفسه. اقتصرت علاقتنا كجاسوسين على تبادل التقارير والنقود. لم نتبادل الكلمات مطلقاً حول نشاطنا الخفى. الحوائط

t.me/qurssan

تسمع.. مَثَل كان يستخدمه بكثرة آباؤنا فى ذلك العصر. وكانت الحوائط.. بالفعل.. تسمع.. فوفقاً لما جمعته من صور مطبوعة عن الإف بى آى والإنتربول.. كان العالم (حينها) مزروعاً بميكروفونات خفية.

لكن ماتيو كان لديه شىء آخر أثار اهتمامى: ابنته ماريا خوسيه.. ذلك الطيّف الذى كان يعبر الشارع دون أن ينتبه لوجوده أحد. كانت خفة حركتها، عدم ثباتها، وربما عدم أهميتها التى جعلتنى أتوهم كثيراً فكرة أنها شبح - بالنسبة لى أنا فقط.. لسبب غامض- مما جعلنى أميزها، خلافاً عن لوث التى كانت صورة الجمال الرسمى - لكنه جمال فارغ- بالنسبة للشارع، فماريا خوسيه كانت تعطى انطباعاً أن أحداً يسكنها (أحداً كان يعرف أشياءً عنى).

لكن إذا كانت ماريا خوسيه لم يكن أحد يراها. فهى لا ترانا أيضاً. كنت أعبر لناحيتنا وأنظر فقط لها فى الخفاء حتى أحفظ عن ظهر قلب وجهها، كالذى يحفظ أغنية. كان لها عينان جاحظتان يمكن أن تلاحظ فيهما - إذا أردت (أو إذا اضطررت.. كما هى حالتى بالتأكيد)- حالة من الدهشة،وربما من الفزع. فوقهما يوجد حاجبان عريضان جداً وسوداوان جداً.. فكانا يجعلان من تلك المنطقة من الوجه قاتمة تاركة انطباعاً كمن يرصد الحياة من زقاق معتم. شفتاها رقيقتان ومنحرفتان قليلاً (خاصة العليا)، كانتا توجِدان شعوراً بعدم الراحة دائماً، لكنه مقبول مع هيئتها التى كانت تنم عن خضوع مضطرب. كانت تسرح شعرها ذيل حصان (كان شائعاً بين فتيات هذا العصر) والذى كان بدلاً من أن يتحرك على قفاها..

t.me/qurssan

كشعر لوث.. كان يخرج بسخافة من قمة الرأس.. كالينبوع.. وينصب حتى مستوى الخصر تقريباً. كل هذه المواصفات الجسدية كانت تطل فى الأرض من خلال خط.. فنحافتها كانت تُظهر "أنها خُلقت لعدم رفع قلم عن ورقة". كان ذلك الخط المسمى ماريا خوسيه يدعو للدهشة.. فهى قادرة على تحمل وزن الزى الرسمى المدرسى الكثير والثخين.

فى ذلك الربيع.. عندما غيرت من زى الشتاء إلى زى الصيف.. لاحظت فى جسدها تحولاً هائلاً: كان لها صدر. ربما كان من المبالغة تسميته هذين الشيئين المثيرين اللذين يظهران تحت بلوزتها.. صدراً، لكن فى جسد رفيع لهذا الحد كانا يبدوان - إذ ما كانت بلوى المبيعية- حادثة نادرة. لم يكترث أحد لظهور صدرها.. عدا أنا.. فقد بدأت أُنهك بسببه. كان يبدو الأمر لا يُعقل أن يكونا لى (وإذا لم يكونا لى فلمن يكونا) ويظهران فى جسد مختلف، بعيداً، يصعب الوجود فيه. وقد صعّب علىّ هذا.. فى الواقع.. الاتصال معها أكثر من أبيها.. الذى كان يرقد بين يديه هدوء الكون.

وفى الفصل.. بينما كان الأستاذ يشرح لا أعرف اى أشياء بجانب السبورة.. كنت أتخيلنى أنا وماريا خوسيه وقد تزوجنا.. متحولاً بهذه الطريقة إلى ابن ماتيو (فى تلك الفترة.. كان ينادى زوج الابنة حماه بأبى أو بابا.. وهو ما كان يحولهم بطريقة مؤكدة إلى أبناء زوجاتهم: سِفاح المحارم كان دائماً يُرصد). كانوا يرحبون بى بينهم.. فى أحلامى.. ومع الوقت اشتغلت فى دكان البقالة (المستخدم كغطاء). وفى الصيف كنا

t.me/qurssan

نتظاهر أننا نذهب إلى البيت الريفى، لكننا فى الحقيقة كنا نسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأخذ دورات فى الجاسوسية. كان لنا أنا وماريا خوسيه جوازات سفر عديدة بجنسيات مختلفة، وكنا نستخدم بعضها أو أخرى وفقاً لكيفية سير الأمور أو إلى أين نتجه.. حيث إنه.. مع الوقت.. لن يكون غريباً أن يكلفوننى بإنجاز بعض الأعمال فى الناحية الأخرى من الستار الحديدى (١).

كنت أعرف تماماً مواعيدها، عاداتها، روتينها.. وذات يوم التقيت بها وكأنها صدفة، اصطدمت بها عندما خرجت من المدرسة. ولأننا نحن ـ الاثنين ـ كنا نتجه إلى المنزل، فتظاهرت أنه من الطبيعى مرافقتى لها. وهكذا.. مشيت بجوارها محاولاً جعل خطواتى مناسبة لإيقاعها وبدأت التحدث عن أى شىء. مثلها.. لا يمشى.. ينزلق، ويكون خببى(٢) بجانبها غريباً على نحو مضحك. كنت واعيًا لهذا.. وأيضاً واعيًا أن حذائى مثنى، وأن شرابى لم يكن مستقراً على ساقىّ، وأن بنطلونى القصير كان طويلاً زيادة عن اللزوم (كان فتى ظريفاً من فصلى يقول إنه من المستحيل معرفة إذا كان طويلاً فيبدو علىّ قصيرًا او قصيراً فيبدو علىّ طويلا)، وأن قميصى كان كارثة. على أى حال..

(١) هو مصطلح ظهر بعد الحرب العالمية الثانية.. يشير إلى وقوع نصف دول اوروبا تحت سيطرة الاتحاد السوفيتى وقتها سياسياً، اقتصادياً وعسكرياً، أما النصف الآخر فكان تحت السيطرة الأمريكية. (المترجمة).

(٢) الخبب.. هى مشية الحصان.. ان ينقل قادمته وينقل الرجل المخالفة لها فى وقت واحد. (المترجمة).

t.me/qurssan

المثمت - أعتقد- فى جملة غير متصلة لم تجب هى عليها. وفى مناسبتين.. جعل قُربنا ظهر يدى اليمنى يحتك بظهر يدها اليسرى التى كانت تمسك بالشنطة (كان الرصيف عريضاً جداً) مثيرة فى أطرافى سلسلة من الاضطرابات التى حاولت إخفاءها بكلمات متسرعة عن هذا وذاك. وقبل أن نصل إلى شارعنا بقليل.. توقفت ماريا خوسيه وأخرجت من شنطتها قلم رصاص وقطعة من الورق وكتبت عليها بيدها اليسرى (يدها اليسرى!): "لا أستطيع أن أتكلم.. أقوم برياضة دينية" (*).

كان عبارة عن مفر غير متوقع بالمرة بالنسبة لى، لذلك اقتصر ردى على الموافقة بقوة برأسى، معطياً إحساساً أننى أدركت أهمية الموقف وأننى التمست لها العذر، ولم يقطع حماسى استجماع أفكارها الروحية. من ناحية أخرى.. كانت ماريا خوسيه تعطى دائماً انطباعاً أنها تقوم بتمارين روحية، وهو ما لاءم كثيراً صورتها الجسدية.. بما فى ذلك طبيعتها اللامادية. صاحبتها حينئذٍ دون أن أنطق بكلمة حتى المحل، حيث قمت بعمل إيماءة بحاجبى تعنى الوداع.

كان الرب يظهر عندما تنتظره على الأقل.. كان فى صورة رجل يسألك لماذا كسرت الفانوس، فى صورة فتاة تقوم برياضتها الروحانية. كنت قد نسيته منذ أن أصبحت عميلاً للإنتربول.. كما لو كان الدين لا يشكل جزءاً من مشروعى الوجودى. ، هذا ليس

(*) رياضة دينية عند بعض المسيحيين. (المترجمة).

t.me/qurssan

معناه أننى تركت العقيدة، الطائفة والقداس (كان مستحيلاً.. فقد كان إلزامياً)، لكننى كنت أمارسهم أيضاً كغطاء لنشاطى الخفى. بهذه المناسبة.. جربت فى إحدى المرات أن أُضمن فى تقاريرى الأسبوعية التصرفات التى كان يقوم بها القساوسة فى المدرسة، لكن أشارت علىّ غريزتى ألا أفعل هذا.. وكان صواباً. وصلت إلى كتابة زوج من المسودات حول المختص بالحفاظ على الانضباط - الذى كان يعجبه أن يلتصق بالأطفال- فلم يكن يفعل شيئاً آخر طوال يوم عمله. كان يلتصق بهم فى مواعيد اليوم المقسمة من التاسعة حتى الرابعة عشرة ومن الخامسة عشرة والنصف حتى التاسعة عشرة. ولحسن الحظ.. كانت المدرسة كبيرة جداً.. بحيث إنك لا تغريه كثيراً.. فكان من الممكن أن يمر خمسة عشر أو عشرون يوماً دون أن يلتصق بك. لم أكن واحداً من المفضلين عنده.. لذلك كان بالكاد يستغلنى.

قلت إننى قد نسيت الرب.. لكنه كان يعود إلىّ مُستخدماً ماريا خوسيه كوسيلة. روحانية تلك الفتاة أشارت لى نحو اتجاه تقود له (أو تسمو معه) النوبات الأولى لهرمون التستوستيرون(*) أعتقد أننى فهمت

(*) التستوستيرون.. هو هرمون ذكرى يُفرز عن طريق الخصيتين. ويعمل على تحفيز الصفات الجنسية. وهو قادر على إفراز الإندروجين "هرمون الذكورة". وفائدة الإندروجين فى أنه ينمى الصفات الجنسية للذكر مثل خشونة الصوت وبروز اللحية كمايساعد أيضاً على تقوية العظام والعضلات. ويعد ارتفاع نسبة التستوستيرون دليلا على الصحة الجيدة للرجل. (المترجمة).

t.me/qurssan

، شكل غامض العلاقة بين تعبيرات الألم لتماثيل العذراء وتلك الاضطرابات البيولوجية التى كانت تقلب ال شىء رأساً على عقب. كانت ماريا خوسيه تنتمى الى عالم العذراوات المتألمات الذى أصبح كل شىء فيه راساً على عقب ومُحكماً فى نفس الوقت.

"لا أستطيع أن اتكلم.. أنا أقوم برياضة دينية".

احتفظت بالورقة بين صفحات البوم صور الإف بى آى والإنتربول. وكل مرة كنت أعود إليها لتذوق كل حرف، كل كلمة، كنت أستحضر ملامح ماريا خوسيه عند كتابتها. بدا لى موقف يدها اليسرى إشارة.. كان يعنى أنها كانت أيضاً توجد فى عالم لا تنتمى إليه. حاولت خلال الأسابيع التالية أن أتصرف لفترة كاعسر.. لأتوحد معها، مكتشفاً بهذه الطريقة جانبى الايسر. وبقيت متعجباً من الاهتمام القليل الذى نوليه له. والشخص الوحيد .. فى البيت.. الذى انتبه أننى كنت أستعمل الملعقة بيدى اليسرى كانت أمى.. التى كانت تراقبنى - دون أن تقول شيئاً- بقلق.. وربما بفضول. خلال أيام طفولتى البعيدة.. صيغ - دون أن أعرفها حينها- مضمون «سيدتان من براغ» رواية نشرتها فى عام ٢٠٠٢ والتى كانت تشكل آخرتكريمى لماريا خوسيه.. حيث توجد فيها شخصية متجانسة معها فى الشكل - كانت يُمنى- تتطلع إلى كتابة رواية بيدها اليسرى. ما كنت الاحقه.. فى الحقيقة.. كتابة فدسة عسراء. أحياناً يسألوننى كيف يولد مضمون رواية، ويجب علينا ان نسكت أو نكذب لأن التبرير الحقيقى يكون أمراً لا يُصدق.. فما هو تفسير أن

t.me/qurssan

مضمون سيدتين من براغ بدأ يولد حينها.. بينما لم أكن أعرف حتى أننى سوف أكون روائياً؟. من الغريب أن أحداً لم يسألنى لماذا سميت تلك الشخصية بماريا خوسيه، بينما كان واضحاً أنه ليس اسمًا من أسماء الرواية. أحياناً تتسلل أجزاء من الواقع لتترك بقعًا من الندى، كنقطة على حائط الحجرة.

عدت فى اليوم التالى لملاقاة ماريا خوسيه وأعطيتها ورقة أسألها فيها متى سوف تنتهى من رياضتها الدينية.. تركت شنطتها على الأرض.. بين رجليها.. وأخرجت من جيب جونلتها قلم حبر كتبت به فى راحة يدها اليمنى: "غداً". قمت بعمل إيماءة موافقة ورافقتها من جديد حتى بيتها فى صمت مطلق، رائع فى هذا الوقت بسبب قلم الحبر.. فكنت من الممكن أن أعد على أصابع اليد الواحدة زملائى الذين كانوا يمتلكون قلم حبر. لم يكن ماتيو جاسوس فحسب، كان غنياً أيضاً.. فإذا كان ينقصنى شىء لكى تحبنى تلك الفتاة.. كان المقوم المادى الذى أضاف عنصر صراع الطبقات لحكاية حب.

أنهت ماريا خوسيه رياضتها الدينية يوم الجمعة. أثناء نهاية الأسبوع التالى راقبت محل البقالة وما حوله.. لكنها لم تخرج أو أنا لم أرها تخرج. كان لها الخبرة - منذ الفترة التى كنت فيها على علاقة مع أخيها- على التشتت كعمود دخان أمام عينيك. لكن فى هذا الوقت لم تظهر. كان علىّ إذن الانتظار حتى يوم الإثنين، وأصادفها مرة أخرى.

t.me/qurssan

- "أنت عسراء؟". سألتها ولم أتحدث فى شىء أكثر.. إذ أنه لم يخطر ببالى شىء آخر أتحدث فيه.

- "نعم". قالت وهى تنزلق بسرعة أكثر بقليل من العادى.. مما اضطرنى إلى الإسراع فى خطوتى.

بعد ذلك شرحت لى وهى تنظر من جانب لآخر.. كما لو كنا مراقبين.. أن فى البداية فى المدرسة كانوا يلزمونها الكتابة باليد اليمنى، لكن والدها.. بعد أن استشار طبيبًا.. ذهب إلى المدرسة وقام بعمل مشكلة لكى يتركوها تعمل باليد اليسرى. كان ذلك أبًا.. فكرت وأنا متلهف على جعلى ابنه. اعترفت لها أننى حاولت عدة أيام القيام بالأعمال بيدى اليسرى (كنت أعيش بالجانب الأيسر فى الحقيقة) لكنه كان صعباً للغاية.

- "توجد ميزة كبيرة".. أضفت.." فى عمل كل شىء بذلك الجانب من الجسم".

- "إذا كنت أعسر". جاوبت هى بمنطق ساحق.. "أليس كذلك".

- "حتى ولو". صممت أنا.

كشفت وقتها جزءًا من ميزتها شارحه لى أن العالم كان يفكر «للأيمن ومن أجل الأيمن» أشارت لى.. أنه على سبيل المثال لا يمكن استعمال المقص باليد اليسرى.. لأنه لا يقطع، مفاتيح الكهرباء موضوعة فى أماكن بحيث تصل إليها اليد اليمنى قبل اليسرى، نفس الشىء مع مقابض الباب، أدوات المطبخ وسلسلة المرحاض (تلميح لم يعجبنى). شرحته لى

t.me/qurssan

بهذه الطريقة فأدركت أنها كانت تعيش حقيقةً في عالم آخر، في بُعد آخر كنت أريد أن أنتمي له أيضاً. ربما كنت أنتمي له دون أن أعرفه.. إذ أنني سألت نفسي حينها إذا لم يُجبر الشخص الأعسر منذ مهده على فعل الأشياء بيده اليمنى.. بحيث نسي حالته الحقيقية. إذا لم أكن أنتمي إلى العالم الذي وجدتني فيه - وكان ذلك واضحاً- كان يجب عليّ أن أنتمي إلى آخر.. وذلك الآخر يمكن أن يكون عالم العُسر.

- "ماهو أكثر شيء بالنسبة لك يصعُب عليك فعله باليد اليسرى؟". سألتني فجأة.

- "قفل أزرار قميصي". قلت ذلك بالرغم من أنني كنت أفكر في أزرار فتحة البنطلون، لذلك تلون وجهي.

وافقت كأنها تُعطي الإجابة الصحيحة.. التي ملأتني بالاطمئنان. لم أشعر أبداً في حياتي بهذا القدر من الاطمئنان كما شعرت به في تلك اللحظة. جعلتني أزرار قميصي أفكر في أزرار بلوزتها وتخيلتها تزررهم.. مما جعل قدمي تتعثر وأزل.

تراكم التعامل مع ماري خوسيه تراكمًا مستمرًا للاستثارة دون تفريغ، لحرارة شديدة دون ترطيب، لارتفاع دون سقوط. تعودت أن أجد نفسي معها في المساء.. حيث إنها كانت تخرج من المدرسة بعدي بنصف ساعة. عرفت منذ المساء الثالث أنني أفعل أشياء سيئة.. فمع أنها قبلت ودي (وهي طريقة لقول أنها لم تكن ترفضني بصراحة)، لكنها أيضاً لم تُسهم

t.me/qurssan

شيء فى العلاقة. وقد قالت لى الحاسة السادسة أنه يجب علىّ أن أباعد بين لقاءاتى، أخفى ظهورى، اضيف لتعاملى معها جزءاً من الاختلاف. لكن غريزة التدمير الأقوى من الحاسة السادسة دفعتنى إلى المواظبة على الخطأ. وقد تدربت عليها بدقة كبيرة بحيث استمرت الحكاية بالكاد اسبوعين (فى الحقيقة ستستمر طول الحياة، لكن بطريقة سيئة.. كما سنرى).

ذات يوم.. بينما كنا نمشى فى اتجاه شارعنا.. نويّت أن ألمس يدها اليمنى. أخذت قرار البدء بيدها اليمنى مفكراً أن لكونها عسراء تكون هى اليد الخارجية.. الأقل حساسية أو أهمية عن اليسرى.عارضت.. وكان طبيعياً.. مُؤكدة لى أن ما حاولت عمله معها ذنب مميت، وأضافت.. لتربكنى.. انها منذ آخر رياضة دينية تعلمت أن تعيش كما لو كانت ستموت فى اللحظة التالية. كانت نصيحة أعطاها لهم القسيس.. إذا كنت تعودت أن تحيا كأنك ستموت اللحظة التالية.. كانت ستتغير أفضلياتك (الآن نقولها أولويات).

- "إذا لمستنى".. أضافت.." ومت فى اللحظة التالية، سوف أذهب إلى جهنم للأبد".

عدت إلى المنزل حائراً.. محاولاً أن أتخيل ماذا كنت سأفعل فى تلك اللحظة إذا كنت قد مت فى اللحظة التالية. بالطبع.. كان آخر ما سيخطر ببالى ان أمارس العادة السرية.. التى كانت أول شيء سيأتى

t.me/qurssan

برأسى عندما لا أكون على وشك الموت فى اللحظة التالية. كان من المؤكد.. إذن.. أن الأولويات تغيرت، ولم تتغير فحسب.. بل انقلبت. عندما دخلت إلى البيت.. سمعت أمى تصرخ على أحد إخوتى، لو عرفت - فكرت- أنها سوف تموت فى اللحظة القادمة، سوف تحتضنه بدلاً من أن تنهره. عددت حتى الستين، لم يمت أحد. بالنسبة لى.. عشت أياماً عديدة متظاهراً أننى أعسر ومتظاهراً أننى سوف أموت فى اللحظة التالية.. بحيث إننى أجهدت جسدياً ونفسياً.

فى أحد تلك الأيام.. عندما ذهبت لأقابل ماريا خوسيه.. سألتنى لماذا كنت ألاحقها. أكدت لها أننى كنت سأفعل ما فعلته إذا كنت سأموت اللحظة التالية. استمررت معها فى السير فى صمت حتى عادت وقالت بحدة:

- "أنت غير جذاب بالنسبة لى".

ظللت أمشى بجانبها.. لكن كفرخ بدون رأس مستمر فى الطيران أو ميت. تلك الجملة حطمت قلبى بمعنى الكلمة، سكين صدأ لم يكن له أكثر من التأثير المخرب. استمررت فى المشى حينئذ.. بجمود حتى بيتها وبعد ذلك أكملت حتى بيتى مدركاً أنه ليس من الضرورى تصور أننى سأموت فى اللحظة التالية لأننى كنت ميتاً. دخلت إلى المنزل ميتاً، ووصلت إلى الحمام ميتاً.. لكى أخفى الموقف المأساوى عن العائلة. عندما نظرت إلى نفسى فى المرآة استبينت فى وجهى كل خواص الجثة. كان لى أنف مدبب ووجه شاحب

t.me/qurssan

كالشمع. كنت أعرف أن الأنف المدبب علامة موت لأننى سمعتها من أمى بخصوص صورة بيو الثانى عشر(*) فى الصحيفة.. قالت "أنف مدبب" و "وجه ازرق سماوى". وهكذا كنت أمام المرآة.. بأنف

مدبب ووجه أزرق سماوى. لم تكن الحياة فقدت معناها.. بل لم يكن هناك حياة.

الموت كان فى موقفى سلوى.. فكيف أتحمل وأنا حى.. ليس ذاك الرفض.. ولكن ذلك الذل. أنت لا تجذبنى. فى واحدة من آلاف المرات التى أعدت فيها الجملة.. أعدت بناء الموقف لأرى إذا كنت سأجد مخرجاً.. فكرت أن بين: "أنت غير جذاب" و"بالنسبة لى" كان يوجد وقفة صغيرة.. كالوقفة آخر الشطر التى تترك الطريق للهرب. ربما كانت تقول: "أنت غير جذاب. بالنسبة لى".. تأتى الفصلة بين جذاب وبالنسبة لتعطى معنى أننى من الممكن أن أكون جذابًا بالنسبة لآخرين.. حتى بالنسبة للعالم فى العموم. كانت المرة الأولى التى أجد فيها فائدة فعلية لعلامات ضبط الكتابة، المرة الأولى التى أجد فيها معنى للنحو. ربما عند وضع تلك الفصلة ارتكبت فعلاً تأسيسياً، ربما أصبحت كاتباً فى تلك اللحظة. ربما تكتشف الأدب فى نفس لحظة الوفاة.

حسناً.. هل أستطيع الخروج من الحمام وأندمج مع الحياة العائلية معترفاً أننى ميت (من الحب)؟ كان

(*) رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان من عام ١٩٣٩ وحتى وفاته فى عام١٩٥٨ . (المترجمة).

t.me/qurssan

واضحاً أننى لن أستطيع.. فقد كان يجب علىّ التظاهر اننى كنت لا أزال حياً، وسنرى الآن كم من الوقت سأستطيع. إذا كنت قد أخفيت لشهور أننى جاسوس، لماذا لا أخفى الآن أننى أتظاهر؟. لبعض الأمور أو لأخرى لم أكن أنتمى أبداً للعالم الذى وجدت نفسى فيه.. والآن لأنهم أحياء وأنا لا. غسلت وجهى، فتحت الباب واختلطت بالعائلة متظاهراً أننى واحد منهم. بعد ذلك بسنوات كثيرة استغللت هذا الحدث لبناء واحد من السطور الجدلية فى روايتى «عبيط، ميت، غير شرعى وغير مرئى».. التى كانت تحكى حكاية شخص توفى وهو صغير فى ساحة المدرسة، بالرغم من أنه تظاهر أنه لايزال حياً.. حتى لا يُحزن والديه. أنا أيضاً تظاهرت اننى لاأزال حياً وحتى اليوم.

مرة واحدة قُطعت علاقتى بماريا خوسيه.. فقدت الرغبة فى تقارير الإنتربول، بحيث إننى باعدت بينهما حتى أننى توقفت عنهما دون أن يُظهر ماتيو نوعاً من الاستغراب.. فقد أعطانى انطباعاً بأنه توقف عن حبى.. كابنته، لكن بعد قليل.. عندما أدركت أن كل ذلك بالتأكيد لم يكن أكثر من لعبة كان صاحب المحل يساير فيها ذكرى ابنه، مت للمرة الثانية (الآن من الخجل)، عند التفكير أنه من الممكن أن يعلق على هذا أمام ماريا خوسيه. بالطبع.. امتنعت عن إحضار مئونة البيت لأمى والتى تستلزم الذهاب إلى بيت ماتيو. هى تفهمت.. لأنها كما قلت من قبل كانت تعرف كل شىء.

t.me/qurssan

برغم كل شيء سوف تطول علاقتى مع ماريا خوسيه بطريقة غير معقولة عبر الزمن، مجتازة (يجب علىّ قول مخترقة؟) عصور مختلفة فى حياتى. عدنا نرى بعضنا فى الحى فى مناسبات نادرة.. إذ كان لايزال لها وجود شبحى وبدأت أسلك طرقًا أخرى حتى لا أمر بالقرب من محل والدها. تلاقينا من جديد فى عام ١٩٦٨ ..عندما ملت على ظهرها فى الأتوبيس الذى كان يذهب من مونكلوا إلى كلية الفلسفة والآداب نتيجة للفرملة التى فاجأتنى وأنا شارد بينما كنت أقرأ (الغثيان) لسارتر (ماذا لو لم أقرأه). التفتت وعلى وجهها الانزعاج وتلاقينا:

- "مرحبا". قلت.

- "مرحبا". قالت هى وتبدل تعبير الغضب الأول بتعبير اندهاش: "إلى أين تذهب؟".

- "إلى كلية الفلسفة".

- "منذ متى؟".

- "منذ هذه السنة.. أنا فى العام الأول".

- "آه".. أضافت.. "أنا فى الخامس".

وكان ذلك كل شيء لأنه فى هذه اللحظة استدعاها واحد أكثر جاذبية (بالنسبة لها).

كنت أدرس لبلاً لأننى كنت أعمل صباحاً فى صندوق البريد للمدخرات، لكننى كنت أحضر فى الساعة الأولى من المساء إلى الكلية لألتقى المجموعات النهارية، ولأشعر نفسى أننى جامعى حقيقى.. ابن والدى. فى الواقع.. أقمت علاقات وصداقات مع

t.me/qurssan

طلاب الفترة الصباحية (أعدائى فى الفصل) أكثر من طلاب الفترة المسائية (الأشخاص العاملين.. مثلى). رأيت مرات عديدة خلال تلك السنة الدراسية - عامةً من بعيد- ماريا خوسيه. كانت زعيمة طلابية لها صيت أكثر بين الحلقات السياسية فى الجامعة. أحياناً كنا نلتقى فى المكتبة أو فى مطعم الاتحاد الإسبانى الجامعى ..SEU حيث كنت أذهب بشكل متكرر بعد خروجى من المكتب، لكنها كانت دائماً تنظر إلى الناحية الأخرى. وإذا اضطرت إلى تبادل أربع أو خمس كلمات معى.. يجب أن تؤذينى بواحدة أو اثنتين منهما.

كانت المرة الأخيرة التى رأيتها فيها فى تلك السنة الدراسية فى الحفلة الموسيقية الشهيرة لرايّمون.. فى كلية الاقتصاد. كانت هى فى الصف الأول.. بجانب زعماء طلابيين آخرين. كنت أقف بالقرب من المَخرَج لأننى كنت أعانى من رهاب الأماكن المغلقة ولم تكن تسع القاعة لدبوس. رأيتها فى الحال، تتكلم مع الشاعر الغنائى ومع أشخاص آخرين من حلقتها قبل بدء الحفلة التى كانت تعطى الانطباع أن لها بعض المسئولية فى تنظيمها. لم تغيب عن نظرى لحظة واحدة.. كانت ترتدى تنورة إسكتلندية بمربعات حمراء وخضراء.. مغلقة من أعلى الفخذ بدبوس ذهبى كبير، وبلوزة بيضاء بتقويرة من الأعلى.. تشبه للغاية - بشكل مذهل- بلوزة الزى المدرسى. كانت تعرف كلمات كل الأغانى، فقد تابعت حركة الشفايف. كانت لاتزال نحيفة للغاية، لكن خط جسدها أصبح

t.me/qurssan

عريضاً بشكل فظ عند الأوراك. أما بالنسبة للوجه.. فلم تفقد تعبير الحيرة الذى كان منذ الطفولة. كانت مستمرة فى نقل انطباع أنها مسكونة بأحد ربما لم تتوافق معه.

بعد الحفلة الموسيقية خرجنا فى مظاهرة نحو مونكلوا فى وسط جادة كمبلوتنسى. سرنا بالكاد ٥٠٠ متر، عندما ظهرت أمامنا مجموعة من رجال الشرطة على أحصنة.. اقترب المتظاهرون الأكثر جرأة من الحيوانات قاذفين كرات من الفولاذ من بين خوَذهم. لم يقع أى حصان.. كتأكيد للنظرية.. لكن بعضاً من المتظاهرين داروا بشكل خطير بين أرجل الحيوانات. حطم الهجوم الوحشى جسم المظاهرة التى انقسمت لعدة مجموعات كانت تجرى.. بلا تبصر.. فى كل الاتجاهات.

هربت نحو الجانب الأيمن.. حيث وجدت ملجأ بين شجيرات كانت تنمو فى سد ترابى، كنت أستطيع وأنا فى مأمن أن أرى منه ماكان يحدث فى وسط الجادة. كنت مشلولاً بسبب إمكانية القبض علىّ.. لأن هذا سيعنى طرد الفورى من الصندوق البريدى للمدخرات الذى كنت أعتمد على مرتبه كلياً. بينما كنت ألهث وأنا مختبئ بين فروع أحد الشجيرات، سمعت أصوات وصفارات إنذار، فذهبت عند وصول سيارات الشرطة. حاولت السيطرة على ذعرى، ظللت أتقدم من شجيرة إلى شجيرة خلال ذلك السد الذى كان على إرتفاع، ومنه حتى قمة كلية الطب.. حيث توقفت لأستنشق الهواء، رأيت أحد رجال الشرطة

t.me/qurssan

يقبض على ماريا خوسيه فى وسط الجادة والذى كان يضربها فى شاحنة مع معتقلين آخرين. مكثت بعض الثوانى هناك وعدت لأراها على الفور من الجانب الآخر لأحد نوافذ العربة.. لم يكن تعبيرها هو الخوف.. بل تعبير تقدير.. كما لو أنها كانت تقيّم الموقف.

وسط هذا.. مر بجانبى مجموعة من أربعة أو خمسة متظاهرين.. والذين تبادلت معهم الانطباعات. قالوا لى أن لا يخطر ببالى الذهاب فى اتجاه مونكلوا.. حيث إنه فى هذه الساعات ستكون قد تحولت إلى مصيدة فئران.. وهكذا بلغت معهم طريق لاكورونيا وبعد تفرقنا بدأت فى الجرى بشكل غير معقول.. أنا وحدى.. نحو لابويرتا دى هييرو. جريت حتى انقطع صوت ضوضاء صفارات الإنذار وحتى ذلك الحين مضيت فى السير بدون نظام على حافة الطريق حتى قمة ميدان سباق الخيول.. حيث مكثت جالساً على حَجَر مدركاً أننى فى تلك اللحظة كنت الرجل الأكثر وحدة فى الكون. وكل لحظة.. تأتى إلى رأسى صورة ماريا خوسيه وهى مقبوض عليها من شعرها حتى الشاحنة. هل كنت أستطيع عمل شىء؟.

وجدت لاحقاً طريقة للرجوع إلى مدريد عن طريق شارع ريينا فيكتوريا.. مجتازاً منطقة الكليات.. حيث بقيت فى هدوء. وصلت الحى عند الفجر.. ولاحظت خروج ضوء من الفتحة التى تؤدى إلى بدروم دكان ماتيو.. المكان الذى كنت فى زمن آخر أرى منه الشارع. انحنيت على الرصيف لكى أطل عليه فى

t.me/qurssan

الخفاء.. رأيت والد ماريا خوسيه وعلى وجهه الفزع.. محاطاً بثلاثة أو أربعة أشخاص بمظهر واضح أنهم من رجال الشرطة. جعلوا البدروم رأساً على عقب وفتشوه شبراً شبراً. فى اليوم التالى.. تسلل إلينا أن ماريا خوسيه كانت تنتمى إلى الحزب الشيوعى وأنها كانت تختبئ فى ذلك البدروم.. مُخفية بين بضاعة محل والدها منشورات كثيرة لقلب نظام الحكم. كنت ساخراً أن ماتيو يبحث عن الشيوعية خارج البيت بينما هى داخله.

كان يجب أن تمر اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً آخر لكى اتقابل (أو لا أتقابل) مرة أخرى مع ماريا خوسيه. كان عام ١٩٧٩ ربما فى ١٩٨٠ ..حينها كنت قد نشرت روايتين.. العقل هو الظلال و «نظرة غريق» .كانوا يدعوننى لأحاديث أدبية من حين لآخر فى المعاهد الثقافية بفضل النقد الذى حظيت به الرواية الأخيرة.. كان نشاطاً يتلاءم مع عملى فى شركة إيبيريا(*) دون مشاكل.. حيث إنهم سيصرفونى من الخدمة فى عام ١٩٩٣ . فى هذا الوقت كانت الدعوة صادرة من جامعة كولومبيا.. فى نيويورك.. حيث كان يُدَرس جونثالو سوبيخانو.. والذى يُعد عالمًا بالدراسات الإسبانية ، وكان لى من الشرف أنه خصص عملاً متسعاً لهذين الكتابين.

كانت المرة الأولى التى أتلقى فيها دعوة من جامعة، والمرة الأولى التى أسافر فيها إلى نيويورك..

(*) كان الكاتب يعمل وقتها فى المكتب الصحفى لشركة طيران ايبيريا. (المترجمة).

t.me/qurssan

لذلك وصلت إلى مدينة ناطحات السحاب فى حالة من الإثارة والفزع يمكن فهمهما. عندما جلست على المنضدة التى يجب علىّ أن أثرثر من عليها (كنت أسميه ثرثرة لأخفف عنى وعن المنظمين حيث يجعلنى المؤتمر مضطربًا)، رايت امامى جمهوراً من الأساتذة والطلاب الإسبان الذين كانوا يراقبوننى بفضول. قدمنى مدرس بلحية لينينية، وقد حكى مضمون «العقل هو الظلال» من أوله لآخره. لاحقاً بعد دقائق.. عندما بدا فى سرد ما فى مضمون رواية «نظرة غريق» ميزت ماريا خوسيه من بين الحضور.. كانت تشغل مكاناً فى منتصف القاعة.. بجانب الممر. بالطبع.. مت من التأثر.. لكننى تظاهرت بأننى لاأزال حياً حتى لا أمنحها هذا المنظر (فلدى تجربة فى الحالتين: فى حالة أنها قتلتنى. وفى إخفاتى أننى ميت).

كنت أتخيل فى كثير من المرات أن ماريا خوسيه كانت تحضر واحدة من مقابلاتى العامة؛ حيث أتصور نفسى داخل إحدى هذه الخيالات التى كنت أستحضرها وأغيّرها بشكل مفصل خلال أيام واسابيع كاملة، أحياناً بلياليها. كنت مستمراً - وأنا بالغ- فى تصور حكايات بنفس مواظبتى وأنا طفل. والحكايات التى أتخيلها الآن لم تكن أقل هذياناً من حكايات ذلك الوقت. حسناً.. فالقصة كانت أننى على وشك إعطاء مؤتمر فى جامعة نيويورك (حلم) وأن من بين الجمهور كانت ماريا خوسيه (وهم). عدت لأشاهد السيدة الجالسة فى منتصف القاعة.. بجانب الممر،

t.me/qurssan

وادركت حينئذ أنها كانت تشبه ماريا خوسيه.. لكنها لم تكن هى. لكى أكون دقيقاً.. مرات كانت هى وأخرى لا. الآن.. كنت أقول لنفسى.. سأنظر إليها من جديد ولن تكون هى. لكن نعم كانت هى. حالاً.. ستكف عن كونها هى. ومن الأفضل أن تكف، لكن لبضع لحظات فقط. إذا كانت هى - كنت أفكر- سوف تبحث عن عينى كما كنت أبحث عن عينيها. برغم هذا.. كنت منتبهاً لما يقوله مُقدمى الذى بلا شك توقفت عن الاستماع له منذ وقت. فى النهاية.. ولكى أخفف من تأثرى.. قررت أنه ما هو إلا وهم متقطع.

مع أننى كنت مُلزَماً بشكل سخيف على التحدث عن العلاقة بين الروايتين المنشورتين واحتضار نظام فرانكو السياسى (موضوع الساعة فى ذلك الوقت)، لكن عند فتح فمى خرجت منى الكلمات الأولى من الحديث الذى كان يُقال آلاف المرات بشكل مُتخيل داخل ذلك الوهم الذى كانت فيه ماريا خوسيه تحضر واحدة من ندواتى العامة. حاضرت فى نهاية الأمر عن أهمية ماهو غير واقعى فى بناء ما هو واقعى.. موضحاً شرحى بقصة حدثت فى الحى.. عندما كنت صغيراً.. كان يوجد بائع حديد يذهب ابنه إلى مدرستى. وبينما كنا أصدقاء.. اعترف لى ذات يوم بسر - بعد أن جعلنى أحلف أننى لن أحكيه لأحد- أن والده كان فى الحقيقة عميلاً للإنتربول. وأنشأ دكان الحديد حينئذ كغطاء يقوم تحته بنشاطه الحقيقى.. فى حى فى ضواحى مدريد.. فى سنوات الرصاص تلك.. كان يوجد عميل للإنتربول.. والذى كان يفدينا

t.me/qurssan

من الحصبة والجرذان ومن القمل والزهرى ومن الجوع ومن التهاب النخاع... . بالطبع بِدءاً من تلك اللحظة بدأت أنظر لوالد صديقى باحترام وإعجاب بلا حدود.

مرت السنوات - وأكملت قصتى متوجهاً إلى السيدة التى كانت تشبه ماريا خوسيه والتى كانت تلتفت إلىّ بنفس اللامبالاة التى كانت تسمع بها مقدمى- وأصبحنا كبارًا دون أن أعيب أبداً فى تلك الكذبة الطفولية لصديقى:

- "لكن بعد قليل".. أضفت.. "عدنا لنتقابل ودعوته على الطعام لكى نتذكر الأيام القديمة. فى الحقيقة كنت أريد أن أسأله أياً من هذين الأبوين.. الحقيقى أو المتخيل.. كان أكثر أهمية فى تكوينه. قال لى المتخيل..

بدون تردد .. أى عميل الإنتربول. كان يتلقى منه أفضل النصائح، أفضل التوجيهات، كان هو مثله الحقيقى فى التصرفات، النموذج الذى كان يتبعه. بينما كانت له ذكريات كلها سيئة تقريباً عن الأب الحقيقى.. بائع الحديد".

لم تُظهر السيدة تعبيراً لأى مشاعر أمام حكايتى، برغم أننى كنت فى ذلك الوقت أتوجه لها وكأن لا يوجد أناس غيرها فى القاعة.. فأكدت لى فكرة أنها لم تكن هى ماريا خوسيه.

عندما انتهيت من الكلام.. اقترب بعض الأشخاص من الطاولة لتحيتى أو لأوقع لهم الكتاب.

t.me/qurssan

تقدمت بينهم خلال الممر لذلك الوهم.. وكل خطوة اخطوها كانت تتحول هى أكثر إلى ماريا خوسيه الحقيقية.. بحيث إنها عندما أصبحت أمامى كانت هى كليةً. قبّلنا بعضنا وطلبت منها أن تنتظرنى بضع لحظات.. بينما كنت أجيب الأشخاص التى كانت تقترب منى لتُحيّينى، قالت لى ألا أقلق.. وأنها سوف تحضر العشاء الذى نظمته الجامعة على شرفى.

وحسناً.. كانت تعطى فصولاً فى جامعة كولومبيا.. حيث تقوم أيضاً بإعداد دراسة حول الرواية الإسبانية فى الخمسينيات. وتابعتنى ـ قالت ... ومنذ نشر كتابى الأول دُهشت من ذلك الطفل الذى كان من شارعها والذى تحول فجأة إلى كاتب.

- "يرجع ذلك جزئياً لك". قلت لها.

- "بمعنى؟".

- "إذا رافقتينى إلى الفندق بعد ذلك.. أقول لك".

- "اتفقنا".

من هذا المنطلق.. تحول العشاء والمحادثة التى كانت من بعده إلى عذاب.. لكنه وصل إلى نهايته.. ككل شىء فى الحياة. وجدت نفسى أسير بجانب ماريا خوسيه بالبطء ذاته عندما كنت طفلاً.. كنا وقتها فقط فى ضاحية من ضواحى مدريد والآن فى وسط نيويورك. كل واحدٍ من ناحيته كان يهرب من تلك الحالة الجهنمية، من ذلك الحى القذر، من ذلك الشارع الرطب.

t.me/qurssan

كان العشاء فى مطعم يقع فى النواحى المحيطة بمتحف الفن الحديث (MOMA) وكان فندقى يوجد فى شارع ٤٢ بالقرب من الجراند سنترال.. المحطة المشهورة التى أشرت إليها فى وقت سابق. كنا فى فصل الربيع وكانت درجات الحرارة لطيفة.. لذلك قررنا أن نمشى فى الجادة الخامسة حتى قمة شارعى. كانت المحادثة والأجسام تنساب بصعوبة حتى أننى حكيت لها عن انبهارى عندما اكتشفت أنها عسراء. قلت لها إنه خلال وقت طويل - بعد ذلك الإكتشاف- أردت أن أكون أعسر.. حلم لم أتخل عنه تماماً. حكيت لها كذلك حلمى بكتابة رواية عسراء.

- "ما الرواية العسراء؟". سألت.

- "لا أعرف".. قلت: "رواية مكتوبة بالجانب الأيسر.. رواية تكون صعبة قراءتها لحدٍ ما بالجانب الأيمن

كقطع الورقة بالمقص باليد اليسرى".

ضحكت بلطف.. لكنها أكدت لى أننى بعيداً عن الوصول لذلك الهدف. كانت تقرأ رواياتى، أشارت لهم كما لو كانوا ليسوا فى مستواها كقارئة، لم تقوله بطريقة فظة.. لكن نعم بطريقة واضحة. فكما فهمت.. بدت لها الروايتان حسنتى النية لكن برجوازيتان قليلاً.. بدون طموحات جدية، بدون غريزة التغيير. تنبهت إلى أنها كانت أيضاً تتخيل فى أكثر من مناسبة لقاء كهذا اللقاء الذى كنا أبطاله والذى كانت تَعِد من أجله حديثاً مدمراً. أدركت كذلك أننى الآن أؤمن بالنقد الأدبى كما كنت فى فترات أخرى أؤمن

t.me/qurssan

بوجود الرب فى صراع الطبقات. رجعت إلى مدريد فى اليوم التالى.. ربما لن نرى بعضنا خلال اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاماً آخرين.. حيث يمكن أن نقول أربعة أشياء لطيفة عن كتبى.. وهنا يكون الصلح وبعد ذلك الشهرة، لكنها كانت تبدو متمالكة نفسها بسبب حاجة شرسة لجعلى أتأذى. جاءنى انطباع أنه عند كتابة ونشر هاتين الروايتين البرجوازيتين بعض الشىء، القليلتى الطموح الجدى... إلخ بهذا القدر من النجاح، كنت قد غيرت بشكل لا يُطاق ترتيب سجل الكُتّاب المُتخيل (كل السجلات) الذى كانت ماريا خوسيه تشغل فيه أحد المواقع الأولى حتى اقتحمت كتبى المكتبات. سألتها إذا كانت تكتب.. وألمحت بنعم، برغم أنها كانت تفعل ذلك لقارئ لم يوجد بعد، لذلك لم تستطع أو تحلم بمقابلة ناشر. وبينما كانت الحكاية تُولد لذلك القارئ الأسمى - ومن أجل التعاون على ظهورها- قررت أن تتفرغ للنقد الأدبى.

كل ذلك سبب لى حزناً بلا حدود.. منحنا القدر الفرصة لغلق جرح ونحن نحركه للوصول إلى العظم. سكت حتى لا أغذى حقدها ولا أسفى. حينئذٍ سألتنى لماذا قلت أن الأمر يرجع جزئياً لها لكونى أصبحت روائياً وذكرّتها بتلك الجملة (أنت غير جذاب بالنسبة لى).. والفصلة التى وضعتها بين «جذاب»، وبالنسبة لى حتى لا أنتحر.

- "دائماً كنت أريد أن أسألك".. أضفت.. "إذا كانت تلك الفصلة أنا الذى وضعتها أو أنت التى وضعتها.. أنا أسألك الآن".

t.me/qurssan

- "إذا كنت وضعتها أنا".. قالت.. "كنت لن تصبح كاتباً.. أنت كاتب لأنك وضعتها، لأنك أوجدت مصادر لكى تحكى لنفسك الحقيقة التى قمت بتغييرها فى الوقت ذاته الذى كنت تحكيها فيه".

بدت لى أنها هدأت قليلاً فتخليت عن صمتى السابق.. برغم اكتشافى لمناطق خاصة بالحديث محرجة نوعاً ما أو حيادية. سألتها عن والديها، قالت لى إنهما لايزالان بخير تقريباً.

- "دائماً يحلمان".. أضافت: "أن أدرس الاقتصاد لأساعدهما على النمو.. فأبى كان يُطلق لفظ النمو على أن يصبح غنياً".

- "وأنت؟".

- "أنا ماذا؟".

- "على ماذا تطلقين النمو؟".

توقفت لبرهة تراقبنى كأننى من المريخ.

- "حقيقةً لا تعرف على ماذا أطلق كلمة النمو؟".

- "ربما نعم.. لكننى أريد أن تقولى كلمات لما أعتقد".

وقلت لها دون حياء كلاماً لما كانت تُطلِق عليه النمو، والذى يُكوِن مجموعة من الطموحات لوجود كتاب مختصر للتعبيرات العسراء بلغة شبيهة لما سوف نكتشفه فى سنوات لاحقة فى كتب المساعدة الذاتية. فى هذه الحالة - على الأقل (فى غضون سنوات قليلة لميزة النمو الحاد لعلم المساعدة الذاتية) - نعم كانت تبدو متقدمة.

t.me/qurssan

اثناء ذلك.. وصلنا إلى الفندق.. توقفنا عند بابه ننظر لبعضنا، كانت تُسرح شعرها ذيل حصان طوال حياتها.. ربما كانت تربطه بنفس الشريط. أما بالنسبة للباقى.. فكانت ترتدى بنطلون جينز وسترة من نفس القماش على قميص أحمر، أما الحواجب فعريضة لحد ما وسوداء.. كانت تبدو أنها تخفى أحداً غيرها.. برغم أنها كانت ترانى بعينيها. لا تزال مسكونة.. لكنها لم تكن واعية لذلك. كان لدى تخيل أنه لايزال من الممكن حدوث شىء بيننا (أقصد.. بينى وبين من يسكنها) بحيث إننى دعوتها لتناول كأس فى بار الفندق. كانت الساعة الثانية عشرة صباحاً تقريباً، وكان البار - كما كنت أتوقع - مغلقاً. لذلك الحت لها أن تصعد لحجرتى.. استغرقت بضع ثوانى.. لكنها فى النهاية تبعتنى حتى المصعد.

كانوا قد أعطونى حجرة مزدوجة.. فجلست هى على حرف أحد الأسرة وأنا - بعد أن أخرجت المشروبات من الثلاجة وقدمتها فى كأسين- جلست على الآخر. بدا لى أن الموقف غير طبيعى مثلنا.. فكان للمرة الأولى أكثر صعوبة بالنسبة لها عنى. حينئذٍ أخرجت من شنطتها علبة من المعدن أخذت منها سيجارة حشيش وأشعلتها بطبيعية.. ناولتها لى بعد أخذ نفسين.. كانت لى علاقة معقدة مع الحشيش.. كان يُحدث فىّ تأثيراً مبالغاً فيه.. لا يكون دائماً فى نفس الاتجاه. عندما كان يلائمنى.. كنت اطير، وعندما لم يكن.. كان يثير فى نوبات من الذعر تطول طالما يستمر مفعوله (حكيت - جزئياً- علاقتى

t.me/qurssan

بهذا المخدر فى هكذا تكون الوحدة .(تناولت نَفَساً حَذِراً وآخر حازماً أكثر بقليل.. تجنبت شرب الويسكى الذى قدمته حتى لا يختلطا. كان وقعهما جيداً.. جيداً جداً حتى أننى استرخيت من توتر طوال اليوم (ولأتحدث بدقة... طوال الحياة). ارتميت إلى الخلف.. مسنداً ساعداى على المرتبة والتفت إلى ماريا خوسيه بابتسامة..

- "من أى شىء تضحك؟".

- "لا أضحك.. هذا هو التعبير الذى يرتسم على وجهى عندما تخرج منى جملة جيدة. هذه الجملة خرجت

منى جيداً. بقيت ساعات متخيلاً أننا سوف ننتهى هكذا.. فى حجرتى وحدنا".

- "تتخيل هذا لساعات؟".

- "فى الحقيقة".. أجبت.. "كنت طوال حياتى أتخيل هذا؟".

- "وما الخطوة التالية.. الجملة التالية؟".

بالطمأنينة الذى امدنى بها الحشيش استويت فى جلستى كأننى وجدت نفسى داخل حلم وقربت وجهى من وجهها.. باحثاً عن شفتيها، لكننى توقفت على بُعد سنتيمترات قبل أن أصل لهما.. دون أن أتوقف عن النظر إليها.. وفى هذه اللحظة اكتشفت أن من كان ينظر إلىّ من عينيها هو فيتامينات.. الذى كان بداخلها.

- "ماذا حدث؟". سألت.

t.me/qurssan

- "تذكرت أخاك".. قلت وأنا راجع لوضعى الأول: "كنا أصدقاء جداً. أحياناً أسأل نفسى".. اضئت كأنها فكرة قديمة برغم أنها خطرت ببالى فى تلك اللحظة: "لو كنت أبحث عنه فيك".

- "إذًا تستطيع أن تبحث عنه فى مكان آخر".. قالت بفتور وهى تمرر لى السيجارة من جديد: "لأننا بالكاد

بيننا علاقة.. وأنت بالتأكيد تعرفه أفضل منى".

كان هذا من تأثيرات الحشيش.. لكن المؤكد أنه فى الجانب الآخر من عينى ماريا خوسيه كان يوجد صديق الطفولة.. يطل منهما كأنه يطل من شرفة.. يغمز لى.. باحثاً عن مشاركتى له.. ربما يدعوننى من جديد لرؤية الشارع.. هذه المرة من رأس أخته.. الذى كان فيه أيضاً شىء من البدروم. نويت - بعد نفس اخر- الدخول فيها.. فى رأسها، بنفس الحذر الذى كنت أنزل به إلى البدروم فى زمن آخر. كانت رأس ماريا خوسيه أكثر عتمة من قبو والدها، لكنى تخيلت اننى أحمل شمعة أضىء بها خلال الممرات التى تُكوِن تفكيرها، تناقضها، مخاوفها، قناعتها بكتب المساعدة الذاتية الماركسية. وبهذه الطريقة.. خطوة بخطوة.. وصلت إلى منطقة العينين وجعلتنى أقف بجانب فيتامينات.. لرؤية ماذا يوجد فى الجانب الآخر.. وكنت أنا فى الجانب الآخر.. أتكأ على السرير المقابل.. أغازل حكايتى. كنت أرى نفسى من عينى ماريا خوسيه.. روائى شاب يوجد فى فندق فى

t.me/qurssan

شارع ٤٢ فى نيويورك.. فى مانهاتن.. فى مركز العالم كما يُقال. ربما روائى مخطئ.. نموذج كان يصيب الأمور السطحية.. لكن كان كذلك يتسرب له لُب الشىء. نموذج حسن النية، من اليساريين بالطبع، لكن من يسار ضعيف.. كأنه رفيق فى رحلة.. أداة حمقاء، مفيد فى المراحل السابقة للثورة، لكنه عند الوفاق يطلق النار فى اليوم التالى لحصوله على الحكم. نموذج.. من الممكن ممارسة الجنس معه - ولم لا- ، حتى أنه من الممكن القراءة له أثناء انتظار أن تؤدى الحالات الموضوعية عملها و يُعجِل التناقض الداخلى للنظام فى وصول التاريخ.

لكن كانت تنطفئ شهوة ممارسة الجنس عند النموذج فجأة، الأداة الحمقاء كانت تريد فقط الاستمرار فى أن تطل من عينى ماريا خوسيه.. مناولاً لها بعض اللكزات كشريك لفيتامينات. حدد إلى أين ذهبت.. يا صديقى، تقريباً إلى مقر قيادة الإنتربول الرئيسى.. الذى يجب الوصول إليه من أحد هذه الشوارع. أرى نفسى فى مركز الكون نفسه.. فى متناول يدى، شفتىَّ، وربما قضيبى.. الفتاة التى لم تناسبنى مطلقاً. حينئذٍ أدركت فجأة أن أحداً يعشق الساكن السرى للمحبوبة، وأن المحبوبة هى وسيلة النقل لموجودات أخرى هى حتى غير واعية لها. فمن يجب عليه أن يسكننى حتى أُثير رغبة ماريا خوسيه؟.

- "من يجب عليه أن يسكننى أنا".. قلت بصوت مرتفع.. "حتى أُثير رغبتك؟".

t.me/qurssan

- "ماذا تقول؟".

- "سأسألك بطريقة أخرى.. من يسكننى منذ أن تعارفنا حتى يثير رفضك هكذا؟ من تريه فىَّ لا يعجبك لهذه الدرجة؟".

استغرقت ماريا خوسيه وقتها.. وأنت على السيجارة حتى نهايتها.. ابتلعت الدخان.. واحتفظت به فى رئتيها.. نفثت باقى ما تبقى من الاشتعال واطفأت عقب السيجارة على زجاج الكومودينو (كانت المنفضة بعيدة). نظرت لى بعد ذلك طويلاً وقالت:

- "يسكنك أخى.. لايزال داخلك.. لذلك أشعر بالنفور منك.. لم أرفضك كما فعلت كل هذه السنين.. لكن إذا لم أكن أحبك لن أكون فى الغرفة فى فندقك فى الساعة الثالثة صباحاً، لن أذهب إلى الجامعة لرؤيتك، لن أقرأ رواياتك، لن أتبعك منذ ظهورك العلنى الأول، لن أقص أخبارك.. حتى الصغيرة منها.. التى أقرأها فى الملاحق الأدبية أو فى المجلات المتخصصة، لن أتآمر من أجل أن تدعوك الجامعة لإلقاء محاضرة.. المحاضرة الخراء.. بالمناسبة.. التى ألقيتها علينا".

- "إذًا أعجبتهم كثيراً". قلت وأنا باسم.

- "وماذا كنت تنتظر. اللغة الإسبانية مُستهلك نهم للمشاعر الرخيصة.. وأنت كنت رخيصاً، فعّالاً لا انكر .. لكن رخيصًا، ومتأملاً بغموض.. لذلك أعجبتهم".

t.me/qurssan

سألتها إذا كانت قد أثرت فيها بقليل أو بكثير قصة بائع الحديد واعترفت لى إنها لم تفهمها.

- "بائع الحديد".. أضفت.. "كان فى الحقيقة صاحب محل بقالة.. شخص اسمه ماتيو.. أو والدك".

- "وما العلاقة التى كانت بين أبى والإنتربول؟".

عندئذ حكيت لها أن فيتامينات.. أخاها.. كشف لى ذات يوم أن والده ينتمى للإنتربول، تحدثت معها عن التقارير التى كان يكتبها له عن الناس فى الحى. قصصت لها كيف أنه بعد موت فيتامينات قدمت نفسى لماتيو لكى يستمر العمل فى تلك المعلومات، حكيت لها كيف كنت أمرر له بشكل خفى تقريراً أسبوعياً وكيف أن والدها كان يمنحنى عشرة سنتات.. على عكس فيتامينات، وصفت لها كيف أن هذا الوهم تحطم بعد قليل من رفضها لى. وبينما كنت أطلعها على تلك الطفولة التعسة.. رأيت نفسى من عينيها وأقسمت على أن النموذج الذى كان يحكى تلك الحكايات كان ابن الثلاثين عاماً، جذاباً.. على الأقل فى ذلك اليوم المحدد وفى تلك الساعات من الفجر التى قمت فيها بعمل جرد لحياتى بدون إجادة.. قائمة لجرد الموجودات. دائماً كانت تصيبنى الدهشة من تعبير «مغلق للجرد» التى كانت تعلقها المحلات على مدخلها مرة فى العام. فى تلك الليلة التاريخية.. كنت أنا مغلق للجرد.

بعد أن أطلعتها على الأمر كله، بعد أن حكيت لها ما كنت أتخيله.. بمعنى.. أن والدها كان يغذى داخلى نفس الخيال الذى كان يغذيه فى ابنه لكى يُرجئ

t.me/qurssan

متدانه،حكيت لها سر طفولتى الكبير.. قلت لها إن الشارع كان يبدو مفرطاً فى الواقعية من البدروم الذى كان والدها يُخزن فيه البضائع - والذى خبأت فيه بعد سنوات نسخاً من «عالم عمالى» وأننى كنت أعرف لماذا كنت أبدو له كفيتامينات. وإذا كان أحد الشخصيات الرئيسة فى نظرة غريق - «روايتى الثانية- يدعى فيتامينات.. فإنه كان تكريماً لأخيك.. من شخص لم يعرف حتى ماذا كان اسمه الحقيقى. كشفت لها أيضاً أن أخاها كان يصنع أجهزة تظهر فيها عين الله، عين الله.. كنت قد نسيتها. عين الله.. وياللوضوح الذى كانت تظهر به هذه الحدقة على الجانب الآخر من الأنبوبة. حكيت لها كيف أنه فى نفس صيف وفاته كنا نحن ـ الاثنين ـ أنا وأخوها.. فى حى فى مدريد.. كان حى الأموات.. المكان الذى تذهب له الناس بعد الموت ليعيشوا موتاً مشابهاً للحياة التى يعيشها الأحياء.. ولهذا من الممكن أن نقدره، ولو لم تكونى على معرفة ولا دراية بأنهم أحياء.. قصصت لها أننى كنت ميتاً لأنها قتلتنى بتلك الجملة.. أنت غير جذاب (بالنسبة لى)، لكننى قررت أن أُخفى حتى لا يحزن والداى. اعترفت لها أن عندى مدونات لرواية تتكلم عن ذلك الموضوع.. عن نموذج مات وهو صغير فى ساحة المدرسة.. لكنه لم يقل شيئاً لأحد بسبب تعقله، مراعاةً لأحاسيس الآخرين، وحتى لا يزعج أحد.. باختصار، وكان يتظاهر أنه لايزال حياً. التظاهر بأنك حى.. قلت لها.. أمر بسيط جدا.. ليست به أية صعوبة، لعلك فى الأيام الأولى

t.me/qurssan

تخطئ فى هذا أو ذاك.. لكن الحياة هى مسألة آلية فقط.. لا تحتاجى حتى إلى موهبة خاصة للنجاح فيها. هذا النموذج فى روايتى التى أخذت عليها ملاحظات حينئذٍ والتى سوف أكتبها بعد ذلك بسنوات.. فى عام ٩٤ .. أعتقد.. أنه أصبح بالغاً - وهو متظاهراً بالحياة-، وبينما حدث موته فى وقت بعيد فى الطفولة.. فعندما أصبح كبيراً نسى أنه ميت وتصرف وكأنه حى فى الحقيقة، حتى حدث أمر - لاأزال لا أعرف ماهو- جعله يتذكر وقتها، ودخل فى أزمة قاسية كالتى دخلت فيها أنا فى تلك السنوات. ربما كنت أتخيلها. شرحت لها أننا محاطان بالأموات، وأنه يوجد أموات مثل الأحياء تقريباً حولنا.. أشخاص تنزلق - بدون إرادة- ميتة ولم تقل شيئاً بسبب كسلها. فى عشاء اليوم.. مثلاً.. ودون أن أحكى لنفسى.. كان يوجد زوجان من الأموات. فلان وعلان.. ألم تلاحظيهما أبداً؟

كنت أحكى لها ببطء شديد.. بالتأنى المفصل الذى يمدنى به الحشيش مرات، مُدخلاً طرف الأسلوب اللفظى فى كل فتحة من تلك الطفولة القذرة.. لكى لا أترك شيئاً للسلب، شيئاً للتذكر، شيئاً للإثارة. شرحت لها أن حياتى لم يكن بها هدف آخر غير الهروب من ذلك الحى (والذى بعد سنوات كثيرة.. برغم ذلك.. سوف أتعرض له)، من ذلك الشارع، من تلك العائلة. مشروع ماركسى قليلاً، بدون شك به بعض التضامن، مشروع لم يكن يتناسب مع منطقية القصة.. لكنه المشروع الذى سوف أبلغ

t.me/qurssan

نصفه.. حيث إن الرواية التى كنت أعمل فيها فى تلك اللحظة (والتى ستنشر فى عام ٨٣ باسم» الحديقة الفارغة» كانت تتعرض لموضوع الحى. لم تكن رواية محددة بالمعنى الصحيح، بل تأمل، عملية أيض(*)، دمج.

وأنا مندمج إلى هذا الحد فى الحكاية لم أنتبه إلى أن ماريا خوسيه كانت تبكى.. لا أعرف منذ متى لأنه كان بكاءً صامتاً.. لم يُحدث اضطرابات فى جسدها. كانت تبكى بالطبيعية التى تتشا بها الظواهر الطبيعية الناعمة.. كما لو أنها تمطر ولا يبدو عليها ذلك والذى يُسمى "رذاذ" لأنه يبلل بنفس مقدار المطر الحقيقى، مع أن قليلاً من الأشخاص فقط هم من يلاحظوه. هكذا كانت تبكى ماريا خوسيه.. أعتقد لأنها لم تكن تعرف فى يوم أى شىء مما حكيته الآن. كان جلياً أنها لم تكن تعلم أن والدها كان ينتمى للإنتريول وأن دكان البقالة.. بالتالى.. كان غطاءً. وكان واضحاً أنها لم تكن تعرف أيضاً أن أخاها كان يتعاون مع والدها فى مهمة الكشف عن شيوعيين فى الحى. شرحت لها كيف كانت تقارير فيتامينات (وبعد ذلك تقاريرى): بسيطة، اصطناعية، بدون آراء. "ابن الفحام.. على سبيل المثال.. توقف لعشر دقائق فى وسط الشارع، يرتدى منديلاً على فمه، بصق عليه دم وأكمل سيره". لا يجب أن تخاطر وتقول مسلول، مع

(*) مجموعة التفاعلات الكيميائية التي تحدث داخل الخلية. وهى ضرورية للتغذية والنمو وإصلاح الأنسجة التالفة وتحويل الطاقة إلى شكل يمكن الاستفادة منه. (المترجمة).

t.me/qurssan

أنك تفكر فى ذلك.. كان يجب عليك حكىّ الحقيقة الموضوعية. تلك النصوص كانت مقالات سلوكية صغيرة، ولم نكن قد قرأنا «الخاراما»(*) بعد، ولم نكن نعرف حتى بوجودها، ربما ولا حتى كتابتها. كان يجب التحقق من التواريخ. يالها من مصادفة.. قلت إن والدها كان يبحث عن شيوعيين، بينما كان يغذيهم فى الداخل.. كما لو كنتم فى حاجة إلى الكمال لأنفسكم.. فوالدك كان غير مكتمل دون الشيوعيين الذين كان يطاردهم، وأنت لن تكونى كاملة إذا لم يكونوا يُطاردونك.. أعنى.. ففضلاً عن العمل التاريخى الذى قامت به شيوعيتك.. فهى أيضاً كان لها بُعد فى النظام الشخصى.. فكل شىء فى الحياة يبدأ لحاجة فى النظام الشخصى نجد لها بعد ذلك أسبابًا مهمة.. أولاً نفعل الأشياء ثم نبررها.. تستيقظى مبكراً لأن الجسم يتطلبه منك، لكن مع الوقت تجد نظرية حول الاستيقاظ مبكراً فتقلب الأمور.. بمعنى.. أنك تعتقد أنك تستيقظ مبكراً لكى تتبع برنامج، ديانة، عقيدة، هى ليست حالتى.. فأنا أستيقظ مبكراً لأننى أستطيع الكتابة فقط فى الساعات الأولى من الصباح.. قبل أن أفطر.. فأنا أؤمن بفوائد الإفطار، وأفضل وقت فى العام بالنسبة لى هو وقت الصوم الكبير...

(*) اسم رواية للكاتب الإسبانى سانشيث رافاييل فيرلوسيو نُشرت فى عام١٩٥٥ وفازت بجائزة نادال فى نفس العام. وهى رواية اجتماعية أصبحت علامة بارزة فى الرواية الإسبانية فى فترة ما بعد الحرب. والكاتب مستوحى الاسم من اسم نهر الخاراما الذى تجرى على ضفافه أحداث الرواية. (المترجمة).

t.me/qurssan

كانت ماريا خوسيه متكأة على السرير، لكى تبكى براحة أكثر، وظلت نائمة. لم أعرف كم من الوقت كانت نائمة، كما لم أعرف من قبل كم من الوقت كانت تبكى. حينئذٍ سكت وأنا منهك.. بالضبط قبل أن أقول لها.. يالها من مصادفة أيضاً أن أكون روائياً وهى تعمل فى النقد الأدبى. كنا .. على ما يبدو.. طرف كل شىء. وما كنت أريد التحقق منه هو ما إذا كانت عملت فى النقد الأدبى بعد أن عرفت أننى روائى أو قبله.. لكى أستنتج من بدأ فى ملاحقة من.

لكنها كانت نائمة، ولن أوقظها لأسألها عن أمرٍ كهذا. أما أنا فعلى العكس.. كنت يقظًا حتى أننى قمت وفتشت شنطتها للبحث عن سيجارة أخرى.. بحثت فى العلبة المعدنية التى أخرجت منها الأولى مثلما كنت أبحث فى وقت آخر عن الأثير فى ورشة أبى، ومثلما كنت أشم فى وقتٍ آخر البنزين الذى كان فى خزان درجاته البخارية الصغيرة. وهناك كانت توجد العلبة المعدنية الصغيرة.. التى فتحتها فوجدت فيها ثلاث أو أربع سجائر حشيش أخرى. فتاة بعيدة النظر.. مع أنها ربما لا تكون ماركسية للدرجة.. لا أعرف ماذا قال ماركس عن هذا.. عن المخدرات، عن المخدرات الخفيفة، لمزيد من الظلم. بالتأكيد كان الحشيش مخدراً برجوازياً بسيطاً.. مخدر الطبقة المتوسطة.. أريده ولا أستطيع.. مخدر بدون طموح جدى ولا غريزة فى التغيير.. مخدرات قذرة. أشعلت السيجارة، جلست على أريكة كانت موجودة فى أحد أركان الحجرة ودخنته بمفردى.. بتمهل.. نظراً

t.me/qurssan

لتأثيراته.. فلم أكن أريد أن تنتهى الليلة على وجه سيىء، برغم أن الليلة انتهت بالفعل حيث يُحس ضوء لبنى (ضوء لبنى.. ياله من تعبير) على الجانب الآخر من النافذة. نهضت لكى أراقب عن قرب هذا الضوء.. لكى أتحقق إذا كان حقيقةً لبنى أو عبارة عن شىء لا أساس له، لكن بدل ضوء الصباح اللبنى رأيت ضوءًا لبنيًا لأحد المبانى الزجاجية الإدارية الذى كان موجوداً أمام الفندق، وكانت مكاتبه مضاءه بينما كان جيش من عمال النظافة البورتوريكيين، المكسيكيين، الدومينيكانيين إلى آخره يمررون الممسحة على الأرض والشمواه على الطاولات. كان يبدو أنهم قاموا بعمل شق فى الواقع ممكن من خلاله تقدير الحياة الإنسانية كالشق الذى يقوم بعمله النمل والذى يجعلك تقدر حياته. فى الطابق الثالث.. كان مسئولاً أبيض يطارد جنسياً عاملة نظافة سوداء.. العالم.

استيقظت ماريا خوسيه فى التاسعة صباحاً.

- "ماذا تفعل؟". سألتنى عندما رأتنى جالساً على الأريكة.. وقدمى على حافة السرير وعيناى مفتوحتان على المستقبل.

- "تظهر لى رواية".. قلت.. "رواية سأكتبها فى بضع سنوات.. فلست مهيأً بعد.. وسيكون عنوانها

«أحمق، ميت، غير شرعى، وغير مرئى».

- "وكم الساعة الآن؟".

- "التاسعة".

t.me/qurssan

دخلت مسرعة إلى الحمام وخرجت بعد قليل مُصلحةً لهندامها قليلاً. سألتها إذا كانت تريد أن تفطر.. كنت قد دعوتها فى فندقى فى شارع ٤٢ فى نيويورك.. فكل شىء تدفعه جامعة كولومبيا، لكنها قالت لا، وإذا كنت أريد أن أصحبها إلى محطة (الجراند سنترال).. التى كانت هناك.. على بُعد أربعة شوارع.. لأنها تأخرت على أمرٍ ما. كانت جافة، متكدرة، فظة، كريهة، شرسة، وربما نادمة على أنها بكت، أنها نامت أو أنها استمعت إلىّ، ربما كانت نادمة على العمل فى جامعة كولومبيا.

ودّعنا بعضنا على باب المحطة، بقبلتين لكلٍ منا، ورجعت أنا إلى الفندق بتمهل، بينما كانت تمتلىء الأرصفة بالناس وبُعثت الحياة فى واجهات المحلات.عندها لاحظت أن شيئاً كان يحدث لم أعرف أن أميزه فى البداية.. شىء كالهمهمة، صوت خفيف، سرب نحل... توقفت لكى أضع كل أحاسيسى فى خدمة إدراكى الحسى.. نظرت حولى وأدركت أنه كان الشارع، أو كان العالم.. وأننى وجدت نفسى داخله، دون أن أترك نيويورك.. ما كان واضحاً.. اننى كنت فى شارعى.. فى شارع كانيياس فى حى برسبيريداد فى مدريد، أراقب من قبو والد فيتامينات الواقع.. الذى كان بالضبط هكذا. كان شارعى هو كل الشوارع. عدت إلى الفندق وكتبت ثلاث أو أربع ساعات متواصلة فى الكافيتيريا.. بينما كان الناس يمرون فى الشارع. عند منتصف النهار عدت إلى المحطة.. اتخذت مكاناً فى الدور الأعلى من المدخل

t.me/qurssan

ورأيت العالم. حينئذٍ تذكرت أن أحداً نصحنى أن أزور الأويستر بار.. مبنى تحت الأرض يوجد فى تلك المحطة حيث يقدم أفضل محار فى نيويورك. نزلت وأنا لا أزال مندهشاً. جلست فى ذلك النوع من الملاجىء الذرية على مقاعد المتعجلين.. حشد خفى كان يتناول المحار والبيرة بتفانٍ مرضى. أحضر المشهد لذاكرتى اليوم الذى اقتلعت فيه قشرة شجرة ميتة وفوجئت بمجموعة من الخنافس فى نشاط وجودى كامل. كان لدى أويستر بار شىء بيولوجى بشدة.. على الرغم من الحقائب الجلدية التى كانت بجانب أصحابها وربطات العنق. كان ذلك العالم من جديد.. الشارع.

لن أعود لأعرف أخباراً عن ماريا خوسيه حتى ثلاث أو أربع سنوات لاحقة.. فقد مات والدها وعند البحث فى متاعه وجدت كراسة الملاحظات الخاصة بفيتامينات.. والتى أرسلتها لى عن طريق دار النشر الخاصة بى.. مع جواب تبرر فيه إرسالها مؤكده أن تلك الكراسة تخصنى أنا أكثر منها.. وهو ما كان واضحاً. قالت لى أيضاً.. إنها أنهت تجربتها الأمريكية، وهى تعطى فصولاً فى الأدب الإسبانى للأجانب فى جامعة أمريكية مقرها فى مدريد. وأخيراً.. طلبت منى مساعدة للاتصال بعالم النشرالذى يستهويها أكثر من عالم التدريس.

ألقيت نظرة على كراسة فيتامينات.. بدا كلامه المنثور بديعاً. كانت مقدرته على الملاحظة فقط فى قمة عدم تحيزه. كان دقيقاً كالمشرط (الكهربائى)

t.me/qurssan

ومحايداً كمضبطة الشرطة: "ابن العطار".. كانت تقول إحدى ملاحظاته: "يسرح شعره أحياناً بفرق على اليسار وأحياناً بفرق على اليمين. وأحياناً.. يسرح شعره إلى الخلف". أما: "عندما يعود ريكاردو - بدراجته البخارية التى نوعها جوثى- من العمل فى الساعة السابعة والنصف مساءً، تنفض سيدة فى الدور الثالث سجادة صغيرة من النافذة". أما: "دائماً يمر السباك على دراجته البخارية بصحن المرحاض فى عربة دراجته الجانبية، وضع الفحام على الرصيف.. فى مواجهة دكانه.. عربة يد فيها حطب صغير".

قرأت بتأن.. بعد ذلك بسنوات كثيرة.. كانت تلك الملاحظات تشكل نسيجاً من التطابقات التى نعيشها متلاحقة وخيوطه كانت حياتنا، وكان النسيج تالفاً من أطرافه.. كراسة فيتامينات.. لكن لحم النسيج - والذى كنت أُكَوِن جزءاً منه- كان لايزال سليماً.

فى تلك اللحظة.. كنت قد نسقت مجموعة من النماذج الشُرَطية ومن المغامرات موجهة إلى جمهور المراهقين. وكان كل كتاب يتضمن خاتمة وضعت العمل المنشور فى سياق تاريخى وأدبى، مقدمة كذلك سيرة ذاتية مختصرة عن الكاتب وعرض يُسهل فهم العمل، متوجه بالطالب ناحية تفسير النص. كانت المبادرة ناجحة، لذلك كانت رغبة الأشخاص القادرين على كتابة تلك الخواتيم متزايدة. وافقت ماريا خوسيه على أن يقتصر دورها على الشكل الذى شرحته لها

t.me/qurssan

وانضمت إلى مجموعة المتعاونين، بنتائج عادية. كنت أُركز دائماً على الحافة المؤرخة لخاتمة النصوص، التى يجب علىّ وضع النبرات والفواصل لها، علامات الترقيم التى كانت تبدو لها برجوازية صغيرة، حيث كانت ترمينى بنظرة عطف عندما أطلب منها أن تهتم أكثر بهذه الجوانب. ونعم.. أظهَرَت فى المقابل قابلية خاصة للعلاقات العامة.. حيث إنها فتنت أعضاء مجلس إدارة دار النشر، وانتهت إلى أنها تركت الفصول لكى تعمل فى المجال.

خلال هذه الفترة.. وبينما كنت أظن أنها كانت تحتاجنى.. كانت لطيفة معى حتى إنها نشرت نقداً عن «حبر على ورق» وقد وصفت روايتى تلك بالممتازة. ثم بقدر ما قويّت علاقاتها مع دور النشر، عادت لوضع المسافة بيننا.. حيث وضعت نقداً هادمًا عن خبر كاذب رواية أخرى لى فى هذه الفترة التى- برغم مقالتها النقدية- كانت جيدة جداً. فى العموم.. كنت الاحظ مواقف تجاهى من الكُتاب الذين لا يكتبون. كان الزمن مستمراً - برغم مجهوداتها- دون أن يُولد القارىء القادر على فهمها، لذلك أخرت مشروعها للنشر (وربما للكتابة) إلى أجل غير مسمى.

حالياً.. برغم فشلها المتوالى كمسئولة دار نشر، تتمتع بحماية مجموعة تعيش وسطهم فى خمول فى انتظار إحالتها إلى المعاش. وأثناء ذلك.. تنشر مقالات نقدية ماركسية فى وسائل هامشية تكتسب من خلالها شهرة بسيطة كمثقفة مُضطهدة. تمتدح شيوعية رائعة، تُعادى الشذوذ الجنسى، ومدمنة لآراء متعجلة

t.me/qurssan

جداً.. فتحت بها كوة على سوق يخلو من المنافسة. هى.. من بين كل الأشخاص الذين عرفتهم.. أقل «لمرف حصل على امتيازات من كونها عسراء. لم تتزوج وليس لديها أبناء. عندما كنا نلتقى فى أى احتفال عام لم نكن نتحدث مطلقاً.. نتظاهر أننا لانعرف بعضنا. لم يغفر لى أبداً أننى ساعدتها على النجاح عندما عادت إلى مدريد، ولا أيضاً أننى اقرضتها -لاحقاً- بعض النقود التى طلبتها منى لدفع الإيجار وأعادتها لى - عندما نسيتها - عن طريق شخص ثالث.

بعد نشر «امرأتان فى براغ» بقليل.. طلبت منى وكيلتى قصة خيال علمى لإحدى المجلات الأرجنتينية التى كان قد طلبها مديرها بالحاح. قلت لها إنه لم يكن فى سجلى، لكنها بينت أنه يجب على الكُتاب، بالتحديد الذين لا يحتفظون بعلاقة مع نوع أدبى بعينه الاقتراب منه ولمرة واحدة. قبلت فى النهاية لأجاملها، وكتبت قصة عن متسلق جبال تاه فى وسط عاصفة ثلجية، وعندما وجد نفسه على وشك أن يهلك من البرد، لمح على أحد أسطح الجبل نافذة يخرج منها ضوء ضارب للصفار. وبالرغم من أنه من الممكن ان يكون وهماً فحسب.. إلا أنه صعد سطح الجبل الوعر.. الممتلئ بألواح من الجليد، حتى بلغ السراب واطل عليه، مبصراً من الجانب الآخر من الزجاج ما يشبه صالون بيت بمدخنة يشتعل فيها جذع من الحطب. رأى ايضاً سيدة تجلس على كرسى من الجلد بمساند.. تمسك كتاباً فى يدها اليمنى وكأساً

t.me/qurssan

من النبيذ فى اليسرى. ويرقد عند أقدام السيدة كلب كبير. أتت نغمات كمان من خلال النافذة التى تفصل عالم متسلق الجبال عن عالم السيدة.. صادرة مما يشبه جهازاً عالى الدقة يقع بجانب المدخنة.

خبط المتسلق - الذى كان على حافة الإغماء- على الزجاج لكى يلفت انتباه السيدة التى رفعت عينيها بدهشة. بعد قليل.. ولم تكن قد ميزت جيداً ما يحدث.. نهضت من على الكرسى، ذهبت نحو النافذة وفتحتها بدهشة مكتشفة الرجل الذى وجدته على وشك الإغماء. ساعدته.. مندفعة كرد فعل عكسى.. على الدخول إلى الصالون. وأغلقت النافذة بعده.. فقد بلغت الرياح من العنف الذى يوشك أن يغمر المسكن بالثلج.

بعدما ساعدته على التجرد من ملابسه الخاصة بالتسلق.. قدمت له طعاماً ساخناً بينما كان هو يحكى لها أنه خرج وفى رأسه فكرة تسلق القمة.. عندما فوجئ بعاصفة لم تعلن عنها تقارير الأرصاد الجوية. وبالكاد فى لحظات زاد الثلج نصف متر وكان يجب عليه البحث عن حماية فى أى صدع. بعد غروب الشمس.. هبطت درجات الحرارة، دون إعطائه الفرصة للبحث عن ملجأ لقضاء الليل. وفى هذه الأثناء.. عندما أيقن أنه وصل إلى نهايته.. اكتشف فى وسط الجبل نافذة مضاءة حيث كان قد بلغ آخر طاقته المدخرة.

كأمر منطقى.. أيقن الرجل أنه موجود داخل وهم، أنه وقع بدون شك فى صدع بينما هو يحتضر

t.me/qurssan

من البرد ليظل ثابتاً فيه كالصرصور. لكن بينما كان البيت مريحاً إلى هذا الحد، والسيدة لطيفة بهذا القدر، والكلب وديع والنار دافئة.. قرر أنه يصدق ما يحدث له. بعد كل هذا.. ما الذى لديه ليخسره؟. ادهشه مع ذلك أن السيدة لا تُظهر موقفاً غريباً.. إذ ان التصرف الأول لدهشتها يعطى انطباعاً أنها مسكونة بشىء، أنها غير طبيعية كليةً. من الممكن.

مرت ساعات.. يشك الرجل فى أنه عند اجتياز تلك النافذة، اجتاز أيضاً بُعداً من الواقع. وجد نفسه.. بالفعل.. فى عصر لم يكن عصره. يبدو البيت فى ضرب من اللا مكان.. لفت نظره أن المرأة لم تفهم إشارات جغرافية معينة ذكرها وهو يحكى لها مغامرته. يوجد فى المسكن أشياء مع أنها كانت معروفة بديهياً فى العصر الذى أتى منه الرجل.. إلا أنها كونت هنا واقعاً ملموساً. كان الشك أنه وقع فى عصر اكثر تقدماً من عصره من الناحية التكنولوجية التى تأكدت عندما دعته السيدة لقضاء الليل فى المنزل، عارضةً عليه حجرة الضيوف.. والتى كانت نافذتها - بطريقة مفاجئة- تطل على شاطىء الكاريبى. كان تغير الحجرة كافياً لتغيير المناخ والمنظر. عندما بقى الرجل بمفرده.. فتح النافذة وسمع صوت البحر.. الذى يأتى من هناك من أسفل.. بالإضافة إلى رائحة الطحالب النفاذة للغاية والرطوبة المميزة للمدار. استنتج حينها أنه سيجد داخل المسكن الشىء الافتراضى الذى يسمح بأن تطل كل غرفة من الغرف على بانوراما مختلفة.. بحسب رغبات

t.me/qurssan

المستأجر. ولأنه أُنهك من تجربته الثلجية، فقد رقد ونام ثمانى ساعات متصلة.

فى اليوم التالى.. بعد أن أنهى حمامه وانضم إلى الإفطار.. لاحظ أن وجوده أصبح غير مريح بالنسبة لصاحبة المنزل.. وهو أمر لم يشعر به فى الليلة السابقة، وبعد التحقق من الأسباب بحذر.. استنتج أن السيدة فتحت له لسبب افتراضى أكثر من المنظر الذى قدّرته من الصالون. لكن عند الانتباه لوجود احتياجات فسيولوجية حقيقية لها وأنها قامت بنفس القذارة التى يقوم بها رجل مشابه، أدركت أن وجوده نتاج خطأ، تقاطع أبعاد، تشويش تقنى لم يكن جزءاً من التصميم الأصلى للمسكن، لذلك هاتفت من قاموا ببنائه لإخبارهم بما حدث. جاء البناة، حللوا الزائر ووصلوا فى الحال إلى نتيجة.. وهى أنه - بالفعل- مخالف للقياس الذى قاموا بإصلاحه عن طريق تطهيره بسائل يجعله يختفى. كان متسلق الجبل يدعى خوان خوسيه وصاحبة البيت ماريا خوسيه.. لكن كان من الممكن أن يكون العكس. فواحد من الاثنين كان يعيش فى البُعد الخطأ.

t.me/qurssan

الجزء الرابع
الأكاديمية

بعد «أنت غير جذاب (بالنسبة لى؟)» والتوقف الإرادى عن نشاطاتى كعميل للإنتربول.. اشتدت العتمة. كانت ساحة المدرسة مظلمة، كان القساوسة مظلمين.. والزملاء، كتب المدرسة مظلمة، إخوتى مظلمين وكراسى الاعتراف والغفران، القُداسات مظلمة، كان الرب والشيطان مظلمين وساعات اليقظة والحلم مظلمة، كان البرد مظلمًا ومظلمة مشاجرات والدىّ، مظلمة أشباح كل الممرات ومظلم السلق الذى يكون كل ليلة فى الأطباق المُتكسرة المظلمة فى العشاء. كنت أنا مظلمًا.. بين الملاءات.. ومظلمة الأيادى التى أحمى بها أذنى بيأس من سماع شجارات الكبار. كانت مظلمة خيالاتى الجنسية ومظلم جنسى. كانت مظلمة أيضاً الشهور والسنين التى كانت تمر واحدة بعد الأخرى.. كجادوب الصنوبر(٥) كان المستقبل مظلماً.

(٥) هى حشرة ضارة تهاجم شجر الصنوبر. ولها شكل الدودة الممتدة الطويلة جداً. (المترجمة).

t.me/qurssan

حينئذ لبست أحذية جديدة لأول مرة ذات رقبة لونها بنى. لاً أعرف كيف وصلت إلى البيت، ولا لماذا لبستها مباشرةً فى قدمى.. لكنها كانت المرة الأولى التى أكون فيها أول شخص يستعمل الشىء. لذلك كنت فى كل لحظة من اليوم شاعراً بهما. وصلتا حتى الكاحل.. بحيث كانتا تحيطان بكل قدمى ناقلة إحساساً غريباً بالأمان لباقى جسدى. أمدتا أرجلى بخفة مفاجئة.. كأنهما يتحركان بقوة خفية. فى أحد الصور المطبوعة بالألوان فى مجموعة الإف بى آى والإنتربول كان يوجد حذاء كعبه يتزحزح جانباً مظهراً مكاناً سرياً حيث يمكنهم من إخفاء ميكروفيلم وكبسولات السيانيد(*) كانت كعوب أحذيتى لها ثخانة مشابهة لأحذية الصور، لكنها لا تتحرك. بالنسبة لى.. كان يعجبنى تخيل أنها تحوى محركاً صغيراً يقلل من قوة الجاذبية. فكيف أفسر - إذا لم يكن موجوداً هذا المحرك- الخفة التى كنت أكتسبها عندما أرتديهما؟

كانت تتوافقان مع الجسم مثل حجم القالب. كانتا يُكونان فى خيالى إمتداداً لجلدى.. بحيث إننى فى الليل .. أكثر من خلعهما.. كان يجب علىّ اقتلاعهما. بسبب الاستعمال الكثير الذى أخضعهما له.. ومن المرجح لنوعيتهما السيئة.. ظهرت سريعًا على سطحهما مجموعة من الشقوق والتى كنت أحاول تخفيفها واضعاً عليها طبقة من صابون المطبخ.. وكأنه

(*) الاسم السائد المطلق على سم الهيدروسيانيد الذي يوجد في بعض سموم الفئران وكيماويات تبخير السفن وبعض المواد المستخدمة فى تحميض الأفلام والمعامل وبنسبة ضئيلة في بذور بعض الفواكه. (المترجمة).

t.me/qurssan

هان علاجى. وبرغم عنايتى.. لم تتأخر الشقوق فى النحول لجروح مفتوحة تطل منها جواربى.. مثل الأحشاء. أحتفظ بذكرى مؤلمة لاحتضار تلك الأحذية الرائعة.

ذات يوم.. أخرجونا أنا وزميلاً لى من الفصل.. بسبب الكلام. فخرجنا من القاعة وجلسنا على الأرض.. بجانب الباب.. وظهرنا مستند على الحائط وأرجلنا ممددة.. كشريكين فى جريمة. قال لى إنه يوجد فى بيته قنبلة يدوية من الحرب والتى يحب أن يريها لى، لكن والده يمنعه من إخراجها إلى الشارع. المحت له اننى أستطيع أن أذهب لأراها. حينئذ.. نظر بطريقة كأنه ينقدنى بها- إلى حذائى ذى الرقبة.. المجروح حتى الموت، وأشار:

- "إن بيتى فاخر للغاية".

من المعتاد.. يكون العدو فى الفصل هو زميل مكتبك. بيتى فاخر للغاية.. كانت تبدو مختلفة عن أنت غير جذاب (بالنسبة لى) .لو أن أحداً قادراً على تخيل ما كان يُسمى فاخراً فى ذلك العصر وتلك الضاحية، كذلك لم يكن لدى أية مشكلة لتحمل الحالة التى وصل إليها حذائى البطولى، الذى سيموت وأنا مرتديه أثناء فعل شىء نافع، بعد أن مورس عليه شكل من أشكال القسوة العلاجية التى تتضمن عشرات من التدخلات الجراحية ونقل العديد من الأعضاء المتبقية من أحذية أخرى ميتة. منذ تلك التجربة أصبح لدى القناعة أن النعل - من بين كل حلىّ الملابس- هو الذى تعتمد عليه حياة أكثر نشاطاً. قدمت تكريماً له فى لا

t.me/qurssan

تنظر أسفل السرير.. رواية عن زواج أحذية أحتفظ لها بعاطفة خاصة.

منزلى فاخر للغاية.. أنا لم أكن واحداً منهم، أنا لم أكن من هناك، لكن من أين كنت.

حينئذٍ وقعت فى يدى نسخة من مجله «سيليكشيونيس دل ريدرز ديجست» .. منشور له طابع شعبى كان يتضمن روايات ملخصة لكى تسهل قراءتها فتحتها فى إحدى لحظات الملل. فصادفت قصة رجل عند إخلائه بيت والدته الميتة عثر على ملف مليئ بقصاصات من الجرائد مخبأ فى نوع من الدواليب بأرضية مزدوجة. جلس الرجل على حافة سرير والدته يتحقق من أنها قصاصات من جرائد منذ أربعين عاماً وأنها تشير إلى حادثة - بحسب حجم العناوين- أثارت فى وقتها صدمة اجتماعية كبيرة. كانت تتحدث عن حادثة اختطاف تمت فى وضح النهار فى شارع مركزى لطفل حديث الولادة كانت قد تركته مربيته عند باب محل داخل عربته، بينما دخلت لشراء خبز. عندما خرجت بعدها بلحظات.. كان قد اختفى. وُجِدَت العربة لاحقاً فى شارع صغير.. دون أثر للطفل.

كانت القصاصات مرتبة وفقاً للترتيب الزمنى.. بحيث تُقرأ الحكاية تقريباً كالرواية لتركيزها. كان الطفل ينتمى إلى عائلة ثرية، فكان الأبوان يستغيثان - من خلال الجرائد- بمشاعر المختطفين من أجل أن يعيدوا لهما الرضيع. مر الشهرالأول.. وبدأت الشرطة فى فقدان الثقة فى ظهوره.. حيث إنه خلال ذلك

t.me/qurssan

الوقت لم يتوجه أحد إلى العائلة مطالباً بنقود.. ومستنتج أنها إما عملية خطف لأهداف مادية، أو أن المختطفين قد فُزعوا من الصدى الذى أحدثته الواقعة.. فقتلوا الطفل. وبسبب نفوذ الوالدين والذعر الذى أثارته القضية لم يُترك فى التحقيقات طريقًا واحدًا.. لكنهم جميعاً.. واحداً بعد آخر.. كانوا يعودون إلى عطفات متتالية مسدودة. ومع مرور الوقت.. أصبح الخبر فى المرتبة الثانية، برغم أنه خلال بضع سنوات كان يتم مقابلة الوالدين فى ذكرى الاختطاف.. واللذان يُظهران اقتناعهما بأن ولدهما لايزال حياً فى مكانٍ ما.

وعندما قرأ بطل الرواية تلك القصاصات.. علم أن الطفل المخطوف كان هو، وأن الخاطفة هى المرأة التى كان يتخذها أماً له وبكى لوفاتها.

أتذكر الأحاسيس الجسدية التى كان يعانيها بطل الرواية عند اكتشاف سر حياته.. لأننى كنت أعانى منها فى الوقت نفسه الذى كان هو يعانى فيه.. كأنه عند معرفة حكايته اقترب - على وجهٍ خطير - من حكايتى. لم أنس رعشة يدى فى كل مرةٍ كنت أجتاز فيها صفحة، ولا الاضطرابات التى كان يحدثها الانفعال فى سطح جلدى وإيقاع تنفسى. تلك المجلة..التى بالمناسبة كان لها شكل الكتاب.. تحولت إلى الشىء الوحيد غير المظلم من كل ما يحيط بى. بل أكثر.. كان لها شفافية غريبة.. فبينما كنت أقرأ، كنت أرى الرجل متجسداً يجلس على حافة سرير والدته المتوفية.. يمرر قصاصة بعد أخرى من

t.me/qurssan

الصحيفة فى الوقت الذى انسحب الدم من وجهه وظل فمه جافاً. كنت أستطيع أن أراه يقرأ مقابلة تحكى فيها أمه الحقيقية كيف كانت أيامهم ساعة بساعة، دقيقة بدقيقة، لحظة بلحظة.. وهما ينتظران أن تأتى مكالمة، وهما يصليان من أجل وصول رسالة، وهما يتضرعان لظهور إشارة. صُورَت الأم الحقيقية فى عدة مناسبات.. كانت سيدة شابة، جميلة، حسنة المظهر، هادئة، مهذبة جداً فى المها. فى أحد اللحظات.. ظنت كافتراض جيد (واحد من بين كثير) أن الذى استطاع القيام بالخطف سيدة ليس لديها أولاد، فتوجهت للخاطفة طالبة منها أن تحاول تخيل معاناتها مؤكدة لها أنهما سيكونان كرماء معها إذا أعادت الرضيع. استطعت رؤية الأب.. رجل أكبر من الأم، وربما هرم بسبب اللحية التى تخفى ذقنه وبسبب معاناته فى تلك الأيام. كنت أشعر - بطريقة غريبة، عندما يحل الليل فى ذلك المنزل- بالجرح المُثار بسبب غياب الطفل والذى أحدث مزقاً كبيراً لا يُحتمل. كنت أستطيع أن أفكر فى تلك المرأة تتقلب بين الملاءات.. فريسة لليأس المأساوى، لكنه يأس نبيل، له نفس وقار الأثاث الفخم الموصوف بإسهاب فى صفحات الرواية، وصور الخزف الصينى التى كانت تُخفى أرقها. كيف كان هذا ممكناً.. برغم أنها كانت حروفًا فحسب إلا أننى رأيت صوراً بالفعل؟

لكن فى الوقت نفسه.. كنت منجذباً بسبب المسار الانفعالى لشخصية الحكاية، كنت أرى أيضاً المختطفة (الأم المزيفة) تمر من أمام المبنى الذى وجدت عند

t.me/qurssan

ابه عربة الطفل، كنت أراها تقف وتتأمل مفتونة
الطفل الذى كان فى تلك اللحظة يحرك ذراعيه على
نحو مغرٍ فى اتجاهها. كنت أراها تنظر داخل المخبز
مستغرقة للحظات، وفى النهاية تدفع العربة
بطبيعية.. كما لو أنها تخصها. كنت أراها الآن.. تسير
الامتار الأولى فى استعجال لكى تبتعد عن المنطقة.
رايتها تأخذ الطفل بين ذراعيها وتترك العربة فى
الشارع الذى سيجدها فيه رجال الشرطة بعد ذلك.
رايتها تصل إلى بوابة منزلها المتواضع.. آخر طابق فى
العمارة بغرفة واحدة طلاء حوائطها مُقشّر والسرير
ملتو. رايت الخاطفة تضع الطفل على ذلك السرير.
ايتها تجرده من ملابسه لتتعبد له وتدرك ما لديها
.. مشاعر كانت قد اكتسبتها. رأيتها تشترى له
..ساعات - وعلى وجهها الريبة- كل يوم من صيدلية
مختلفة، ودائماً بعيدة جداً عن الحى الذى حدث فيه
الاختطاف، رأيتها تدبر خططاً متعاقبة لكى تقيد
الطفل باسمها دون أن تنكشف، رايتها تغيّر حيّها
الأول، والمدينة بعد ذلك، رأيتها تتظاهر بالحمل..
بالولادة، رايتها تنجح مع الطفل بمجهود بطولى..
تمسح السلالم، تخيط قطع الملابس لغرباء حتى
ساعات متأخرة من الليل. كنت أستطيع رؤية الطفل
ينمو حول سلة الخياطة، حول ماكينة الخياطة، كنت
استطيع رؤيته وهو يسأل أمه لماذا لم يكن له أب، كنت
استطيع أن أسمع تفسير الخاطفة.. حيث قالت له إن
والده قد مات فى الحرب.. فى أى حرب، فدائماً
يوجد حرب ننسب إليها اختفاء الرجال. كنت فى

t.me/qurssan

النهاية أستطيع أن أدير تلك الحيوات المتخيلة كما لو أنها حقيقية، برغم أنها كانت قد حدثت فى بلد ووقت لم أكن أعرفه. لكنى كنت أستطيع - بالأخص مواصلة التطور العقلى لشخصية القصة الذى سوف يفهم - عندما يقرأ قصاصات الصحف- لماذا كان لديه طوال حياته ذلك الشعور بالاستغراب بالنسبة لما يحيط به. هو لم يكن من هناك.. كان ينتمى لعالم آخر أختطف منه. لا أعرف بأية طريقة غامضة كنت أقوم بوضع ذلك التطور.. فقد كنت أراه ينهض متحيراً من على سرير أمه المزيف، يسير بواحدة من قصاصات الصحف فى يده لكى يقارن - أمام المرآة- ملامح وجهه بملامح والديه الحقيقيين. والذى نهض من سريره واقترب من المرآة كان - على نحو مفاجئ- هو أنا. وأنا الذى كنت.. فى الأيام اللاحقة لذلك الاكتشاف.. أسافر حتى المدينة التى كان يعيش فيها الوالدان الحقيقيان للشخصية (والدايّ الحقيقيان). وكنت أطوف حول منزلهما لكى أراهما يخرجان. كنت أنا المندهش من الحياة التى من الممكن أن أعيشها إذا لم تتعقد الأمور بتلك الطريقة. أنا الذى كنت أفكر فى وسيلة أقترب بها من أمى الحقيقية - التى أصبحت عجوزاً- لكى أقول لها إننى رجعت.. أمى.. أنا ابنك. دون أن أترك الحياة فى عالم مظلم تماماً.. إذ أن كل جسدى كان ينتمى له.. كنت انتقلت على وجه لا يصدق إلى أماكن القصة. كيف كان ذلك ممكناً؟.

كانت تجربة هدامة.. خرجت من الرواية متحولاً، خرجت.. دون أن ينتبه أحد.. متحولاً إلى

t.me/qurssan

قارئ، وإلى ابن غير شرعى.. حيث إننى كنت بالتأكيد لم أكن ابن والدىّ. من المؤكد أننى أشبه والدتى.. لكن حينئذ أتى إلى ذاكرتى واحدة من الكلمات الأكثر تأثيراً فى حياتى: انسجام. كانت بجانب البيت سيدة ملامحها مطابقة لملامح كلبها.. وهو ما فسره لى والدىّ على أنها ظاهرة ينشأ بمقتضاها بين الأشياء القريبة ما يسمى الانسجام. تظل مشكلة الخاطفة.. حيث إنه لا يمكن تخيل أمى وهى تخطف طفلاً.. بينما كان لديها عدد من الأطفال أنجبتهم اثنين اثنين.. إلا أن إنجابهم إثنين إثنين يشكل مرضاً عقلياً.

كانت تلك قصة تأسيسية فى مدلولات كثيرة.. أيضاً فى مدلول هواجسى التى أصابتنى بعد أن أصبحت أباً (والمختلفة عن التأليف)، والتى اشتغلت عليها بكثرة فى «امرأتان فى براغ» خلال هذه الفترة.. بالإضافة إلى تراكم الشكوك لدىّ حول نسبى.. طابقت بين قصة مجلة «سيليكثيونيس» وبين حكايتى الخاصة.. بحيث تحولت إلى بطلها ومؤلفها فى آنٍ واحد.. وكلا الأمرين كانا بعيدى الاحتمال إذا فكرنا أننى فى ذلك الوقت كنت أبلغ من العمر اثنى عشر أو ثلاثة عشر والمؤلف الحقيقى كانت له جنسية أمريكية (لا أتذكر اسمه). ابتداءً من هذه اللحظة.. كانت كل قصة أقرأها وتجذبنى أجعلها قصتى. كنت نوعاً ما أفعل معهم.. مع القصص.. نفس ما فعلته السيدة مع الطفل فى الرواية: كنت أخطفهم.. كنت أحملهم معى إلى البيت أغذيهم كل يوم بولع مرضى، كأننى والدهم. إذا كان يوجد ناس تدبر أى شىء من أجل أن يكون

t.me/qurssan

لديها أبناء.. فأنا كنت مستعداً لدفع أى ثمن ليكون لى قصصى. وصلت إلى أننى أصبح لدى ثمانية أو تسعة فى وقت قليل (الأبناء..الذين أنجبتهم أمى). أعنى أننى تحولت من عدم قراءة أى شىء إلى قراءة كل شىء قطعاً. وتحولت القراءة إلى الشق الذى كنت أستطيع الهرب له من تلك العائلة، من ذلك الشارع، من ذلك الحى، ومن تلك العتمة.

تخيلت أيضاً فكرة أنه بدلاً من وجود تسعة أبناء لوالدىّ - وهو عدد غير ممكن- يوجد ابن واحد فقط.. وهو أنا. وقتها سنكون أسرة سعيدة.. دون المشاكل المادية التى على ما يبدو كانت أصل كل المشاكل الباقية (الأساسية والسطحية). كانا والدىّ متحابين وكانا يحباننى وكنت أبادلهما نفس الشعور حيث كنت طالباً مثالياً.. ففى هذه المواقف التى يكون فيها الابن وحيداً يتمتع بحجرة خاصة ومكتب خاص.. بدرج لى وحدى.. حيث لا تصعب المذاكرة. كان فتى القنبلة اليدوية (بيتى فاخر للغاية) ابن وحيد.. وهو ما كان يُلاحظ فى طريقة لبسه وكلامه ومشيته وجلسته. فى ذلك العصر كان الابن الوحيد أمراً نادراً، لكن أيضاً لم يكن شائعاً عائلات التسعة أفراد.. فبين تسعة وواحد كانت توجد حالات معتدلة أيضاً اكتشفتها بشكل خيالى، ولو أن فكرة وجوب اختيارى بين إخوتى لتصفيتهم لم يكن يسبب لى مشاكل ضميرية ضخمة. لكن عندما بلغ الذنب حداً لا يُحتمل.. قلبت الوضع وتخيلت أننى الوحيد من بين إخوتى الذى لم أُولد (فواحد أقل يعنى فم أقل).

t.me/qurssan

حينئذ فكرت فى نفسى إذا لم أولد.. وأن لى وجوداً طليّفياً داخل العائلة. أنهض معهم، أذهب معهم إلى المدرسة، آكل معهم.. ولكن فى حالة لا تؤثر فيها المآسى العائلية لأننى لن أكون قد ولدت. بدأ أخى الأكبر وأبى عند ذلك مناقشات عنيفة كانت تجعلنى اكثر ذعراً.. مثل مشاجرات ابى وأمى. لكن عندما اقنع نفسى أننى لم أولد.. تكون تلك المواقف متساوية بالنسبة لى. كنت أتأملها بحيادية تبدو لى الآن - بالنظرة التى يمنحها الوقت لها- حيادية فظيعة، برغم انها أمر عادى لشخص لم يُولد.

مع الوقت.. بحثت عن التغيرات المتعاقبة لهذه الفكرة.. تخيلت حكاية زواج أثمرت عن ابن واحد وليس ثمانية.. بطريقة بدت لى أمراً محتملاً، واحتفظ الإخوة الثمانية الذين لم يُولدوا بعلاقة بينهم وبين الأخ الذى وُلد. أرى بهذه الطريقة عائلة بتسعة ابناء.. ثمانية كان ينقصهم الوجود، وهو ما كان مفيداً للغاية من الناحية المادية.

أتذكر أننى قرأت فى «سيليكثيونيس» حكاية شخص عند رجوعه من العمل ذات يوم عانى فى وسط الطريق من نوبة فقدان ذاكرة ونسى من هو. لم يكن الرجل يحمل بطاقته الشخصية، لذلك ذهب إلى قسم الشرطة لطلب المساعدة حيث قادوه - بعد استجواب مختصر لم ينم عن أية نتيجة - إلى مكان مليئ بأشخاص يعانون نفس حالته. كان عبارة عن حى من الأحياء يتجول فيه الأشخاص دون معرفة كينونتهم. وخارجه كانوا يعيشون حياة عادية.. بها

t.me/qurssan

تبادل مادى وعاطفى يُوجِدا مرة أخرى العالم الذى أتوا منه. فى لحظة ما.. عادت الذاكرة إلى بطل الرواية، لكنه لم يقل لأحد.. حيث إنه انتبه إلى أن من يستعيد ذاكرته يسجلوا اسمه ويحملونه إلى العالم السابق (الخارجى).. الذى كان فظاً أكثر من العالم الراهن. منذ ذلك الحين.. اكتشف على الفور أنه يوجد أكثر من شخص يتظاهر بفقدان ذاكرته لأنه لا يتحمل عبودية حياته الماضية. توافقت كثيراً مع تلك الشخصية.. حيث إننى أيضاً كان لدى ميزة نسيان من أكون، وأكثر من مرة.. عند المرور بالقرب من قسم الشرطة أكون على وشك الدخول والتظاهر أننى فقدت الذاكرة، لكن تنقصنى الشجاعة.

كانت لا تزال هناك رواية أخرى.. أيضاً تتعلق بالأبوة.. التى تُؤثر داخلى بعمق. كنت قد بدأت فى حكاية شخص فقد ابنه الوحيد فى حادث وجُنت زوجته من الألم حتى أنها انتهت إلى العلاج النفسى. وذات يوم.. فى مطعم قريب من عمله، حيث تعود أن يأكل بمفرده، اقتربت منه فتاة لتحييه وقدمت نفسها كخطيبة ابنه الميت. لم يكن الرجل على علم بوجود تلك الشابة - كانت العلاقة بينه وبين ابنه بعيدة- التى لم يعرها أى اهتمام. الآن عند رؤيته لها أمامه طابقها بواحدة من تلك الوجوه الحزينة التى لفتت انتباهه فى الجنازة وما بعدها، فعند ترتيب أمتعة المتوفى.. سوف يجد صوراً متنوعة لم يعرف ماذا يفعل بها. قال مؤلف الرواية عنها.. والذى كان يصف مظهرالفتاة بإسهاب.. إن لها أنفاً معقوفاً، لذلك بحثت عن هذه الكلمة فى

t.me/qurssan

القاموس.. وهى تعنى «عُقاب أو بعض صفات من هذا الحيوان» فى البداية كان صعباً علىّ تصور امرأة بأنف عُقابى حتى اكتشفت أن أنف أمى كان بهذا الشكل بالضبط. عند ذلك أعجبنى الموضوع الذى جعلنى استخدم الكلمة.. برغم أننى أذكر دائماً شخصية تلك الرواية التى أتذكرها وكأن لديها كل وجه العُقاب وليس انفه فقط، ربما لأن الراوى قال إن عينيها صغيرتان ويقظتان (كان يجب علىّ أيضاً البحث عن كلمة.. يقظة). كان باقى الوصف يمدنى بصورة ذهنية لتلك الفتاة العنيدة، الفقيرة أيضاً، المنبوذة، الوحيدة... . هذه التناقضات كانت تسير وتندمج جيداً بشكل لا يصدق.. حيث كانت تنقل صورة أدبية معقدة ليفهمها القارئ.

وليس القارئ فحسب، بل بطل الرواية، والد المتوفى الذى دعا الفتاة للجلوس وتناول القهوة. أعطت المحادثة معها فكرة عن عدم التلاقى الذى كان يعيشه مع ابنه. فى حقيقة الأمر لم يكن يعرف شيئاً عنه، لكنه اكتشف من خلال خطيبته شاباً مليئاً بالحياة، بالاهتمامات، وحافلا بالاضطرابات التى مؤكداً ذكّرته باضطرابات شبابه. شعر حينئذٍ بحنين شرس لذلك الابن، وحزن على أنه لم يكن قريباً منه فى حياته وقبل أن تودعه الفتاة دعاها إلى الذهاب فى يومٍ إلى منزله لكى تأخذ الصور التى كانت لها هناك وتختار ـ كما ذكر ـ أحد الأشياء التى كانت تخص خطيبها.

بعد ذلك بأيام.. وكما اتفقا.. حضرت الفتاة إلى منزل والد خطيبها. أتذكر تلك المقابلة كأننى حاضر

t.me/qurssan

فيها.. مازلت أستطيع رؤية حجرة الجلوس فى بيت الرجل، مؤثثة بأناقة ودقة بالغة هكذا وُصفت. يمكننى أن أرى الممر الذى يتقدم فيه الرجل الناضج والشابة فى اتجاه نوع من المكتبات التى يضع فيها مقتنيات ابنه من أجل أن تختار الفتاة أكثر ما يعجبها. رأيت - كما لوكان أمام عينى- الكرسى ذو المساند المبطن بالجلد والواجهات الزجاجية وبها الكتب مرتبة بموادها فى الجانب الآخر من الزجاج. رأيت التوتر الجنسى الذى يوجد فى المكان كأننى أنا الذى أعانيه.. كأننى كنت فى نفس الوقت الرجل والمرأة. كنت أقترب منها.. أقترب جنسياً من الفتاة - بدون أى شك -، لكن شخصية الرواية لم تقترب مخيبة أمل القارئ بهذه الطريقة.. الذى انتظر أن يفعلها. أدركت أنها خديعة استيراتيجية وأن الأدب.. كما سأقرؤه لسنوات بعد ذلك.. كان انتظارًا مخيبًا للآمال) نفس التعريف الذى منحه بيرجسون للفكاهة). كان أفضل ما فى الرواية حين بدأ الرجل يسهر على الفتاة دون أن تعرف أن لها ملاكاً حارساً. بالنسبة لى كان يعجبنى أن يسهر علىّ أحد بتلك الطريقة.

كل هذا العالم المتخيل أبعدنى أكثر عن الدراسة وعن الواقع، لكنه سمح لى أن أحيا حياة مزدوجة.. حيث إننى الآن أصبحت قارئاً ومثلما كنت من قبل عندما كنت عميلاً للإنتريول: بشكل خفى، كان هذا السر يخفف عنى مشقات وجودى الفعلى. وهكذا جاء الصيف ومعه حصيلة رسوبى، لذلك سجلنى والداى فى نفس الأكاديمية التى فى شارعنا والتى كانت

t.me/qurssan

تدرس فيها لوث الآلة الكاتبة والاختزال. ثم تحققت من أن تعليم كهذا كان يشكل جزءاً من دراسات أكثر اتساعاً (سكرتارية) توجد فيها مادة - كانت فصاصات من مواد المدرسة- تسمى ثقافة عامة. وبفضل الأكاديمية كنا أنا ولوث نلتقى فى فصول النحو، واحدة من نشاطاتها الأساسية كانت الإملاء.

على وجه عجيب.. وضعنى الأستاذ بجانبها، فى دكة فى الصفوف الأخيرة حيث كنت أبدو كالهجين بين طاولة ومكتب المذاكرة. كنت أرتدى بنطلوناً قصيراً وترتدى لوث جونلة. وبينما كنا نكتب.. اقتربت رجلى اليسرى من يُمناها وظلا معاً فى حالة ملاطفة طويلة، دون أن يفضح شىء - فوق قطعة الأثاث الهجينة هذا النشاط الخفى. كنا نتصرف وكأن الجزء السفلى من الجسم كان مستقلا عن العلوى. ففى الأعلى كانت تحدث أشياء وفى الأسفل أشياء أخرى.. هكذا ببساطة.

وهكذا بصعوبة أيضاً.. حيث إننى عندما كنت اقترب من لوث فى فترات الراحة منتظراً أن أكتشف فى عينيها أو شفتيها العاطفة التى تظهرها رجلاها، كنت أجد عدم مبالاة فقط، وليس درجة من عداء اكيد. كانت تعاملنى باحتقار.. كطفل صغير. وصلت إلى أننى اعتقدت أن رأسها لم يكن واعياً لما تفعله أطرافها، والذى أيضاً لم يكن شاذاً فى عالم مقسم إلى هذا الحد كعالمنا.. عالم كان يوجد فيه دائماً حياة خفية أسفل ما يظهر. أدركت بطريقة غامضة أن الواقع كان مقسماً إلى نصفين (واحد منهما غير

t.me/qurssan

مرثى) برغم أنهما مكملان لبعضهما، إلا أنهما حُكِما عليهما ألا يلتقيان.

كان صيفًا غريبًا.. سيطرت عليه الغرابة التى أحدثت داخلى هذا التقسيم الجسمانى (والعاطفى) للوجود. كان كما لو أن أطيافنا امتزجت وأجسادنا تتجاهل ذلك. هل من الممكن أن يحدث موقف مشابه؟. فى الليل.. فى السرير.. كنت أتخيل أن ظلى وظل لوث كانا يلتقيان ليختبئان فى أحد أزقة الحى، تحت مصابيح الغاز تلك التى كانت تمد العالم ببُعد معنوى لا يمكن تفسيره، ويتحابان بجنون بكامل جسديهما وليس بنصفه فقط. كانت الحكاية تكبر ليلة بليلة، أرق بأرق، داخل رأسى.. حتى وصلت إلى درجة من الهذيان بأن تزوجت ظلالنا وأنجبت أبناء. وهكذا كانت تجرى الأمور.. نوعاً ما.. فكلما اقتربت أرجلنا أكثر، كانت تبتعد وجوهنا أكثر. عندما كنت أفكر فى لوث.. لاحقاً.. كنت أتخيل دائماً ظلها وظلى يعيشان حياة سعيدة خفية فى أحد سراديب المدينة، مع أطفالهم وأحفادهم، محافظين على شبكة عائلية بدأت تتضافر حينها.

ذات يوم.. منذ ثلاث أو أربع سنوات.. كنت فى حفل توقيع فى معرض مدريد للكتاب، عندما اقتربت منى سيدة (أقول «سيدة» بالمعنى السيئ للكلمة) وطلبت منى أن أهدى لها عنواناً.

- "لمن؟" سألت.

- "إلى لوث". قالت.

t.me/qurssan

كتبت الصيغة المعتادة (مع ودى الخالص) وأعدته لها.

- "ألم تتعرف علىّ؟". أضافت هى حينئذٍ.

التفت إليها وعرفت على الفور.. وكأنه وحى.. إنها كانت لوث من تلك السنوات، برغم أنه لم يظل منها شىء لا فى جسدها ولا فى نظرتها. كانت تنقصها سنة، كانت عيناى تتجه إلى فراغها مرة أو اكثر بطريق الخطأ بينما كنا نتحدث. لكنه لم يبد مهماً بالنسبة لها.. فلم تكن واعية لذلك الغياب ولا إلى عدم هندامها العام. حكت لى أنها تزوجت من أحمق من الحى وصفت لى تفاصيله حتى أننى تظاهرت أننى أعرف الشخص الذى كانت تحدثنى عنه. ثم.. بعد وقفة مؤثرة.. ذكرت احتكاك أرجلنا خلال الإملاء، رجوتها أن تصمت، فقد بدا لى انتهاكاً جاء ليكشف بعد سنوات كثيرة متأخرة ما كان يحدث أسفل مكتب الفصل (فى النصف الآخر من الواقع أو العالم).

- "اصمتى". طلبت منها.

- "اسكت إذًا". قالت هى بعدم إحساس شديد، وبينما كان هناك مجموعة من الأشخاص ينتظرون دورهم.. أعلنت أنها لن تمشى دون أن تسألنى إذا كانت ستدفع ثمن الكتاب أو سأهديه لها:

- "أهديه لك". قلت مشيراً إلى بائع الكتب.

رايتها تبتعد.. تهتز قليلاً كأنها تعانى من مشكلة فى أردافها. بحثت فى الأرض عن ظلها، لكننى لم اجد لها ظلا، بالرغم من وجود شمس قوية. عند

t.me/qurssan

وصولى إلى المنزل.. دخلت الحمام وبكيت.. ليس من أجل لوث ولا من أجلى.. لكن من أجل الخلايا. هذا ما أقوله لنفسى بسخافة أمام المرآة. أبكى من أجل كل خلية فى الجسم البشرى.. من أجلهم جميعاً، أقوله باقتناع إن الخلية.. فى علم الأحياء.. هى الوحدة الأساسية للكائنات الحية.. مع العلم أنها مُنحت شخصية وظيفية محددة.. وهو أمر واضح تحت الميكروسكوب.

وبينما كان عالم الظلال أو الخلايا منظماً بطريقته.. كان العالم الحقيقى يتجه نحو كارثة.. حيث إننى لم أنجح أيضاً فى سبتمبر فيما كنت قد رسبت فيه فى يونيو.

حينئذٍ حدث أمر غيّر حياتى.. كما يحدث فى الكوارث التاريخية (وفى حالات الصُداع الجسيمة). فكل شىء بدأ بنسيم، بحفيف، بحركة أرضية بالكاد يمكن إدراكها فى منطقة مرتفعة من الواقع. فقبل بضعة شهور.. على الجانب الآخر من الشارع لوبث دى أويوس (عند ناصية شارعى مانتوانيو وبراديو)، أُفتتحت أكاديمية متخصصة فى التدريس للطلاب الذين يعيدون السنة، وبحسب ما قالوه حققت معجزات فى امتحانات سبتمبر. علم والدىّ.. فقررا أن يسجلانى فى هذا المركز الذى كان صاحبه ومديره قسيس (الأب براوليو) ذا كرش ضخم ووجه منتفخ يجتازه عدد لا نهائى من الخطوط الحمراء والبنفسجية التى تُذكر ببطن بعض الحشرات. وجهٌ ميّزته طوال حياتى بأنه أحد نماذج مدمنى الكحول.

t.me/qurssan

وليس كلهم. عندما ذهبنا أنا وأمى لنراه استقبلنا فى وسط الشارع وكلمنا وهو يضع يديه فى جيوب ثوبه.. مُظهراً بمبالغة كرشه.. وكأنه معجب بحجمه. كان فى تصرفه غلظة متعمدة، وفظاظة مقصودة. بعد أن تبادل بعض الكلمات مع أمى نظر إلىّ من فوق إلى أسفل.. كأنه ينظر إلى بضاعة.. وأصدر حُكماً غيرمفهوم:

- "لديه جُرح جيد".

قلت بسرعة: تلك لم تكن أكاديمية، كان مركز تعذيب. كان للأب براوليو تابعان.. امرأة ورجل، لا أتذكر اسمهما: السيدة كانت تعطى الرياضيات واللغة الفرنسية، وأعتقد أن الرجل كان يعطى باقى المواد. كان يكفى أن ترتكب أقل خطأ لكى يضربوك.. مجتمعين أو كلا على حدة. كانوا الثلاثة يُحضرون معدات مختلفة للتعذيب موضوعة على طاولتهم كطريقة للتهديد، وكان أكثر ماهو مؤلم ومخزى - على الأقل بالنسبة لى - عصا طويلة ومرنة كانوا يضربونك بها على الفخذ والإليتين وأنت جاث على ركبتيك. كنت أموت من الخجل عندما تضربنى السيدة، ومن الغضب عندما يضربنى القسيس والرجل. ويتحول الألم الجسدى.. الفظيع.. بمجرد رجوعى إلى مكتبى.. إلى ضيق معنوى كان يلازمنى طوال اليوم. وبرغم أننى كنت أنوى عدم البكاء، دائماً كنت أنتهى إلى أن يسيل مخاطى كالطفل.. مثل باقى زملائى، بما فيهم الأكثر شدة. كان من بين أشكال التعذيب التى استعملتها السيدة الجذب من الأذن.. ولا تستطيع رفع

t.me/qurssan

يديك لحماية نفسك لأنها كانت تزيد من الضغط. كانت تجذب الرأس نحو جسدها بحيث ترغمك على أن يحتك وجهك فى ثديّها.. اللذين كانا كبيرين ولهما شكل جيد.

عرفت على الفور.. بالرغم من الأسلوب المعتم.. أن الأكاديمية بالنسبة لهؤلاء الفاسدين الثلاثة كانت بيت دعارة، غطاؤه كان التعليم. عند استحضار مشاهد التعذيب فى وسط الليل.. كنت أدرك بطريقة متحيرة أن التعبيرات الغريبة لتلك الوجوه - بينما كانوا يعملون ضد أجسادنا الهشة- كانت اللذة الجنسية.. النشوة الجنسية. كان يسهُل كسرنا.. أجساد هزيلة ونرتدى بنطلونات قصيرة. كانت نظرة معذبينا تغيب - بينما كانوا يجلدوننا - فى منطقة الأفخاذ حيث كانت تنتهى تلك البنطلونات. أحياناً.. كانوا يلعبون بطريقة سَمِحَة ويطلبون منك أن تختار أسلوب التعذيب.. والذى تختاره - كما يُقال يكون بين المشنقة والرمى بالرصاص-. تقف على قدميك.. أمام القسيس أو أمام السيدة (أحياناً أمام الاثنين.. حيث لم يكن غريباً أن ينظموا سهرات ماجنة مشتركة) ويجب عليك أن تختار بين أن تركع جاثياً وذراعيك على شكل صليب وتتلقى سلسلة من ضربات السوط على الأفخاذ أو تقدم لهم أولاً يدًا وبعد ذلك الأخرى وكل أصابعك مضمومة وموجهة نحو الأعلى لكى تُضرب عليها بمسطرة خاصة كانت تصيب بألم ليس له حدود دون ترك أية علامة. فى هذه الأوقات كان

t.me/qurssan

يُسمح لزملاء المُعذَب أن ينصحوه بالصُراخ مرة أو بالاستشهاد مرة أخرى.

كانت جلسات التعذيب تتكون من فصول حقيقية للاطلاع على الجنس.. لذلك لم يكن من الصعب أيضاً لمح تعبيرات الإثارة الجنسية على وجوه زملائى كالتى كنا نلاحظها على وجوه الأساتذة. ولقوله بطريقة هزلية.. كان يُمارس هناك فى واقع الأمر الانضباط الإنجليزى كالتمثيل الذى يُمارس فى بيوت الدعارة. فى بعض الأيام كان يظهر الأب براوليو فى المدرسة مُحزماً ثوبه بأحزمة كانت تُشكل جزءًا من رداء الراهب والتى رأيناها بعد ذلك أيضاً فى الأفلام الإباحية، كان - متلفظاً بكلمات فاسقة- سيد المكان. كنت أعانى من العقاب الجسدى - المعتاد فى ذلك العصر- فى مدرسة كلاريت، لكن ليس بنفس الدرجة التى كنت أقاسيها فى هذا المركز. علاوة على أنه كان فى كلاريت ميزة خاصة بمسئول النظام.. فربما لأن كرشه أقل من براوليو، كان يشبع مبكراً.

ذات يوم.. بعد أحد الفصول التى كانت فيها السيدة قاسية بطريقة خاصة مع صبى مُعرض للمرض.. والذى كنت أرجوه يصرخ - بدون أية عزة نفس- حتى لايضربوه أكثر.. قال أحد زملائى:

- "يبدو لى شيئاً صعباً عندما تسىء السيدة معاملتى".

ضحك ضحكة صفراء ليخفى ضيقه بسبب تلك الثقة، لكن لم يعلق أحد بشىء. لم يعلق أحد بشىء.. استنتجت بعدها بسنوات - على الأريكة- أن ذلك

t.me/qurssan

الصبى كان مُصيباً من الناحية اللفظية بشأن ما كان يحدث: إنهم أطلعونا بشكل وَسِخ على اللذة الجنسية.

بدأت المذاكرة تحت ذلك الضغط، تحولت إلى نموذج واهٍ بسبب استيعابى لحروف بالدم. اكتشفت أن حفظ مفردات اللغة الفرنسية أو علاقة العواصم الأوروبية كان يصبح على نحو مفاجئ بسيطاً، ويبدو لى أمراً لا يُصدق لم أنتبه له من قبل. لكن برغم أننى كنت أذاكر من أجل أن لا يضربوننى، ظلوا يضربوننى. دائماً كان هناك عيب يستحق العقاب، ومن ناحية أخرى.. كان التعذيب الذى يقومون به مع غيرى يؤلمنى كثيراً كأنهم يمارسونه معى.. فبالنسبة لى كان الجو العام للذل الذى كنا نعيشه غير محتمل. كنت أقضى الليل فى السهر، مُعَذباً من ذكرى ما سوف يحدث فى اليوم التالى.. فكل يوم كان مماثلاً لسابقه، مع فترات سلام قصيرة كانت تحافظ على بعض العلاقات - أفترض- مع الوهن الجنسى لمعلمينا.

كانت نهايات الأسبوع مرعبة.. فكلما كانت الهدنة مدتها أطول، كلما كان الخوف أكبر من النكسة. كنت معتادًا على الذهاب فى عصر أيام الآحاد إلى سينما بها حفلات مستمرة فى شارع لوبث دى أويوس حيث كانوا يضعون فيلمين. وفى فترة الراحة بين الواحد والآخر.. إذا سمحت حالتى المادية.. كنت أشترى سيجارة فُراطة - إل إم- وأدخنها بأداء البطل السينمائى فى دورات مياه القاعة. وبعد أن تمر أربع أوخمس ساعات (كنت أشاهد نفس الفيلم مرتين لكى يخدرنى) كنت أُقذف من حلق السينما إلى الواقع..

t.me/qurssan

فكان الخوف يستقر فى معدتى كالثعلب فى نوبة حراسته.

حينئذ كنت أتجول فى شوارع الحى الواسعة، الف لكى أؤخر لحظة وصولى البيت.. حيث كنت اتناول عشائى فقط، وأنام لأنهض للعودة إلى جهنم أو تعود جهنم إلى. بالرغم من أننى كنت أنوى أن أحتفظ بجَلَد أبطال الأفلام، وبقدر ما كانت تقترب ساعة العشاء العائلى كان الثعلب المنقبض فى أمعائى يضطرب ويخدشنى ويضطرنى للجرى من اجل الدخول إلى الحمام.. حيث أحاول إخراجه بلا جدوى عن طريق فتحة الشرج.

فى تلك الأيام.. تحرك مسمار من نعل الحذاء اليمين من مكانه وجرحنى فى إخمص قدمى أثناء سيرى. كانت مشكلة شائعة فى أحذية ذلك العصر وإصلاحها كان بسيط للغاية، لكننى بقيت لأسابيع اغذى ذلك الجرح على أمل أن يصيبنى التتانوس.. لكى أموت. كنت أمشى حاملاً وزن الجسم على هذا الجانب ضاغطاً على أسنانى من أجل تحمل ألم المسمار عريض الرأس.. والذى كان ألماً عذباً لأنه سوف يخرجنى من الأكاديمية، سوف يخرجنى من الحى، من العائلة، من الحياة. وفى الليل.. عندما كنت اخلع الشراب الخشن، كنت أرى الدم المتجلط، مندهشاً من قدرة الجسم حتى ينتج هذه السوائل. كان يعجبنى لمس الجُرح المفتوح الذى.. على وجه عجيب.. لم يتلوث حتى.

t.me/qurssan

كم هو صعب أن يموت الشخص، وكم هو سهل في الوقت نفسه. كل فترة قليلة كان يتطاير خبر أن عائلة كاملة انتقلت إلى الحى الآخر [1] بسبب احتراق شديد للمجمرة[2] كالتى كانت عندنا أسفل المائدة المُعَدَة لها. كانوا يطلقون عليه الموت الحلو العذب لأنك تظل نائماً وتتقلب من جانب لآخر دون أن تتنبه. كنت أنقل أحياناً جمرات المجمرة بنصل تقليب الجذوات، سائلاً نفسى ماذا سوف يتبع ذلك الانبعاث للغاز المُحرر، لكن لم يحدث شيء. كان هناك أشكال أخرى للانتحار (أن يرمى الشخص نفسه من طابق عالى.. على سبيل المثال)، لكن كيف تجتمع الشجاعة اللازمة لتحقيقها؟.

هل لم يكن والداى على علم بما كان يحدث فى الأكاديمية؟ كان والداى يعيشان فى عالم آخر. ربما كانا يعرفان ما يحدث ويبدو لهما جيداً، أو لا يبدو لهما جيداً وينظران إلى جانب آخر.. حيث كانا لديهما من التعقيدات ما يكفى بسبب رغبتهم فى إنجاح تسعة أبناء فى تلك السنوات الصعبة. وعلى الجانب الآخر.. لم أكن أقول شيئاً لأن الاعتراف بذلك التعذيب كان يسبب لى خجلاً فظيعاً. ما الآلية الفسيولوجية الغريبة والشائعة لهذا الحد التى تثير مشاعر الذنب والحياء فى الضحية وليس فى الجلاد؟!

وفى واحدة من أمسيات الآحاد الشنيعة.. أخذت قرار ألا أذهب فى اليوم التالى إلى الأكاديمية. أذكر ذلك الاثنين كمجموعة من مشاهد فيلم كنت أنا أمثله.

---

(١) يقصد هنا حي الأموات (المترجمة).

(٢) هى الشورية او المبخرة (المترجمة).

t.me/qurssan

نهضت بجسد متجمد.. وهو ما كان معتاداً.. فطرت مع باقى إخوتى (مجموعة غامضة من الأطياف) وضعت على صدرى كوفية، أمسكها بالسترة (سترة متوارثة.. والتى كانت تحل أيضاً محل المعطف) وخرجت إلى الشارع متخذاً الاتجاه العكسى للمدرسة. كنت أسير ملتصقاً بالحائط.. كطريد العدالة، خائفاً من أن يقابلنى أحد زملائى أو أحد الكبار الذين سيجعلونى أتخلى عن ذلك القرار الغريب.. حيث إننى لم أكن هكذا.. لم أكن شجاعاً إلى هذا الحد.. لم أكن اتغيب عن المدرسة فى حياتى، ذلك لم يكن يشكل جزءاً من مجموعة الأعمال التى كنت قادراًعلى القيام بها. علاوة على أنه كان قراراً بدون آفاق.. فماذا سوف يحدث عندما ينتبهوا فى الأكاديمية، عندما يتصلوا بوالدىّ، ماذا سوف يحدث فى اليوم التالى وفى اليوم التالى لليوم التالى؟!. لا أعتقد أننى كنت وقتها أعرف تعبير الهرب إلى الأمام لكن كان ذلك هروبًا من هذا النوع.

ها أنا.. ببنطلونى القصير وشرابى الطويل. رفعت طيات صدرالسترة المتوارثة لكى اقدم أكبر مقاومة من البرد. ارتديت قفازات رثة الهيئة من الصوف تُظهر رءوس أصابعى من أطرافها. وأحمل على ظهرى جراباً صنعه أبى فى ورشته.. كان الجراب هدية من الملوك(*) العام الماضى.. مغلقاً من كل الجهات، أما ثقوب حزامه صنعتها أداة تسمى خرامة والتى عند وفاة والدى وصلت ليدى بالصدفة.

(*) يقصد الملوك الماجوس (انظر الجزء الأول) (المترجمة).

t.me/qurssan

خرامة.. يبدو اسمًا لشخصية من قصص الأطفال. ذات يوم.. قمت طوال المساء بعمل ثقوب بها فى حزام من الجلد، مدتنى بمتعة حمقاء.. مماثل لانفجار الفقاقيع. عندى الآلة هناك.. محفوظة فى صندوق خشب فوق الوعاء الذى أحفظ فيه رماد والدىّ.. اللذين كانا والدىّ فى ذلك الإثنين الذى خرجت فيه إلى الشارع وسرت فى الاتجاه غير الصحيح.

عرجت العكس.. حاملاً ثقل جسمى فوق الرجل المصابة.. فوق القدم المجروحة بسبب مسمار نعل الحذاء، المسمار الذى كان يجب أن يقضى علىّ.. إذ أن قول التتانوس كان يعنى الموت.

برغم مرور وقت طويل.. بقيت متجولاً فى أسفل الشارع لكى أهرب من الخجل الذى تحدثه لى علقات الأكاديمية. أكتب هذه السطور فى نفس ساعة هروبى.. تقريباً. بينما قطعة الشاش المنزلقة تتحرك بطريقة عصبية (لأننى أكتب بسرعة، أكتب كاننى أهرب.. برأس منحن وتعبير على الوجه لمعاناة غير محدودة)، وتُعزف موسيقى كمان (باتش) والتى أضعها فى مُشغِل الموسيقى. عادةً لا أكتب مع الموسيقى لأنها تلهينى، لكن اليوم أضعها لأننى لم أشعر بالقدرة على حكى حكاية ذلك الإثنين. وضعتها لتلهينى، لكن بدلاً من ذلك دقت الإيقاعات بالخبطات التى كانت تخبطها مفاتيح الآلة الكاتبة، التى ترن تحت أصابعى كقطرات الماء التى بدأت فى السقوط صباح ذلك الإثنين فوق الشارع، بعد قليل من بدئى للهرب، ترن كالمسامير على التابوت. يجب علىّ التوقف أسفل إفريز بسبب المطر.

t.me/qurssan

ومن هناك راقبت الناس وهى متعجلة. كانت توجد بعض المظلات.. ليس كثيراً، لأن المظلات كانت أداة ترف فى ذلك العصر.. فى ذلك الحى على الأقل. أستمع إلى باتش وأسمع فى الوقت نفسه قطرات المطر.. قطرات غليظة تخبط بلاط الشارع غير المنتظم، كل ذلك بالإيقاع الذى تسقط به الآن أنامل أصابعى على بلاط الكمبيوتر.. متظاهراً بالكتابة، بينما فى حقيقة الأمر تكون المساميرمثبتة فى التابوت الذى أتطلع إلى أن أحبس فيه نهائياً تلك السنوات، مسامير كتاب يأخذ شكل التابوت. عندما أنتهى منه.. عندما ينتهى هذا الكتاب.. أو هذا الناؤوس، سوف أرمى الرماد فى البحر وسأتحرر مرة واحدة من بقايا نفسى، من حطام ذلك الصبى الذى تركناه أسفل إفريز ببنطلونه القصير وشرابه الطويل، بضيق صدره الهائل، وانعدام المستقبل.. صبى بكل هذا الهلاك الذى على ظهره.. صبى يُحدث داخلى غضباً أكثر من الشفقة لأنه لاينتمى لى. فمن المستحيل أن هذا الرجل الكبير الذى يستمع إلى باتش بينما يضرب بغيظ لوحة مفاتيح الكمبيوتر نشأ من ذلك الغلام الذى كان بدون مستقبل. كان من الممكن أن أتوقع ما أفعله بنفسى وكل هذا، لكن من المستحيل بالتأكيد فهم ما أنا عليه اعتباراً مما كنت فيه. أو أننى غير واقعى أو ذلك هو غير الواقعى. يأتى إلى ذاكرتى مشهد من فيلم «نصل العدّاء» الذى فيه يلاحظ المستنسخون صور والديهما المزيفين وأخواتهم وأجدادهم المزيفين فى الوقت الذى يبنون فيه تاريخ

t.me/qurssan

عائلى مزيف (جميعهم مزيفون). أشك منذ بعض الوقت أننا جميعاً - كذلك أنا، القارئ- مستنسخون نتجاهل حالتنا.. يجهزوننا ببعض الذكريات المزيفة، سيرة مصطنعة.. من أجل ألا نلتفت إلى المحاكاة. فى توزيع الأدوار.. تلمسنى طفولة ذلك الصبى الذى تركناه أسفل الإفريز، فى تغيبه الأول والأخير فى حياته.

والشىء الغامض حدوث الأحزان فى آنٍ واحد. أكتب هنا مع باتش فى الخلفية، وهناك.. أقف تحتَ الإفريز.. أراقب المطر. أحياناً.. يحدث أمر بعد آخر، لكن ليس بالترتيب: فأولاً.. أكون كبيراً وأستمع إلى باتش، ثم صغيراً وأموت من البرد تحت الإفريز. الترتيب الزمنى بالنسبة لى ترتيب ظالم إلى حدٍ ما مثل الترتيب الأبجدى: اصطلاح لا يؤدى وظيفته فى رأسى فى كل الأيام. اليوم لا يقوم بعمله. لذلك أنا هنا وهناك بشكل متزامن. هناك.. لأجل ألا أجذب الانتباه سرت تحت الإفريز. من حين لآخر ينهار الإفريز فى أيام المطر ويقتل شخص. إذا لم يقم مسمار الحذاء بعمله، إذا لم تقم المجمرة أيضاً بعملها ، على الأقل يقوم الإفريز بها. أنظر إلى الأعلى وأرى مبنى مبللاً، من طوب بالٍ ومتسخ.. كحائط فناء داخلى. هكذا كان حيّى وقتها. كالفناء الداخلى.. فناء داخلى أتحرك داخله كالفأر الأعمى الذى يتحرك فى متاهة باحثاً عن ملاذ فى مداخل العمارات.

إذا تبللت.. فمن الممكن أن أموت من التهاب الرئة، لكن سأمنح الإفريز فرصة أكثر. إذا لم ينهر

t.me/qurssan

شيء سوف أتبلل. عددت مائة خطوة باحثاً عن البيوت الأكثر تلفاً، بأطراف حالتها السيئة. بعد هذه المائة، عددت مائة أخرى، ثم مائة أخرى (دائماً أقوم بالطقوس فى تسلسل من ثلاثة)، لكن لم يحدث شيء. لا أزال حياً. بدأت فى السير تحت المطر. كان شهر نوفمبر، ربما أوائل ديسمبر.. مثل الآن.. بينما أكتب هذا الفصل المُحَاصر بعدم الترتيب الزمنى. تسقط المياه مُثلجة وتبلل السترة بقسوة، تسللت بعض القطرات عن طريق الرقبة ونزلت على حوائط الفناء الداخلى الجسدى. كل شيء كان فناءً داخلياً فى ذلك العالم بما فيه ظهرى.

اجتزت الخلاء.. حيث توجد اليوم شوارع كلارا دل ريَ وكوراثون دى ماريا واتجهت نحو ضواحى مدرسة كلاريت.. حيث كنت أدرس، حتى السنة الدراسية الماضية. كان عندى أمل أن أجد باب الفناء مفتوحاً لكى أتسلل منه إلى الكنيسة، لكن كانت كل المداخل مغلقة، كانت تبدو كحصن. رأيت نوافذ الفصول بأنوارها المضاءة.. حيث إن الصباح كان مظلماً إلى هذا الحد الذى يبدو فيه كأنه مساء. حينئذٍ خطر ببالى البحث عن ملجأ فى الأبرشية.. بحيث صعدت عن طريق شارع كارتاخينا إلى شارع لوبث دى أويوس. كنت مدركاً أننى لن أكون شخصاً ساذجاً يُقتل بتلك الطريقة. فى الواقع.. لم أستطع أن أبلل نفسى أكثر مما كنت عليه، ولم أستطع أن أبرد أكثر فلم يكن من الممكن ان أعانى اكثر. كنت أبكى من

t.me/qurssan

المعاناة، مندهشاً من امتزاج الدموع وقطرات المطر. كانت الناس تنظر إلىّ.

جلست على مصطبة فى الأبرشية ساعة، ربما ساعتين. لا أدرى. ربما كانت ربع ساعة عندما بدت لى السابعة. لم يكن لدى ساعة. كان الأطفال.. فى ذلك العصر.. يسألون الكبار عن الساعة، لكننى كنت خائفاً إذا سألت عن الساعة يُتعجب من أننى لست فى المدرسة. صليت لله، للعذراء، للقديسين. جثوت أمام الصليب الذى عليه صورة المسيح مصلوب وطلبت منه أن يفعل شيئاً لينهى ذلك الموقف. تنبهت.. وسط جو مأسوى بهذا القدر.. سائلاً نفسى بتهكم ممن خطر ببالى أن أطلب المساعدة: من إنسان جلدوه، بصقوا عليه وصلبوه. وكان هذا ابن الرب. شعرت أننى كنت فى موقف كوميدى نوعاً ما، لكننى صلحته على الفور.

بعد ذلك مشيت خلال هذه الشبكة من الشوارع التى كانت حول السوق- على وجه خطير- بالقرب من الأكاديمية. وإذا ذهبت هناك بكل بساطة؟ سوف أقول نمت. هل سوف يتجرءون على ضرب طفل بملابس مبللة، بشعر ينقط منه الماء، بجسد يرتعش بالكامل من البرد والخوف؟ ربما أطلب منهم عقوبة، لكن العقوبة التى تُنفذ كانت تُثير أكثر معذبينا.

فى نهاية الأمر.. قررت قدماى أن أعود إلى المنزل دون أن أجد مقاومة زائدة فى رأسى. سألت أمى مذعورة.. عندما رأتنى أدخل البيت.. من أين أتيت:

t.me/qurssan

- "لم أذهب إلى الأكاديمية". قلت مبتلعاً مخاطى ودموعى ومياه المطر.

- "لماذا؟".

- "لأنهم يضربوننى".

جردتنى أمى من ملابسى ولفتنى ببطانية وجففت شعرى بفوطة. ثم أعطتنى فنجاناً من شىء دافىء وأشعلت لى مجمرة الطاولة التى جلست عليها باقى الصباح. فى لحظة بدا جوربى مليئاً بدم متجلط.

- "ما هذا؟". قالت.

- "لا شىء". قلت.

طلبت منى أن أكشف قدمى.

- "لماذا لم تقل شيئاً؟" سألت عند رؤية الجرح.

- "لكى لا تقولى لى تتانوس". قلت وبدأت فى البكاء.

عندما هدأت أكدت لى أنها سوف تتكلم مع الأب براوليو، حتى لايعود ويضربنى. كان فى صوتها لهجة عطف، كأننى بالغت أو أننى كنت سريع التأثر بشكل مفرط. أدركت أنها كانت هدنة فقط وأصابنى الخوف اكثر من قبل.

كان يعجبنى أن أحلم بهذا الفصل، أكتبه تحت التنويم المغناطيسى. حملته معى أياماً وأياماً إلى السرير، داخل رأسى.. لكى أرى إذا كنت سأجتاز معه حدود اليقظة. لكن حراس الأحلام كشفوه عند بوابة الأمان.. كحراس المطارالذين كشفوا رماد والدىّ،

t.me/qurssan

وسلبوه منى. لم أستطع أن أحلم به فى النهاية. لكننى أيضاً لم أستطع الامتناع عن كتابته. بدأت فيه الآن.. الساعة الرابعة فجراً وقد أيقظنى جرس الباب، نزلت لأفتح باندفاع إن أليخاندرو أو خوان خرجا من المنزل بدون المفاتيح، لكن.. مثل أوقات أخرى.. كان الجرس يدق فقط داخل رأسى.

يبدو المنزل.. فى هذه الساعات.. منزلاً آخر، وربما الآخر هو الذى يختبئ داخله.. داخل لا وعيه. هو مماثل ومختلف عن منزل النهار.. كما لو كان منزلاً يوجد فى الجانب الآخر من مرآة كبيرة لدينا فى الصالون. كل شىء اكتسب معنى مختلفاً منذ هذه الساعات.. كل شىء أصبح خائفاً.. أنا أيضاً أصابنى الخوف. لماذا يتكرر هذا الحلم بينما يدق الجرس فى منتصف الليل؟، لماذا لست قادراً.. عند استيقاظى.. على التمييز إذا كان يرن داخل أو خارج رأسى؟ هل أنتظر أحداً لايصل؟ على أية حال.. أعرف أننى لن أعود إلى النوم.. فارتديت فوق البيجاما برنس الحمام دون أن أقوم بضوضاء.. حتى لا أوقظ إيزابيل وصعدت إلى العُلية. وبينما بدأ الكمبيوتر فى العمل، انتبهت إلى الكتب بذعر.. بعضها - خاصةً كتب الشعر- نقلت معى منذ المراهقة، لازمتنى طوال حياتى من بيت إلى آخر، كبرنا معاً، تترك صفحاتها لمسة غريبة فى أنامل أصابعى فهى مصنوعة من عجينة ورقية كيميائية أصبحت هرمه بشكلٍ سيىء. ربما إذا وضعت القليل من الموسيقى سوف أخفف التوتر. لكن لن تجعلنى الموسيقى أستمع للضوضاء الصادرة من

t.me/qurssan

الغرف الأخرى (من غرف رأسى) فى هذه الساعات التى يكون فيها كل شىء شاذاً عن القاعدة.

كان يجب على أمى ـ منطقيًا ـ أن تحكى لأبى ما حدث من تغيبى عن المدرسة.. لكنه لم يقل لى شيئاً، ربما بإشارة منها. نعم لاحظت أنه خلال الأيام التالية راقبنى بشىء من الحنان، من الشفقة، وربما من الغضب.. كما لو كان يعتبرنى غير صالح للحياة أو يتساءل.. عند النظر إلىّ.. ماذا سوف يحدث لى مع رقة الشعور المرضية هذه. وهذا نفس ما كنت أسأله لنفسى.. ماذا كان سيحدث لى.. حيث عاملنى الأساتذة فى الأيام الأولى بعد هذه القصة العرضية كما لو أننى غير مرئى (وهو ما يشكل وسيلة أخرى من التعذيب)، قليلاً بقليل سأظهر من جديد فى مجال رؤيتهم ويعاودون المعاملة السيئة.

ذات يوم سألتنى أمى كيف حال الأمور فى الأكاديمية. قلت لها إنها تسير بشكل جيد لأننى لم اكن أحتمل خزى الاعتراف من جديد بأنهم يضربوننى، لكن الأكيد أنهم نعم.. عادوا لما اعتادوا عليه.. فقد كنت أحلم فى كل أيام حياتى وأنا راقد بألا أستيقظ. لكننى كنت أستيقظ لكى أدخل فى يقظة متخيلة، يقظة يكتسب فيها كل شىء أهمية خاصة كالتى يكتسبها العالم بالنسبة للمحكوم عليه بالإعدام بينما يسير نحو سقالة الإعدام. إذا جثمت ذبابة أثناء الإفطار على مفرش طاولة الطعام.. كنت أرى حركات الذبابة كأننى أراها من خلال عدسة مكبرة، إذا سقطت قطرة لبن على الأرض.. كنت

t.me/qurssan

أراقب سقوطها وكأنه فيلم بالحركة البطيئة، إذا عبرت الشارع مع أعمى تظل محفورة داخلى حركات طرف العكاز فوق البلاط بشكل غير عادى. عندما كنت أصل الفصل.. تكون رأسى ممتلئة بصور سخيفة.. الذبابة، قطرة اللبن، طرف العكاز.. والتى بالرغم من ذلك كانت بمثابة وسيلة غريبة للدفاع أمام ذلك الواقع العدائى. تقبلت ما كان يحدث فى الأكاديمية فى ذلك العام الدراسى كأنه أمر لابد منه، لذلك وضعت كل طاقاتى فى إيجاد الوسيلة التى أتحرر بها مما هو آتٍ، وإذا لم أجدها.. سوف أنتحر خلال الصيف.

أثناء تلك الأيام جاء ليرانا الأخ الأصغر لأمى.. والذى كان مبشراً وعُيّن فى إفريقيا. تناول أكلة خفيفة معنا عند العصر قام بعمل بعض ألعاب الورق والعملات لنا. هذه الليلة سمعته يقول لأمى إن أعظم ما يمكن أن يحدث لسيدة أن يكون لها ابن قسيس (ومبشر). كنت أسمع ذلك فى أوقات كثيرة، لكن فى هذه المرة اكتسبت دلالة خاصة (كالذباب، قطرات اللبن، عكاز أعمى). فجأة.. رأيت شقاً أهرب له من الأكاديمية، من الشارع، من العائلة، من الحياة. ومع ذلك.. أخذت وقتى.. من جانب لكى لا يُلاحظ أنه هروب، ومن أخرى.. افترض.. لأننى كنت فى حاجة لتوجيه نفسى كقسيس. لم يكن لدى مطلقاً تصورات محددة حول مستقبلى ولم أتخيل من بينهم أبداً تصور اننى أمنح حياتى لله. لكن إذا كنت التحقت برهبانية الخال كاميلو (رهبانيات قلب مريم)، ربما ينتهى بى

t.me/qurssan

الأمر فى إفريقيا أيضاً أو جنوب إفريقيا، وهى مؤكداً دراسة لمغامر.

اخبرت والدى بقرارى فى يوم كان مريضاً فيه (محاولاً أن أمنحه أسلوب محادثة بين رجلين «وهو ما جعله استثنائياً. أعتقد أنها كانت المرة الأولى التى أراه فيها طريح الفراش بالحمى. كان قد أصيب بالتهاب الرئة لركوبه دراجته البخارية الصغيرة دون وضع جرائد أسفل سترته. عند عودتى من الأكاديمية.. وكان فى الليل.. حيث كنا فى شتاء كامل. جلست عند أقدام السرير لأحدث له قليلاً من الصحبة، وانتظرت ان تخرج الكلمات من فمى التى ظللت أسابيع احضّرها.

- "بابا.. أريد أن أكون مبشراً كالخال كاميلو".

أنصت لنفسى وأنا أقول ذلك فجأة فى وقت مبكر كثيراً عما كنت أتوقعه.

ترك أبى القماشة المبللة التى كان يضعها على جبهته واستوى فى جلسته قليلاً:

- "ماذا تقول؟".

- "أريد أن أصبح مبشراً كالخال كاميلو

كان أبى متديناً بشكل أعمق بكثير من أمى.. كان يتناوب قراءة المنشورات التقنية مع قراءة الكتاب المقدس.. حاملاً من كليهما فوائد روحية خفية. لم اعرف مطلقاً ما كان يدور فى رأسه، ربما لم يعرف أى ابن، ولا هو أيضاً كان يعرف ما يدور فى رأسى. فى الواقع.. كان يبدو محيراً.

t.me/qurssan

- "هل أنت متأكد؟". نجح فى السؤال.

- "نعم". قلت وفى هذه اللحظة انقطع النور، كاليوم الذى طلبت من ماتيو.. والد فيتامينات انضمامى إلى الإنتربول. ربما لم تكن مبادرة مختلفة كثيراً عن الأخرى.

بعد قليل حضرت أمى بشمعة مضاءة وضعتها فوق الكومودينو. بعد تنهد، جلست عند قدم السرير.. فى الجانب المعاكس لى. اكتسب المشهد لهجة كلام كئيبة نوعاً ما. انعكس لهب الشمعة فى مرآة الجزء الأوسط من دولاب حجرة النوم. جميع الناس عندهم مرآة لهم بها صلة. مرآة يعجبه الشخص اجتيازها للوصول إلى الجانب الآخر من الحياة.. مرآتى كانت هكذا، ربما لاتزال. عندما كنت أمرض ويسمحوا لى بقضاء اليوم فى سريرى والدىّ، كنت أتخيل هذه الإمكانية لساعات. أعتقد أن فى ذلك اليوم اجتزت بمهارة ضوء الشمعة.

- "هل تعرفين ما كان يقوله ابنك؟". قال أبى بشىء من الانفعال (ومن الحمى طبعاً).

- "ماذا؟".

- "إنه يريد أن يصبح مبشراً.. كأخيك".

بدءاً من هذه اللحظة بدأ المشهد يمضى إلى الجانب الآخر من المرآة. كنا هناك.. أبى، أمى وأنا وفتيلة الشمعة المشتعلة.. التى كانت تعطى لنا ضوءاً طفيفاً. نهضت أمى واحتضنتنى منفعلة.

- "كيف هذا؟". قالت.

t.me/qurssan

- "فكرت فيه". قلت أنا.

- "وعندما تعجبك الفتيات؟". سألت هى.

- "هم يعجبوننى بالفعل". أجبت أنا.

أعتقد أنهم لم يعطوا انتباهاً إلى أن المشهد - الكئيب لطبيعة الضوء المشتعل - كان قد حدث فى الجانب الآخر من المرآة، فى الجانب الآخر من الحياة.. لكن أنا نعم. كنت أعرف أننا على نحو غامض اجتزنا الحدود، عرفت أن باقى الحياة كانت تمضى فى هذا الجانب المزيف الذى بالرغم من كل هذا جعلنى بمأمن من كل شىء. تمهلت سنوات فى الرجوع له.. فى بناء حياة تخصنى حقيقة. عندما كانت تأتى ذكرى هذا المشهد على طول جلسات تحليلى النفسى (وأتت ألف مرة ومرة.. كأنها حدثت أيضاً بطول ألف ليلة وليلة)، كان يأتينى انطباع أنه حدث فيها شىء حينها لم ألتقطه (واليوم الذى عثرت فيه على هذا الشىء رجعت فجأة إلى هذا الجانب من المرآة)، والذى لم ألتقطه حينئذٍ هو أن أمى كانت تعرف منذ اللحظة الأولى أن ذلك كان هروباً. كيف لم أنتبه أنها كانت تعرف كل شىء؟ لماذا لم أفعل شيئاً حينها لأتجنبها؟ لماذا اشتركت معى فى هذا بينما لم أطلب منها؟ ربما لأنها لم يخطر ببالها وسيلة أخرى لإصلاح الأمور، ربما لأنها كانت تدرك بغموض أننا يجب أن ننفصل. ذات يوم.. عند خروجى من عيادة محللى النفسى وقبل عودتى إلى المنزل ولكى أتأمل شيئاً اكتشفته منذ حين على الأريكة.. دخلت مقهى

t.me/qurssan

حيث كانت تعزف البوليرو(*). جلست على منضدة البار.. أمام كأس من الكونياك، أدركت وكأنه اكتشاف أن المُتلقى لهذا النوع الشعبى المُخصص للحب غير الممكن، البائس، المستحيل، لا تكون المرآة بوجهٍ مطلق: بل الأم.

كان الباقى إجراءات.. تحدثت مع خالى، كاتبت الشخص المسئول طالبة منه قبولى فى المعهد اللاهوتى. كان انتظاراً مُحرجاً قليلاً سببته عدم كفاءة سيرتى الذاتية الدراسية، لكنها أخبرتهم أننى تحولت فجأة إلى طالب مثالى، والذى أصبح نموذجًا للتوبة فى عالم يُقدر كثيراً صورة الابن الضال. فى نهاية الأمر.. حددوا لى ميعادًا للسنة الدراسية التالية والتى ستبدأ فى سبتمبر. كان الهروب مكتملاً عملياً. قضيت الشهور التالية متخيلاً مستقبلاً صفته الرئيسية هى الاقتلاع، الانفصال، الضياع، قيم كانت لاتزال لها دلالة أدبية. تحولت إلى أحد أبطال الأفلام التى كنت أراها فى سينما لوبث دى أويوس.. نموذج لا ينتمى إلى مكان، يهرب من ماض قاس (وإذا أرادوا معرفة شىء عن ماضىّ.. يجب قول أنه كذبة). اعتدت رؤية كل ما كان يحدث فى الأكاديمية كأنه سوف يحدث.. حيث إننى كنت أقضى وقتاً من حياتى فى المستقبل أكثر منه فى الحاضر. وفى ذلك المستقبل كنت أعيش فى وسط غابة. مهتمًا ببناء حيوات بعيدة.. مع أن حياتى كانت غير تامة، ولم أعِد العُدة للاستمرار فى بنائها. كنت أفكر كثيراً فى ماريا خوسيه وأتخيل أننا

(*) اسم رقصة إسبانية وتطلق على موسيقاها (المترجمة).

t.me/qurssan

عندما نكبر.. بسبب حالة خاصة.. ستحولنى إلى مرشدها الروحى.

مر قرن حتى وصل شهر يونيو.. لم يكن لدى الأكاديمية السرعة لكى تُقدر درجات طلابها، لذلك امتحنا أنفسنا «امتحانًا حرًا» فى المعهد التابع لحيّنا. حصلت على علامات ممتازة كانت جواز مرورى الحاسم للرهبانية.

كان الصيف مضطرباً.. فبقدر اقتراب لحظة الرحيل كان يسكن معدتى خوف لم أكن أضعه فى حساباتى. وبرغم أننى كنت أريد الهروب من عائلتى، من الحى، من الأكاديمية، بدأت أشعر بحدسى أن البدء من جديد لن يكون سهلاً. كانت المعلومات التى لدى عن المدارس الداخلية قليلة جداً، لكنى كنت أشك أنها أماكن لن يصبح من السهل فيها اكتساب المكان، أو أن أكون شخصاً ما. كنت أقوم بعمل تصور بإستمرار، كنت أتخيل ظروف، محادثات، مشاهد. كنت أصلى من أجل أن يكون كل شىء جيداً.. إذ أن فكرة طلب الرجوع بيأس بعد أسبوعين من ذهابى تجعل شعر رأسى يقف. محاصرًا بين الرغبة فى الهرب والفزع من اقتراب الميعاد. تحققت من أن أغلب زملاء الرهبانية قادمين من بيئة ريفية.. حيث إن فى ذلك العصر كانت الكنيسة تقتات من الأولاد الأكثر ذكاءً الذين يكونون من أكثر العائلات فقراً. لم أكن أتصور كيف سيتصرفون، كيف سينظرون إلىّ، إلى أى حد هناك سوف أذهب، مرة أخرى.. غريب الأطوار. جعلنى التوتر أنحف وكان يثير داخلى آلام الرأس.

t.me/qurssan

حملتنى أمى إلى الطبيب وتحدثت هى معه على انفراد، ثم تركتنا وحدنا، سألنى الطبيب إذا كنت قلقاً من شىء، أجبته بلا:

- "قالت لى أمك أنك ستذهب إلى الرهبانية فى سبتمبر. إذا كنت نادماً، يمكنك أن تقول لىّ".

- "لم أندم". قلت كابحاً خزيى.

وصف لى مُركب فيتامينى. كانت المرة الأولى التى أسمع فيها ذلك التعبير.. مُركب فيتامينى، وظل محفوراً داخلى لغرابته.. فكلمة »مُركب «فى شبكتى اللغوية كانت مساعداً لكلمة نقص.. مركب نقص. ماذا رأى فىّ هذا الطبيب لكى ينصحنى بمثل هذا الدواء؟. كنت أتناول الأقراص بجزع، متمنياً أن يزول عنى النقص. وهكذا.. بين أشياء وأخرى، أتى شهر سبتمبر.

حدث صدفةً أنه قبل أيام من التاريخ المحدد لسفرى ظهر فى البيت أخو والدى..العم فرانثيسكو الذى كان علاوة على ذلك عرابى. كان يعيش فى طنجة، فكانت سمعته بيننا أنه ممن كانوا يعيشون فى الخارج (نحن نتحدث عن عصر كان أكثر ما يمكن للمرء التطلع له هو أن يكون فى مكانٍ آخر). كان معتاداً على الظهور مرة طوال الصيف مع زوجته وبناته فى سيارة مرسيدس.. كانت السيارة تشكل عنصرًا آخر للمكانة.. حيث إنها كانت فعلياً الشىء الوحيد الذى يظهر بطول الشارع.

كان العم فرانثيسكو نموذجاً مرحاً.. بذقن جذابة جداً، لا تنقصها الغمازات التى تحظى بها ذقون

t.me/qurssan

الممثلين الكبار فى السينما الأمريكية. كان ينقل إحساساً بالاطمئنان الشخصى الذى لم يكن أيضاً معتاداً فى عالمنا. وبما أن الرهبانية كانت توجد فى مدينة صغيرة تسمى بيادوليد.. على بُعد مائتى كيلو متر من مدريد، فقد عرض علىّ حملى فى سيارته. كانت تجربتى الوحيدة مع القطار هى سفرتى بين فالنسيا ومدريد.. وقد كانت رحلة كئيبة، لذلك شكرته كثيراً. كان بمثابة تأخير بضع ساعات للقرار. وكانت المشكلة الوحيدة أنه سيتركنى فى الرهبانية يوماً قبل يوم الوصول الرسمى، لكن أبى هاتفهم وقالوا له إنه لا توجد أية مشكلة.

أعدت أمى الحقيبة بالملابس التى كانت بعلامتها على مدى الأسابيع الأخيرة. كانت شنطة عميقة، رمادية، من القماش، لها زوايا مقوية بأغلفة من المعدن (لعلها إضافة من أبى). لا أعرف من أين أتت، ولا ماذا حدث لها، لكنها الآن سوف تمنحنى شيئاً أطل منه على ذلك العمق، لكى أشمها، من أجل رؤية إذا ما كان مقدار الخوف الذى ترسب فى أحشائها قد ترك فىّ أثراً لرائحة. قُرر - أجهل راى من- أن يصاحبنا أبى، كنا هناك..عند باب المنزل.. حاملين الشنطة فى العربة الوحيدة الموجودة فى الشارع. كنا هناك تنظر علينا الجيران. كنت هناك وبى غُصة، لكن دون أن أُخرج دمعة واحدة. ودعت إخوتى بسرعة، ودعت الشارع، أمى.. التى أجلت بانزعاج القبلات والأحضان. عندما انطلقنا فى النهاية ألقيت نظرة على دكان والد فيتامينات، فمنذ شهور لم ألتق بماريا

t.me/qurssan

خوسيه فى الشارع.. كأن الأرض ابتلعتها. على أى حال.. عندما كنا نلتقى كان كل واحد منا يغير الرصيف أو كان يدخل أول شارع يقابله. أثناء الدقائق الأولى من الرحلة.. بينما كنت أسمع المحادثة بين أبى وعمى، هاجمنى خيال منبه: أننى بالفعل أصبحت قسيساً، لكن بدلاً من أن أعمل فى الغابات، أعمل فى أبرشية فى مدريد. وذات يوم.. جاءت ماريا خوسيه لتعترف ووقفت فى الجانب الآخر من الستارة المعدنية ودون معرفة من أكون بدأت تحكى لى حياتها التى كانت كارثة اعتزمت أن أخلصها منها. عندما بدا الخيال فى إثارتى جنسياً، سألت نفسى إذا كنت قد اقترفت خطأً أخلاقياً، ورجعت إلى الواقع.

أذكر من الرحلة خاصةً مساحات من الأراضى المقفرة، فكنت دائماً طوال حياتى عند اجتيازى قشتالة بالسيارة يتولد مجدداً بدرجة أو بأخرى الحنين الذى شعرت به حينها. أذكر أيضاً أن فى وسط الطريق أوقفنا حارس مدنى.. شرطى - دون شك التقط السيارة- اقتصر كلامه على أن عمى اجتاز السرعة المقررة لانحدار منتصف الطريق، وكانت منطقة ضيقة للغاية، اعتذر عمى وسمح لنا الشرطى أن نكمل سيرنا. سألت ماذا تعنى سرعة الانحدار فشرحها لى عمى بدقة. بعد ذلك بسنوات.. فى الامتحان النظرى لرخصة القيادة، خصونى بسؤال متعلق بهذه الصورة وجُددت ذكرى ذلك المشهد - بينما كنت أقوم بالامتحان-، دائماً يتجدد عند تعبير كهذا.

t.me/qurssan

وصلنا إلى الرهبانية فى الليل، لذلك أشار رئيسها إلى عمى وأبى أن يتناولا العشاء قبل بدء العودة، وبينما كانوا يتحدثون بالقرب من السيارة، رأيت ظل بيت كبير هائل مُقام وسط لا شىء، كانت الظلمة التى تحيط بالمبنى والقمر والنجوم تكسبه بطولة لم ألاحظها قبل ذلك أبداً فى حياتى.

كان العشاء - الذى تناولناه فى قاعة الطعام المعتمة للغاية فى الرهبانية (وربما لم يكن هناك نور، وكانت إضاءة شموع، بالرغم من أننى لن أستطيع أن أقسم على ذلك)- مرعباً جداً.. حيث إن كل شىء فيه كان يفضى فى الحال إلى أن أبى وعمى سيتركانى فى ذلك المكان المعتم، الموحش، البعيد كثيراً عن حياتى. كان رئيس الرهبانية - الذى كان أعرج ونحيفاً للغاية- ينتعل فى طرف ساقه المريضة.. القصيرة أكثر بكثير من الأخرى.. حذاءً برقبة ضخم، ثقيل وأسود.. كالسندان.. الذى يستقر عليه مركز ثقل كل جسده (وصفته بتفصيل فى روايتى «حبر على ورق» تعشى معنا، وقد وزع الطعام والشراب علينا راهب خادم كان يدخل ويخرج من الحجرة كالشبح. فى أحد اللحظات.. بدا لى أنه كان يجتاز الباب بدلاً من فتحه. تحدثوا عن خطط التدريس فى الرهبانية. أشار الرئيس إلى أنهم كانوا يختصرون التعليم الثانوى عامًا بالنسبة للطلاب الرسميين بعد الأخذ فى الاعتبار أن فى ذلك القرن ما كان يُنجز فى ستة أعوام من الممكن أن يُنجز فى خمسة أعوام فى المدرسة الداخلية. لفت انتباهى تعبير «قرن» الذى لم

t.me/qurssan

أفهمه وقتها. أذكر أيضاً أن معدتى انغلقت بالمعنى الحرفى للكلمة، وبالرغم من أننى كنت أحاول أن آكل ما كانوا يقدمونه لى، إلا أنه بدا لى مستحيلاً، وبينما كنت أمضغ كنت أتدرب مرة أخرى على لحظة الوداع. كنت أقوم بذلك آلاف المرات، لكن كان لدى انطباع أنه لن ينفعنى فى شىء، كنت أقول لنفسى.. لاتبك، لا تبك من فضلك. يا إلهى.. إذا لم أبك، سوف أفعل ما تطلبه منى باقى حياتى. انتابنى الفزع من البكاء كالآخرين الذين ينتابهم الفزع من التبول فى السرير.

سعى الكبار - الذين دون شك لفت انتباههم نوبة الحنين التى أصابتنى.. حيث كنت أغلب الظن شاحباً كالورقة وسط نور خافت- إلى تجاهلى، لكى لا يحدث موقف غير مريح. تكلموا وتكلموا.. مرات بسرعة، وأخرى بالحركة البطيئة، فى بعض الأحيان كان ينشأ صمت للحظة أو لحظتين.. ربما أكثر قصراً. حتى إن فزعى طال كما لو أن لحظة الإعدام قد حانت.. حيث أحسست أننى على وشك أن أُعدم. من الواضح أننى سأظل حياً.. فقد كان إعداماً نظيفًا، بلا سفك دماء، لكن فى المرة التى رحل فيها أبى وعمى وسط الليل فى المرسيدس.. مات خوانخو.. تاركاً كنتيجة لذلك الاحتراق خوانخو أعزل، مُعدماً.. خوانخو يتيم، منبوذ، وحيد.

وهكذا ذهبوا.. فى منتصف الليل، بعد بعض القبلات كشكليات.. حيث إنهم أيضاً - أبى وعمى - كان لديهم خوف من أن أبكى. لم يحدث.. استطعت إيقاف البكاء بأعجوبة فى أعلى صدرى. مازال هناك.

t.me/qurssan

لم أبك مطلقاً فى تلك اللحظة، ولا حتى عندما بقيت بمفردى.

اصطحبنى الراهب الخادم الذى كان يخدمنا فى العشاء إلى غرفة النوم، قال بما إننى وصلت قبل باقى الطلاب بيوم فيجب علىّ أن أنام بمفردى، وسألنى إذا كنت أخاف، قلت له لا. ساعدنى على سحب الشنطة فى تلك الممرات اللانهائية، على تلك السلالم التى احتملتنى بقدر مرات صعودى وهبوطى.. ساعدنى على تجاهل باقى مشاعرى وأحاسيسى الجسدية التى كانت تستحوذ علىّ.. سحبتها بيأس أو فزع الجريح الذى يلمم أحشاءه فى المعركة ويجرى بها بين يديه إلى مستشفى الميدان.

كانت غرفة النوم جناحاً ضخماً فيه خمسون أو مائة سرير، لم أستطع عدها. متراصين فى صف، منفصلين بطاولات قصيرة من الخشب. كذلك كان مُضاء على نحو سيىء. أفرغنا الحقيبة فوق سريرى الواقع فى منتصف الجناح، وخصص لى الراهب الخادم خزانة بمفتاح لكى أرتب فيها ثيابى، وحمل هو الحقيبة.. حيث يحتفظون بالحقائب كلها فى مكانٍ ما.. مثل مجموعة من التوابيت. عندما بقيت وحدى، بعد إغلاق الخزانة والذهاب إلى الحمام.. الذى كان فى أحد أطراف غرفة النوم.. فكرت أن أبكى، لكن كانت آلية البكاء - ربما من الضغط الذى كنت أمارسه عليها- قد فسدت.. لم أستطع. ارتديت البيجاما، دخلت بين الملاءات، أغلقت عينى وقلت لنفسى: ماذا سوف يحدث لى.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الخاتمة

ذات يوم.. بعد شهور من انتهاء هذا الكتاب، وضعت رماد والدىّ فى شنطة السيارة، وخرجت بهم متوجهاً إلى ڤالنسيا، مستعداً لتنفيذ وصيتهما الأخيرة.. المُرجاة لمرات كثيرة. بعد قليل من أخذى الطريق ذى الاتجاهين، عانيت من نوع من الخيال.. فقد كنت أقود فى حقيقة الأمر إلى داخل الكتاب الذى فرغت من كتابة نهايته. كان الطريق موجوداً داخل روايتى.. يُشكل جزءاً منها. وكما أن الحلم يمدنى بحالة من الاستغراب الإيحائى والتى لم تؤثر على أفعالى الانعكاسية، إلا أننى سعيت إلى عدم فعل أى شىء من الممكن أن يقضى عليه. وكانت حالات الهذيان - فى تجربتى- هشة كالفقاقيع. أحياناً.. يكفى تغيير الموقف من أجل أن يختفى الهذيان ويندفع الواقع بسخافة إلى الحِرَفيّة التى هى أمر مألوف. لذلك لا أضع موسيقى ولا أفتح الراديو. فقد كنت أُساق بنعومة.. دون استعجال.. ساعياً إلى عدم القيام

t.me/qurssan

بحركات فجائية. كان يبدو أمراً خيالياً أن تلك السفرة المؤجلة مرات كثيرة تشكل جزءاً من نسيج رواية العالم.. وهكذا قررت أن أضعه عنوانًا للرواية.

وعلى العكس.. ففى معظم هذا النوع من التجارب كان الخيال يتغذى بشكل عجيب دقيقة بدقيقة، كيلومتر بكيلومتر، مُحافظاً على تركيبته المنامية، وعلى جودة حلمه. وهكذا.. دون التوقف عن التقدم فى الطريق، كنت أتقدم فى الوقت نفسه على صفحات كتابى، ولو فى الاتجاه العكسى لكتابته.. كأن ما كان يحدث من الخلف نحو الإمام، فى اتجاه نشأته.. نحو الفصل الأول الذى تحدثت فيه عن فالنسيا التى كانت أيضاً مقصدى الجغرافى. انطلقت إذن من اللحظة نفسها التى مكثت فيها وحيدًا فى غرفة نوم الرهبانية، اجتزت منطقة الأكاديمية. ودخلت فى مائة ساعة من حكايات مجلة «ريدرز ديجست» ووصلت إلى فصل نيويورك الذى قابلت فيه ماريا خوسيه فى فندق فى شارع ٤٢ . وبطريقة لايمكن تفسيرها - كما يحدث فى الخيالات وفى الأحلام - كان يبدو المنظر من خلال الكوة بشكل متزامن منظراً حقيقياً - بحقوله، بتلاله، بسحبه ومحطات بنزينه - ، ومنظراً عقلياً، مُتخيلاً، مكتوباً.. حلماً لا سبيل لتحقيقه.

عند اجتياز كل فصل من فصول الكتاب.. كنت أُعيد لهم الحياة بشدة.. هذه المرة كمتفرج، وربما كقارئ.. حيث إن ما كان يحدث فى صفحاته كان

t.me/qurssan

يظهر من داخل السيارة بنفس الوضوح الذى كانت تُقدَر به السيارات التى كنت أتقدم نحوها بنفس السهولة التى ينزلق بها القلم على الورقة فى أحد هذه الأيام الموفقة التى يتملكك فيها إحساس الكتابة عند الإلهام. فالكتابة الجيدة تستلزم الكتابة عند الإلهام عن جانبك الذى يظل داخل حالة الهذيان بينما يخرج الجانب الآخر من هذه الحالة للاتصال بالآخرين أو لكسب الرزق. فكرت أن والدى - فى أيامه الأخيرة- كان يأكل مرتين لأنه كان يغذى جانبين من نفس الشخص.. كان داخل هذا الشخص أب تقليدى.. رجلاً فقط، لكنه أيضاً نموذج لعالِم روحانى مثابر فى بناء دائرة كهربائية قادرة على تفجير القضايا ذات الطابع الأدبى.

مع هذه الأفكار اجتزت مناطق الرواية التى كان يُوصف فيها بدروم فيتامينات، علاقتى به وبوالده، لقائى بعين الله، مرحلة الجاسوسية فى خدمة الإنتربول، فشلى مع لوث... . وبالرغم من أننى لم أجرؤ على تحريك عضلة واحدة خوفاً من اختفاء الهذيان، فقد بدأت تُمطر فجأة وكان يجب علىّ تحريك الممسحات والتى دونها.. لحسن الحظ.. زال المناخ الوهمى. كانت تمطر داخل الرواية فى بعض اللحظات بنفس اليأس الذى كانت تمطر به داخل حياتى. الآن ذهبت إلى شارعى. إلى شارع كانييّاس.. شارع طفولتى المبلل، بصحن مكبسه، ومنازله المنخفضة وحتى بذبابه.. على هذا النحو كانت

t.me/qurssan

التفاصيل التى عبّرت عن الوهم. رأيت أبى داخل الورشة.. مائلاً على شريحة اللحم البقرى التى يقوم بعمل قَطَعَات فيها بدقة مدهشة بمشرطه الكهربائى. عدت لسماع جملته التأسيسية لهذه الرواية، وربما لبقية أعمالى (يكوى الجرح ويفتحه فى الوقت نفسه). وعرفت بأثر رجعى أن سحر والدى ذلك كان قد كوّن بالنسبة لى منهج حياة، منهجاً تبعته حرفياً.. حيث إنه يشاطر الكتابة إحساس الضرر والارتياح فى الوقت نفسه. ربما.. قبل كل شىء.. كان ذلك الطفل الهش قادراً على إنجاح شىء ثمين، شىء مختلف عن باقى الأطفال، شىء يتطلب درجة من الشجاعة التى لم يتخيلها أبى أبداً فىّ.

وصلت فالنسيا فى منتصف النهار فى يوم غائم وبارد، يوم فى الشتاء يُؤذن بقليل من الأمطار، يوم حزين قليلاً، ولو أننى لم أنتبه حتى أصبحت خارج حالة الهذيان التى خرجت منها قليلاً بقليل - بطريقة تدريجية- كالانتقال من اليقظة إلى الحلم. أعتقد أنه عند اجتيازى مجرى النهر الجاف، تنبهت إلى أننى تحولت إلى رجل ليس أكثر، مجرد شخص كان يقود سيارة تحمل فى شنطتها رماد والديه. لم أدرك بوضوح هذين التحولين اللذين حدثا لى. كان الواقع يحدث فى نطاق فظ، فى إطار من العادات يتصرف داخله الناس بطريقة عملية، كما لو أنه لا يوجد داخلهم بُعد حُلمى، على سبيل المثال جنونى، كما لو أن المدينة بأكملها لم تكن الهذيان نفسه. فجأة.. وجدت

t.me/qurssan

نفسى خارج الرواية، لكنى حاولت أن أقوم بعمل ما (تحرير نفسى من رفات والدىّ) لإتمامها.

وهكذا.. كان كخوانخو - بمعنى.. أننى تحولت إلى رجل (بالطريقة التى كان بها أبى.. بابا، وأحياناً.. رجل)- عندما بلغ شاطئ طفولته، فركن السيارة، خرج منها، أخذ كيسا الكورت إنجليس وتوجه بهما إلى الشاطئ. لحسن الحظ.. كان هناك شخصان فقط يجريان وثلاثة أو أربعة أكثر يتمشون. كان الجو بارداً على غير العادة بالنسبة لڤالنسيا والسماء كانت مُغطاة بسقف من الغيوم القريبة بشكلٍ غريب. أفرغت أولاً رماد أمى، ورميت فوقه بعد ذلك رماد أبى، وبقيت هناك والكيسان البلاستيكيان فى يدى.. منتظراً أن تحمله الأمواج. لكنه لم يحدث. كانت الأمواج ضعيفة جداً وعندما أصبحت كثيرة اقتصرت على أن تُبلل قاعدته.

بدأت أتوتر.. حيث بدا لى شىء سيىء تركه على مرثى الناس، مُعَرَض أن يتبول عليه كلب أو يركله مارٍ. حاولت عندئذٍ أن أنثره قليلاً، محتميا بيدى التى بها الكيس البلاستيك، لكن البلل حول الرماد إلى عجين متماسك تمر عليه الأمواج دون تأثير. انحنيت من جديد ونثرت العجين على الرمل الناعم لتسهيل ذوبانه. وهكذا.. حمل البحر الجزء الأساسى، والآخر ظل مطبوعاً على سطح الرمل مكوناً رسومات كانت تبدو كحروف الهجاء. فى النهاية.. كان يجب على أخذ بضع حفنات من ذلك الرماد الممتزج بالرمل -

t.me/qurssan

بالكيس البلاستيك الذى استعملته كالقفاز- ورميّها بعيداً. نظفت بعد ذلك الأكياس بدقة حتى أحرر نفسى من الرماد دون تأنيب ضمير.

اكتملت المهمة، وعند تركى للشاطىء بأحذيتى المبللة.. لاحظت أن هناك شخصاً كان يراقبنى من على دكة المنتزه البحرى. كان يرتدى ملابسا رياضية ويحمل شنطة رياضية، لذلك أول ما خطر ببالى أنه كان عداءً. ثم تبعنى بنظرته بينما كنت أتجه من غير بُد نحو مكانه، لكننى فضلت ألا أنعطف حتى لا أعطى علامة لعدم الأمان (ربما كان ممنوعاً أيضاً رمىّ رفات الإنسان فى البحر). وعندما وصلت عنده، توجه إلىّ:

- "معذرة". قال.

- "نعم!". أجبت بحرص.

- "لم أستطع منع نفسى.. رأيت حضرتك، وبدا لى أنك قذفت رماداً فى البحر".

- "هل هو ممنوع؟". سألت بهجوم عدائى.

- "ليس كذلك، الأمر أننى...".

بلع الرجل ريقه، فأدركت أنه ليس على ما يرام، ولو أننى لم أتخيل السبب.

- "الأمر أننى".. ثم أكمل فى النهاية.. "أنا آتى إلى هذا المكان منذ سبعة أشهر بفكرة تحرير نفسى

من رماد ابنتى، لكنى لاأزال غير قادر على فعل ذلك".

t.me/qurssan

- "أحمله فى هذا الكيس. تعتقد زوجتى أنه فى البحر منذ وقت طويل، فقد وعدتها أننى سوف أفعل أنا

ذلك لأنها تنقصها الشجاعة. وبينما أذهب إلى الجمنازيوم كل يوم، احتفظت به وقتها فى خزانة الملابس، وكل يوم أخرجه وأحضره هنا بنية تنفيذ وعدى، لكننى دائماً أرجع به".

- "من أى شىء تخاف؟".

- "عند فتح الوعاء".. قال.. "أعرف أنه لا يوجد داخله أكثر من رماد، لكنه رماد ابنتى".

- "الرماد".. أخبرته.. "يوجد بدروه داخل كيس بلاستيك يوجد داخل وعاء".

- "بالفعل".

بقينا صامتين، متحاشين النظر لبعضنا. نظرت إلى ساعتى بنفاد صبر.. حيث إننى كنت قد قررت العودة فى نفس اليوم إلى مدريد. لكن قبل أن يمنحنى الوقت لأودعه، بدأ الرجل يحكى لى حكاية ابنته التى توفيت فى حادث مرور وهى تقود دراجتها البخارية التى أهدوها لها عند انتهائها من تعليمها الثانوى. كرر ما نحفظه لنقوله فى هذه المواقف: الذى نُحضره من أجل موت الآباء، لكن ليس لموت الأبناء.. فموت الابن كان يتضمن ألماً من الممكن التوافق معه، لكن لا يمكن القضاء عليه، أشار أيضاً إلى أنه عندما لا يكون لدى الشخص أبناء هو أمر مختلف عن أن يكون لديه أبناء ويخسرهم... . لم يقل شيئاً لم أسمعه فى السينما أو

t.me/qurssan

أقرأه فى الروايات، لكنه كان يبدو وكأننى أسمعه لأول مرة.. حيث إن ألمه - بالرغم من تكراره- كان يبدو فريداً. بعد ذلك سأل لمن كان الرماد الذى ألقيته أنا فقلت له إنه لوالدىّ، لكننى لم أضف شيئاً.. فلم أكن أريد أن أزيد من هذه الحميمية التى نشأت - رغماً عنى- بيننا. أظهرت له تضامنى بنية هروبى من هناك فى أقرب وقت ممكن، لكنه بدا فى قول إنه بعد أن يحرر رماد ابنته سوف ينفصل - على الأرجح ـ عن زوجته.

- "لعل هذا هو السبب الحقيقى لكل هذه التأجيلات". أضاف.

سألته لماذا يربط شيئاً بآخر، فقال إنه لا يعرف لكنه يشعر بذلك. خطر ببالى - مع أننى لم أقل شيئاً- أن ذلك الرجل كان قادراً على التعايش مع ألمه الخاص (ربما بسبب ذنبه). لكنه لا يتعايش مع زوجته.

- "فى بعض الأيام".. استمر قائلاً.. "فكرت إذا صاحبنى أحد فى لحظة رمى الرماد فى البحر، من الممكن أن أقوم به. لكنى لا أعرف ممن أطلب ذلك".

أدركت إلى أين يريد أن يصل واعتذرت مؤكداً له أننى فى عجلة من أمرى. بعد ذلك مددت يدى.. التى شد عليها بدون اقتناع.. تمنيت له الحظ وبدأت فى الانسحاب بأكياس الكورت إنجليس المبللة فى يدى. بالكاد سرت بضع خطوات، عندما سمعت صوتاً خلفى. عدت فقال:

t.me/qurssan

- "مياس.. ساعدنى".

أمر غريب.. مع أن مياس هو أيضاً لقبى، لكنى سمعت فقط لقب أبى. أتت إلى ذاكرتى فجأة بطاقات الزيارة، الأظرف التى كان يستخدمها لإرسال فواتيره، ختمه الكاوتشوك الذى كان يختم به بجانب توقيعه.. مياس. متظاهراً أننى أيضاً كنت مياس (حيث إن فى تلك اللحظة كان اللقب قد انفصل عنى)، صاحبته إلى الشاطئ وقلت له إنه يجب أن يزيل غطاء الوعاء بيديه هو، هو فقط، فأنا لن أستطيع، ولن أساعده فى هذا. شرحت له أنه عند إخراج الكيس ربما يكون قد انخرق فينطلق منه الرماد الذى سيخرج عن السيطرة. أشرت له أنه لا يجب عليه ترك رفات ابنته على الشاطئ واثقاً فى قوة الأمواج.. لأن الأمواج هادئة. قلت له إنه إذا أراد حقيقةً أن يتركهم فى البحر، يجب عليه أن يتقدم قليلاً إلى الداخل، يجب عليه أن يبتل. أعجبنى التعبير المستخدم عادةً بصورة مجازية - لكى يشير إلى أنه أحياناً فى الحياة من الضرورى التعرض للخطر- يكون له فى تلك اللحظات معنى حرفى.

اتبع الرجل تعليماتى بسلاسة.. كالمبتدئ المنتبه إلى ملاحظات معلمه. ربما كان يحتاج فقط إلى راو .. صوت يصف تحركاته لحمله على تنفيذها.

- "والآن ماذا أفعل بالوعاء؟". سأل بسخافة.

- "تتركه فى خزانة الملابس وتغير الجمنازيوم". قلت.

t.me/qurssan

ضحك الرجل ببساطة. لاحظت أنه تحرر من حمله، أنه أغلق فصلاً فى حياته، أنه فك سحراً كان مرتبطاً بموقف غير مرغوب فيه. وبينما نحن عائدان إلى المنتزه البحرى، سألته من الذى أخذ قرار شراء دراجة بخارية لابنته؟!:

- "زوجتى".. قال.. "أنا عارضت لأننى شخص مليىء بالمخاوف. عارضت أيضاً يوم ولادتها حتى أجعلها تتحاشى المعاناة. أنا من هذا النوع من المرضى.. لذلك لا يوجد داخلى أى ضغينة ناحية زوجتى. فإذا وزعت الأخطاء.. كان فزعى من الأخطار التى تتربص بابنتنا قاتلاً أكثر من تهورها. لقد

حدث ما حدث وانتهى الأمر".

حدث ما حدث وانتهى الأمر.

فى طريق عودتى إلى مدريد.. كنت أفكر فيما حدث وانتهى. تذكرت يوماً كنت أتمشى فيه فى الحقل فى أشتوريا.. توقفت أمام بقرة على وشك الولادة، فأدركت أن الولادة كانت تحدث داخل جسدها كالكلام الذى يحدث داخلنا. أدركت أننى.. أخيراً.. لم أكن أكثر من مكان يحدث فيه ما كان يُحكى فى العالم. كانت الفكرة مُحررة بطريقة هائلة. ربما لم نكن المتسببين فى الضيق.. لكننا مكانه، ولا فى الأحلام.. لكننا أماكنها، ولا فى المرض.. لكننا مكانه، ولا فى النجاح أو الفشل.. لكننا أماكنهما... . كنت أنا المكان الذى مُنح لقب مياس كآخرين مُنحوا لقب لوبث أو

t.me/qurssan

جارثيا. فى أية لحظة بدأت أصبح مياس؟ فى أى لحظة بدأنا نصبح أورتادو. جوتيريث أو مِدينا؟ لا.. بالطبع.. منذ لحظة الولادة. فالاسم هو جراحة تعويضية، الشىء المغروس الذى يمتزج بالجسد حتى يتحول إلى شىء بيولوجى تقريباً، على طول تطور غريب الأطوار وطويل. لكن ربما عندما ننهض فى يوم لنكون بالفعل مياس أو مينيندث أو أورتيجا، نتوقف فى يوم آخر بنفس الطريقة عن ذلك. ليس فجأة.. لكن ببطء. ربما منذ اللحظة التى ودعت فيها الرماد - والتى كانت طريقة لوضع نهاية للرواية- كنت قد بدأت أن اتوقف عن كونى مياس.. حتى عن أن أكون خوانخو. تذكرت صورة حديثة يظهر فيها جارثيا ماركيز مُحاطاً بمعجبين شباب، لفت انتباهى تعبير الوجه.. كما لو أن أحداً قد نفذ من خلال الكاتب المعروف. لم يكن جارثيا ماركيز - فكرت- بالكامل فى ذلك الجسد. خطرت لى أيضاً ذكرى بعض بيانات فرانثيسكو أيالا..(*) ألفاظ فى نص الاحتفالات بمئويته: «يا للغرابة» قال وجدتنى أستمع لكم لما تقولوه عنى". هذه الغرابة التى تتعلق بحياته كانت من الممكن فقط أن تعنى أنه - فى جانب على الأقل- لم يكن بالفعل موجوداً هناك. لكن إذا كنا لا نعلم متى بدأنا أن نكون فلان الفلانى، فكيف نعرف فى أية لحظة بدأنا التوقف عن كوننا هو.

لا أعرف فى أية لحظة بدأت أكون خوان خوسيه مياس، لكن نعم كنت واضحاً أثناء رحلة العودة (أو أن

(*) عالم بيولوجى وفيلسوف إسبانى (المترجمة).

t.me/qurssan

رحلة العودة كانت هى رحلة الذهاب؟) أن ذلك اليوم كنت قد بدأت فيه التوقف عن كونى هو. وبفضل هذا الاكتشاف، بدت المسافة بالنسبة لى قصيرة.

أتذكر عند وصولى إلى البيت كنت حزيناً بعض الشىء، وكأنك تُنهى كتاباً ربما يكون الأخير.

t.me/qurssan

الفهرس

- الجزء الأول.. البـــرد ٩
- الجزء الثانى.. الشـــارع ٤٧
- الجزء الثالث.. أنت غير جذاب بالنسبة لى ... ١١٥
- الجزء الرابع.. الأكاديمية ١٨٣
- الخاتمة ٢٢٩

t.me/qurssan

الرواية

تقف رواية "العالم" على تخوم "السيرة الذاتية" حتى أن "مياس" يتساءل فى نهايتها: هل كان لهذا الصبى الذى لم يغادره قط الشعور بالبرد ووطأة الفقر أن يصير هو الكاتب الكبير نفسه "خوان خوسيه مياس" ... إن البطل المراهق يفيق على عالم رحب عندما يهاجر من مدينته الأم "بالنيثيا" فى السادسة من عمره إلى مدريد التى يراها باردة، ويظل يطارد رؤية ومشاعر الصبى أثناء اكتشافه للشارع الذى مر به فى طفولته والذى حاول أن يهرب منه دوما. وعندما يتحقق حلمه بالهروب يجد الشارع نفسه فى كل محطات حياته وكل العواصم التى جابها وكأن هذا الشارع هو "العالم".

الروائى: خوان خوسيه مياس أحد أهم الكتاب الإسبان.

الجائزة: جائزة البلانيتا عام ٢٠٠٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

t.me/qurssan